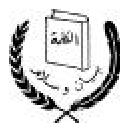
حسن بن أحمد البلوشي

سلسلة التقريب بين المدرسة الصوفية والمدرسة السلفية

(١)

تحقيق الوصول في شرح ثلاثة الأصول



مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية بعابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحَمد لله ، نَحمده ونستعينه ونستغفِره ، ونعوذ بالله منِ شُرور أنْفُسنا ، وسَيِّئات أعمالنا ، من يَهد الله فلا مُضِل له ، ومن يُضلل فلا هادي له . وأشهد أنَ لا إلـه إلا الله ، وحـدهُ لا شـريـكَ لـه ، وأشـهـد أنَ محمدًا عبدهُ ورسـولـه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ورضي الله عن الصحابة الكرام من المُهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان . وبعد . . فهذا العمل هو الحلقة الأولى من سلسلة التقريب بين المدرسة الصوفية والمدرسة السلفية (أهل السُّنة والجماعة)، من خلال شرح رسالة ـ ثلاثة الأصول وأدلتها ـ للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وقبل الشروع في ذلك لا بد من كلمة في جمع الكلمة :

بين الحقيقة والشريعة [١]

تمهيد وتعريف :

لقد ورد في حديث جبريل المشهور الذي يرويه عمر بن الخطاب رضي الله عنه تقسيمُ الدين إلِى ثلاثة أركان ، بدليل قول الرسول ﷺ لعمر : « فإِنه جبريل أتاكم يعلمُكُمْ دينَكمْ » [٢] .

١- فركن الإِسلام : هو الجانب العملي ؛ من عبادات ومعاملات وأُمور تعبدية ، ومحله الأَعضاء الظاهرة الجسمانية . وقد اصطلح العلماء على تسميته بالشريعة ، واختص بدراسته السادة الفقهاء .

---

(١) حقائق عن التصوف : عبد القادر عيسى . صـ ٣٨١-٤٥٠ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإِيمان . والإِمام أحمد في مسنده في باب الإِيمان والإِسلام والإِحسان ١/٦٤.

٢- وركن الإِيمان : وهو الجانب الاعتقادي القلبي ؛ من إِيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقضاء والقدر . . وقد اختص بدراسته السادة علماء التوحيد .

٣ - وركن الإِحسان : وهو الجانب الروحي القلبي ؛ وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإِن لم تكن تراه فإِنه يراك ، وما ينتج عن ذلك من أحوال وأذواق وجدانية ، ومقامات عرفانية ، وعلوم وهبية ، وقد اصطلح العلماء على تسميته بالحقيقة ، واختص ببحثه السادة الصوفية .

ولتوضيح الصلة بين الشريعة والحقيقة نضرب لذلك مثلاً الصلاة ، فالإِتيان بحركاتها وأعمالها الظاهرة ، والتزام أركانها وشروطها ، وغير ذلك مما ذكره علماء الفقه ، يمثل جانب الشريعة ، وهو جسد الصلاة . وحضور القلب مع الله تعالى في الصلاة يمثل جانب الحقيقة ، وهو روح الصلاة .

فأعمال الصلاة البدنية هي جسدها ، والخشوع روحها . وما فائدة الجسد بلا روح؟! وكما أن الروح تحتاج إِلى جسد تقوم فيه ، فكذلك الجسد يحتاج إِلى روح يقوم بها ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ** ﴾ (البقرة:١١٠) ولا تكون الإِقامة إِلا بجسد وروح ، ولذا لم يقل : أوجدوا الصلاة .

ومن هذا ندرك التلازم الوثيق بين الشريعة والحقيقة كتلازم الروح والجسد . والمؤمن الكامل هو الذي يجمع بين الشريعة والحقيقة ، وهذا هو توجيه الصوفية للناس ، مقتفين بذلك أثر الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام . وللوصول إِلى هذا المقام الرفيع ، والإِيمان الكامل ، لابد من سلوك الطريقة ، وهي مجاهدة النفس ، وتصعيد صفاتها الناقصة إِلى صفات كاملة ، والترقي في مقامات الكمال بصحبة المرشدين ، فهي الجسر الموصل من الشريعة إِلى الحقيقة .

قال السيد رحمه الله تعالى في تعريفاته : (الطريقة هي السيرة المختصة بالسالكين إِلى الله تعالى ، من قطع المنازل والترقي في المقامات) [١].

فالشريعة هي الأساس ، والطريقة هي الوسيلة ، والحقيقة هي الثمرة وهذه الأشياء الثلاثة متكاملة منسجمة ، فَمَنْ تمسَّك بالأولى منها سلك الثانية فوصل إِلى الثالثة ، وليس بينها تعارض ولا تناقض . ولذلك يقول الصوفية في قواعدهم المشهورة : (كل حقيقة خالفت الشريعة فهي زندقة) . وكيف تخالف الحقيقةُ الشريعةَ وهي إِنما نتجت من تطبيقها .

يقول إِمام الصوفية أحمد زروق رحمه الله تعالى : (لا تصوف إِلا بفقه ، إِذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إِلا منه ولا فقه إِلا بتصوف ، إِذ لا عمل إِلا بصدق وتوجه لله تعالى ولا هما [التصوف والفقه] إِلا بإِيمان ، إِذ لا يصح واحد منهما دونه فلزم الجميع لتلازمها في الحكم ، كتلازم الأجسام للأرواح ، ولا وجود لها إِلا فيها ، كما لا حياة لها إِلا بها ، فافهم) [٢].

ويقول الإِمام مالك رحمه الله تعالى : (مَنْ تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق) [٣].

تزندق الأول لأنه نظر إِلى الحقيقة مجردة عن الشريعة ، فقال بالجبر وأن الإِنسان لا خيار له في أمر من الأمور ، فهو يتمثل قول القائل :

ألقاهُ في اليمِّ مكتوفًا وقال له   إِياك إِياك أنْ تبتلَّ بالماءِ .

فعطَّل بذلك أحكام الشريعة والعمل بها ، وأبطل حكمتها والنظر إِليها . وتفسَّق الثاني لأنه لم يدخل قلبه نورُ التقوى ، وسرُّ الإِخلاص وواعظ المراقبة ، وطريقة المحاسبة ، حتى يحجب عن المعصية ، ويتمسك بأهداب السنة .

---

(١) تعريفات السيد صـ٩٤

(٢) «قواعد التصوف» للشيخ أحمد زروق قاعدة ٣ . صـ٣

(٣) «شرح عين العلم وزين الحلم» للإِمام مُلا علي القاري ١/٣٣

وتحقق الثالث لأنه جمع كل أركان الدين : الإِيمان ، والإِسلام ، والإِحسان ، التي اجتمعت في حديث جبريل عليه السلام .

وكما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة ، كذلك حفظ علماء التصوف آدابها وروحها ، وكما أبيح لعلماء الظاهر الاجتهاد في استنباط الأدلة واستخراج الحدود والفروع ، والحكم بالتحليل والتحريم على ما لم يَرِدْ فيه نص ، فكذلك للعارفين أن يستنبطوا آدابًا ومناهج لتربية المريدين وتهذيب السالكين .

ولقد تحقق السلف الصالح والصوفية الصادقون بالعبودية الحقة والإِسلام الصحيح ، إِذ جمعوا بين الشريعة والطريقة والحقيقة ، فكانوا متشرِّعين متحققين ، يهدون الناس إِلى الصراط المستقيم فالدين إِن خلا من حقيقته جفَّت أصولُه ، وذوت أغصانه ، وفسدت ثمرته .

مناقشة المتحاملين على الصوفية

أما هؤلاء المعترضون على السادة الصوفية :

- إِن كانوا ينكرون هذا التقسيم إِلى [شريعة ، وطريقة ، وحقيقة] على النحو الذي بيَّناه آنفًا ، فهم لاشك يريدون بذلك أن يفصلوا روح الإِسلام عن جسده ، وأن يهدموا ركنًا هامًّا من أركان الدين الثلاثة الموضحة في حديث جبريل عليه السلام ، ويخالفوا علماء الإِسلام وكبار فقهائه .

يقول ابن عابدين رحمه الله تعالى في حاشيته المشهورة (بِرَدِّ المحتار) : (الطريقة : هي السيرة المختصة بالسالكين من قطع المنازل ، والترقي في المقامات) . ويقول في الصفحة التي تليها : (فالحقيقة : هي مشاهدة الربوبية بالقلب ، ويقال : هي سر معنوي لا حدَّ له ولا جهة وهي والطريقة والشريعة متلازمة ، لأن الطريق إِلى الله تعالى لها ظاهر وباطن ، فظاهرها الشريعة والطريقة ، وباطنها الحقيقة . فبطون الحقيقة في الشريعة والطريقة ، كبطون الزبْد في لبنه ، لا يُظفر من اللبن بزبده بدون مخضّه ، والمراد من الثلاثة [الشريعة ، والطريقة ، والحقيقة] إِقامة العبودية على الوجه المراد من العبد)[١] .

---

(١) حاشية ابن عابدين ٣/٣٠٣

ويقول الشيخ عبد الله اليافعي رحمه الله تعالى : (إِن الحقيقة هي مشاهدة أسرار الربوبية ولها طريقة هي عزائم الشريعة ، فمن سلك الطريقة وصل إِلى الحقيقة . فالحقيقة نهاية عزائم الشريعة ، ونهاية الشيء غير مخالفة له ، فالحقيقة غير مخالفة لعزائم الشريعة) [(١)].

وقال صاحب كشف الظنون في حديثه عن علم التصوف : (ويقال : علم التصوف علم الحقيقة أيضًا ، وهو علم الطريقة ، أي تزكية النفس عن الأخلاق الردية ، وتصفية القلب عن الأغراض الدَّنية . وعلم الشريعة بلا علم الحقيقة عاطل ، وعلم الحقيقة بلا علم الشريعة باطل .

علم الشريعة وما يتعلق بإِصلاح الظاهر بمنزلة العلم بلوازم الحج . وعلم الطريقة وما يتعلق بإِصلاح الباطن بمنزلة العلم بالمنازل ، وعقبات الطريق . فكما أن مجرد علم اللوازم ، ومجرد علم المنازل لا يكفيان في الحج الصوري بدون إِعداد اللوازم وسلوك المنازل ، كذلك مجرد العلم بأحكام الشريعة وآداب الطريقة لا يكفيان في الحج المعنوي ، بدون العمل بموجبيهما) [(٢)].

- وإِن كان المعترضون يقرّون فكرة التقسيم السالفة الذكر ، ولكنهم ينكرون هذه التسمية : [الشريعة ، والطريقة ، والحقيقة] .

نقول لهم : هذا تعبير درج عليه العلماء ، وجرى عليه الفقهاء كما بيَّنا وهو اصطلاح ، ولا مشاحة في الاصطلاحات .

- وإِن كانوا يقرون التقسيم والتسمية ، ولكنهم ينكرون على الصوفية أحوالهم القلبية ، وأذواقهم الوجدانية ، وعلومهم الوهبية .

نقول لهم : إِن هذه أمور يكرم الله تعالى بها عباده المخلصين ، وأحبابه الصادقين ، ولا حجر على القدرة الإِلهية . إِنما هي أذواق ومفاهيم ، وكشوفات

---

(١) نشر المحاسن الغالية ١/١٥٤

(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، لحاجي خليفة ١/٤١٣

وفتوحات ، منحهم الله إياها ، فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : «العلم علمان : علم في القلب ، وفي رواية : علم ثابت في القلب ، فذلك العلم النافع . وعلم على اللسان ، فذلك حجة الله على خلقه»[١].

ويدل على ذلك حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، فقد أخرج أبو نعيم في الحلية عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن معاذ بن جبل دخل على رسول الله ﷺ فقال : «كيف أصبحتَ يا معاذ ؟» .قال : أصبحتُ مؤمنًا بالله تعالى . قال : «إن لكل قول مصداقًا ، ولكل حق حقيقة ، فما مصداق ما تقول؟». قال : يا نبي الله! ما أصبحت صباحًا قط إلا ظننت أني لا أمسي ، وما أمسيت مساء قط إلا ظننت أني لا أصبح ، ولا خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى ، وكأني أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها ، معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار ، وثواب أهل الجنة . قال : «عرفت فالزم»[٢].

فلم يصل الصالحون إلى هذه الكشوفات والمعارف إلا بتمسكهم بالكتاب والسنة ، واقتفائهم أثر الرسول الأعظم وأصحابه الكرام ، ومجاهدتهم لأنفسهم ، من صيام وقيام ، وزهدهم في هذه الدنيا الفانية ، كما أكرم الله معاذًا رضي الله عنه بهذا الكشف الذي أقره عليه رسول الله ﷺ بقوله : «عرفتَ فالزم».

وهذا الإمام الشعراني رحمه الله تعالى يتحدث عن إكرام الله تعالى للصوفية الذين ساروا على نهج رسول الله ﷺ وأصحابه من أمثال معاذ رضي الله عنه فيقول :

(اعلم يا أخي أن علم التصوف عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة ، فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم

---

(١) رواه الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه بإسناد حسن ، ورواه ابن عبد البر النمري في كتاب العلم عن الحسن مرسلاً بإسناد صحيح كما في الترغيب والترهيب ١/٦٧

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/٢٤٢

وآداب وأسرار وحقائق ، تعجز الألسنة عنها ، نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من أحكام ، حين عملوا بما علموه من أحكامها)[1].

وقد كان علماء السلف الصالح رضي الله عنهم يعملون بكل ما يعلمون على وجه الإِخلاص لله تعالى ، فاستنارت قلوبهم ، وخلصت من العلل القادحة أعمالهم ، فلما ذهبوا وخلف من بعدهم أقوام لا يعتنون بالإِخلاص في علمهم ولا في عملهم أظلمت قلوبهم ، وحُجبت عن أحوال القوم فأنكروها .

وهناك مغرضون يتحاملون على الصوفية مستشهدين بكلام ابن تيمية وغيره ، ويتهمونهم زورًا وبهتانًا ، بأنهم يهتمون بالحقيقة فقط ، ويهملون جانب الشريعة ، وأنهم يعتمدون على كشفهم ومفاهيمهم ولو خالفت الشريعة ، فهذا كله افتراء باطل ، يشهد على بطلانه كلام ابن تيمية نفسه . فقد تحدث ابن تيمية رحمه الله تعالى عن تمسك السادة الصوفية بالكتاب والسنة في قسم علم السلوك من فتاواه فقال : (والشيخ عبد القادر [الجيلاني رحمه الله تعالى] ونحوه من أعظم مشائخ زمانهم أمرًا بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق والقدر ، ومن أعظم المشائخ أمرًا بترك الهوى والإِرادة النفسية ، فإِن الخطأ في الإِرادة من حيث هي إِرادة إِنما تقع من هذه الجهة ، فهو يأمر السالك أن لا تكون له إِرادة من جهته هو أصلاً ؛ بل يريد ما يريد الربُّ عز وجل ؛ إِما إِرادة شرعية إِن تبين له ذلك ، وإِلا جرى مع الإِرادة القدرية ، فهو إِما مع أمر الرب وإِما مع خلقه . وهو سبحانه له الخلق والأمر . وهذه طريقة شرعية صحيحة) [2].

وقال أيضًا : (فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشائخ السلف مثل الفضيل بن عياض ، وإِبراهيم بن أدهم ، وأبي سليمان الداراني ، ومعروف

---

(١) التصوف الإِسلامي والإِمام الشعراني : طه عبد الباقي سرور صـ٧٠
(٢) مجموع فتاوى أحمد بن تيمية ٤٨٨/١٠ ، ٤٨٩

الكرخي ، والسري السقطي ، والجنيد بن محمد ، وغيرهم من المتقدمين ، ومثل الشيخ عبد القادر [الجيلاني] ، والشيخ حماد ، والشيخ أبي البيان ، وغيرهم من المتأخرين ، فهم لا يسوِّغون للسالك ولو طار في الهواء ، أو مشى على الماء ، أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين ، بل عليه أن يفعل المأمور ، ويدع المحظور إِلى أن يموت . وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإِجماع السلف وهذا كثير في كلامهم)[1].

وهذه نبذة يسيرة من أقوال أئمة السادة الصوفية وتوجيهاتهم تشهد على :

تمسكهم بالكتاب والسنة

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى : (كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة . طِرْ إِلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة ، ادخل عليه ويدك في يد الرسول ﷺ)[2].

وقال منكرًا على من يعتقد أن التكاليف الشرعية تسقط عن السالك في حال من الأحوال : (ترك العبادات المفروضة زندقة . وارتكاب المحظورات معصية ، لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال)[3].

ويقول سهل التستري رحمه الله تعالى : (أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسوله ﷺ ، وأكل الحلال ، وكفّ الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق)[4].

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى يقول : (إِذا عارض كشفُك الصحيح الكتابَ والسنة فاعمل بالكتاب والسنة ودع الكشف ، وقل لنفسك : إِن

---

(١) مجموع فتاوى أحمد بن تيمية» ١٠/٥١٦ ، ٥١٧

(٢،٣) «الفتح الرباني» للشيخ عبد القادري الجيلاني صـ٢٩

(٤) «طبقات الصوفية» للسلمي صـ٢١٠

الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ، ولم يضمنها لي في جانب الكشف والإِلهام) [1].

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى : (كلُّ باطنٍ يخالفه ظاهرٌ فهو باطلٌ) [2].

وقال أبو الحسين الوراق رحمه الله تعالى : (لا يصل العبد إِلى الله إِلا بالله ، وبموافقة حبيبه ﷺ في شرائعه ، ومَنْ جعل الطريق إِلى الوصول في غير الاقتداء يضل من حيث يظن أنه مهتد) [3].

وقال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى : (إِن طريق القوم محررة على الكتاب والسنة كتحرير الذهب والجوهر ، فيحتاج سالكها إِلى ميزان شرعي في كل حركة وسكون) [4].

وقال أيضًا : (إِن حقيقة طريق القوم علم وعمل ، سداها ولحمتها شريعة ، وحقيقة ، لا أحدهما فقط) [5].

وقال الشعراني أيضًا : (فَمَنْ دقَّق النظر عَلِمَ أنه لا يخرج شيء من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة . وكيف يخرج والشريعة صلتهم إِلى الله عز وجل في كل لحظة) [6].

وسئل أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى عن الصوفي فقال : (هو الذي يأخذ كتاب الله بيمينه وسنة رسوله بشماله ، وينظر بإِحدى عينيه إِلى الجنة ،

---

(١) « إِيقاظ الهمم » ٢/٣٠٢ ، ٣٠٣

(٢) « الرسالة القشيرية » صـ٢٧

(٣) « طبقات الصوفية » للسلمي صـ ٣٠٠

(٤) « لطائف المنن والأخلاق » للشعراني ١/٢

(٥) المرجع السابق ١/٢٥

(٦) « التصوف الإِسلامي والإِمام الشعراني » طه عبد الباقي سرور صـ٧١

وبالأخرى إلى النار ، ويأتزر بالدنيا ، ويرتدي بالآخرة ، ويلبي من بينهما للمولى : لبيك اللهم لبيك)[1].

ومن جملة توجيه أبي يزيد رحمه الله تعالى : (عشرة أشياء فريضة على البدن : أداء الفرائض ، واجتناب المحارم ، والتواضع لله ، وكف الأذى عن الإخوان ، والنصيحة للبَرِّ والفاجر ، وطلب مرضاة الله في جميع أموره ، وطلب المغفرة ، وترك الغضب ، والكبرُ والبغيُ والمجادلةُ من ظهور الجفا ، وأن يكون وصي نفسه يتهيأُ للموت)[2].

ومع كل هذا نجد الحاقدين على التصوف إذا سمعوا بشيءٍ من أخلاق القوم قالوا : [هذا منزع صوفي ، لا شرعي] فيتوهم السامع أن التصوف أمر خارج عن أصل الشريعة ، والحال أنه لب الشريعة كما رأيت . وإنَّ مَنْ يطالع كتب القوم السليمة من الدس ؛ مثل : كتاب الحلية لأبي نعيم ، والرسالة القشيرية ، وكتاب التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ، واللمع للطوسي ، والإحياء للغزالي ، وطبقات الصوفية للسلمي ، والرعاية لحقوق الله للمحاسبي ، والوصايا للشيخ محيي الدين بن عربي ، وغير ذلك من كتب الصوفية ، لا يكاد يجد خُلُقًا مما فيها يخالف الشريعة أبدًا ، لكثرة محاسبة الصوفية لأنفسهم وأخذهم بالعزائم ، فإن حقيقة طريق القوم علم وعمل ، سداها ولحمتها شريعة وحقيقة .

التحذير من الفصل بين الحقيقة والشريعة

هناك أُناس ادَّعَوْا التصوف كذبًا ونفاقًا ، انحرفوا عن الإسلام ، وقالوا : إن المقصود من الدين هو الحقيقة فقط ، وعطلوا أحكام الشريعة ، فأسقطوا عن أنفسهم التكاليف ، وأباحوا المخالفات ، وقالوا : إن المُعَوَّل عليه صلاح القلب ، ويقولون : [نحن أهل الباطن ، وهم أهل الظاهر] . فهؤلاء ضالون منحرفون

---

(١) « شطحات الصوفية » لعبد الرحمن البدوي صـ٩٦

(٢) المرجع السابق صـ١٠٣

زنادقة ، لا يجوز أن نأخذ أعمالهم وأحوالهم حجة على السادة الصوفية الصادقين المخلصين .

وإِن السادة أئمة الصوفية قد نبهوا إِلى خطرهم ، وحذروا من صحبتهم ومجالستهم ، وتبرؤوا من سيرهم وانحرافهم . قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى لبعض أصحابه : (قم بنا حتى ننظر إِلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية ، وكان رجلاً مقصودًا مشهورًا بالزهد ، فمضينا إِليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلّم عليه ، وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأمونًا على ما يدعيه)(١) . وقال أيضًا : (لو نظرتم إِلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة) (٢) .

وقال الشيخ أحمد زروق رحمه الله تعالى في قواعده : (وكل شيخ لم يظهر بالسنة فلا يصح اتباعه لعدم تحقق حاله ، وإِن صح في نفسه وظهر عليه ألف ألف كرامة من أمره) (٣) .

وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله تعالى : (احذر صحبة ثلاث من أصناف الناس : الجبابرة الغافلين ، والقُرَّاء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين)(٤) .

وقال السيد أحمد الرفاعي رحمه الله تعالى : (لا تقولوا كما يقول بعض المتصوفة : [نحن أهل الباطن ، وهم أهل الظاهر] . هذا الدين الجامع باطنه لب ظاهره ، وظاهره ظرف باطنه ، لولا الظاهر لما بطن ، لولا الظاهر لما كان الباطن ولما صح . القلب لا يقوم بلا جسد ، بل لولا الجسد لفسد ، والقلب

(١،٢) «الرسالة القشيرية» صـ١٦

(٣) «قواعد التصوف» للشيخ أحمد زروق صـ٧٦

(٤) «شرح الحكم» لابن عجيبة ٧٦/١

نور الجسد . هذا العلم الذي سماه بعضهم بعلم الباطن ، هو إِصلاح القلب ، فالأول عمل بالأركان وتصديق بالجَنان . إِذا انفرد قلبك بحسن نيته وطهارة طويته ، وقتلْتَ وسرقْتَ وزنيتَ ، وأكلتَ الربا ، وشربتَ الخمر ، وكذبت وتكبرت وأغلظت القول ، فما الفائدة من نيتك وطهارة قلبك؟ وإِذا عبدت الله وتعففت ، وصمت وتصدقت وتواضعت ، وأبطن قلبُكَ الرياء والفساد ، فما الفائدة من عملك؟) [1].

وينكر الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى على من يعتقد أن التكاليف الشرعية تسقط عن السالك في حال من الأحوال ، كما مَرَّ بك قوله : (ترك العبادات المفروضة زندقة ، وارتكاب المحظورات معصية . لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال) [2]. وقال شيخ الصوفية الإِمام الجنيد رحمه الله تعالى : (مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة) [3].

وقال أيضًا : (الطرق كلها مسدودة على الخلق إِلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام ، واتبع سنته ولزم طريقته ، فإِنَّ طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه) [4]. وذكر رجل عنده المعرفة فقال : أهل المعرفة بالله يصلون إِلى ترك الحركات [الأعمال] من باب البر والتقرب إِلى الله عز وجل . فقال الجنيد رحمه الله تعالى : (إِن هذا قول قوم تكلموا بإِسقاط الأعمال [الصالحة التكليفية] وهو عندي عظيمة ، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا ، فإِن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى ، وإِليه رجعوا فيها ، ولو بقيتُ ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إِلا أن يحال بي

---

(١) «البرهان المؤيد» للسيد أحمد الرفاعي رحمه الله تعالى . توفي سنة ٥٧٨ هـ بأم عبيدة بالعراق صـ ٦٨

(٢) «الفتح الرباني» للشيخ عبد القادر الجيلاني صـ٢٩

(٣،٤) «طبقات الصوفية» للسلمي صـ١٥٩

دونها)[1]. وقال أيضًا : (ما أخذنا التصوف عن القيل والقال لكن عن الجوع [الصوم] وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات)[2].

وقال إبراهيم بن محمد النصر أباذي رحمه الله تعالى : (أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع ، وتعظيم حرمات المشايخ ، ورؤية أعذار الخلق ، وحسن صحبة الرفقاء ، والقيام بخدمتهم ، واستعمال الأخلاق الجميلة ، والمداومة على الأوراد وترك ارتكاب الرخص والتأويلات ، وما ضل أحد في هذا الطريق إلا بفساد الابتداء ، فإن فساد الابتداء يؤثر في الانتهاء)[3].

الفقهاء الصوفية

لقد كان علماء الشريعة الإسلامية من الفقهاء والمحدِّثين ، يسيرون على أثر الرسول الأعظم ﷺ ، فيجمعون بين الشريعة والطريقة والحقيقة ، ويؤدون العبادات العملية متحققين بسر الإخلاص فيها ، متذوقين حلاوتها ، مدركين أسرارها ، وقد كانت لهم مجاهدات لتهذيب نفوسهم وإصلاح قلوبهم . ولِمَا تحلَّوْا به من صلاح وتقوى ومعرفة نالوا هذه المراتب العلمية ، ومنحهم الله تعالى هذا الفهم لكتابه والتعمق في شرعه ، ونفع الله الأمة بعلومهم على مرِّ السنين والأيام ، فكأنهم أحياء بآثارهم الخالدة وجهودهم العلمية المباركة . نقل الفقيه الحنفي الحصكفي صاحب الدر : أن أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى قال : (أنا أخذتُ هذه الطريقة من أبي القاسم النصر أباذي ، وقال أبو القاسم : أنا أخذتها من الشبلي ، وهو من السري السقطي ، وهو من معروف الكرخي ، وهو من داود الطائي ، وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة رضي الله عنه ، وكلٌّ منهم أثنى عليه وأقرّ بفضله ..) ثم قال صاحب الدر معلقًا : (فيا عجبًا

(١،٢) «الرسالة القشيرية» صـ ٢٢

(٣) طبقات الصوفية للسلمي صـ٤٨٨

لك يا أخي ! ألم يكن لك أسوة حسنة في هؤلاء السادات الكبار ؟ أكانوا مُتَّهمين في هذا الإِقرار والافتخار ، وهم أئمة هذه الطريقة وأرباب الشريعة والحقيقة ؟ ومَن بعدهم في هذا الأمر فلهم تبع ، وكل ما خالف ما اعتمدوه مردود مبتدع)[1] .

ولعلك تستغرب عندما تسمع أن الإِمام الكبير ، أبا حنيفة النعمان رحمه الله تعالى ، يعطي الطريقة لأمثال هؤلاء الأكابر من الأولياء والصالحين من الصوفية! . فهلاَّ تأسى الفقهاء بهذا الإِمام ، فساروا على نهجه ، وجمعوا بين الشريعة والحقيقة ، لينفع الله بعلمهم ، كما نفع بإِمامهم الأعظم ، الإِمام الكبير ، معدن التقوى والورع أبي حنيفة رحمه الله تعالى !

يقول ابن عابدين رحمه الله تعالى في حاشيته متحدثًا عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى ، تعليقًا على كلام صاحب الدر الآنف الذكر : (هو فارس هذا الميدان ، فإِن مبنى علم الحقيقة على العلم والعمل وتصفية النفس ، وقد وصفه بذلك عامة السلف ، فقال أحمد بن حنبل [رحمه الله تعالى] في حقه : إِنه كان من العلم والورع والزهد وإِيثار الآخرة بمحل لا يدركه أحد ، ولقد ضُرِب بالسياط لِيَلِيَ القضاء ، فلم يفعل . وقال عبد الله بن المبارك [رحمه الله تعالى] : ليس أحد أحق من أن يُقْتَدى به من أبي حنيفة ، لأنه كان إِمامًا تقيًّا نقيًّا ورعًا عالمًا فقيهًا ، كشف العلم كشفًا لم يكشفه أحد ببصر وفهم وفطنة وتقى . وقال الثوري لمن قال له : جئتُ من عند أبي حنيفة : لقد جئتَ من عند أعبد أهل

---

(١) الدر المختار ٤٣/١ . وعليه حاشية ابن عابدين وهو محمد أمين بن عمر ابن عبد العزيز عابدين الدمشقي فقيه الديار الشامية وإِمام الحنفية في عصره ، له من التآليف [رد المحتار على الدر المختار] في خمسة مجلدات يعرف بحاشية ابن عابدين، وله رفع الأنظار عما أورده الحلبي على الدر المختار ، والعقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية جزءان ، ونسمات الأسحار شرح المنار ، ومجموعة الرسائل . . مولده ووفاته في دمشق سنة ١١٩٨-١٢٥٢هـ

الأرض)[1]. ومن هذا نعلم أن الأئمة المجتهدين والعلماء العاملين، هم الصوفية حقيقة.

فإن قال قائل: لو أن طريق التصوف أمر مشروع، لوضع فيه الأئمة المجتهدون كتبًا، ولا نرى لهم قط كتابًا في ذلك؟ يجيب الشعراني رحمه الله تعالى على هذا فيقول: (إنما لم يضع المجتهدون في ذلك كتابًا لقلة الأمراض في أهل عصرهم، وكثرة سلامتهم من الرياء والنفاق. ثم بتقدير عدم سلامة أهل عصرهم من ذلك، فكان ذلك في بعض أناس قليلين، لا يكاد يظهر لهم عيب. وكان معظم همة المجتهدين إذ ذاك إنما هو في جمع الأدلة المنتشرة في المدائن والثغور مع أئمة التابعين وتابعيهم، التي هي مادة كل علم، وبها يُعرف موازين جميع الأحكام، فكان ذلك أهم من الاشتغال بمناقشة بعض أناس في أعمالهم القلبية التي لا يظهر بها شعار الدين، وقد لا يقعون بها في حكم الأصل. ولا يقول عاقل قط: إن مثل الإمام أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد رضي الله عنهم، يعلم أحدهم من نفسه رياءً أو عُجبًا أو كبرًا أو حسدًا أو نفاقًا ثم لا يجاهد نفسه ولا يناقشها أبدًا. ولولا أنهم يعلمون سلامتهم من تلك الآفات والأمراض لقدموا الاشتغال بعلاجها على كل علم)[2].

الدس على العلوم الإسلامية: التفسير ـ الحديث ـ التاريخ ـ التصوف

لقد تعرض الإسلام منذ انبثاق فجره إلى خصوم أشداء، وأعداء ألِدَّاء حاولوا تقويض بنيانه، وتحطيم أركانه، عن طريق تشويه معالمه، ودس الأباطيل والخرافات في علومه، كما نرى ذلك في التفسير والحديث وفي التاريخ والتصوف.. وغيرها.

أما التفسير: فكثيراً ما نقرأ في كتبه بعض الإسرائيليات التي ليست إلا

---

(١) «حاشية ابن عابدين» ١/٤٣

(٢) «لطائف المنن والأخلاق» للشعراني ١/٢٥، ٢٦

أساطير كاذبة ، وعقائد غير إسلامية ، نقلها إلى الدين الإسلامي اليهود الذين اعتنقوا الإسلام غير مخلصين ، أو مخلصين ولكن علقت بأذهانهم هذه الأساطير حين كانوا على دين اليهودية ، فنقلوها عن كتب أنبيائهم التي دخلها التحريف والتغيير ، وتقبَّلها بعض المسلمين على أنها صحيحة .

وقد وفق الله تعالى علماء المسلمين إلى تمحيص هذه الإسرائيليات وتنبيه المسلمين إلى ضررها ، وخصوصًا منها ما يضر بالعقيدة ، كالإخبار بأن أيوب عليه السلام مرض حتى ظهر الدود على جسده ، وكنسبة المعاصي إلى بعض الأنبياء ، فقد زعموا أن داود عليه السلام عشق امرأة بعض جنوده ، ثم أَرسلَ زوجَها لبعض المواقع الحربية لقتله ، فقُتل وتزوجها . كما زعموا أن يوسف عليه السلام همَّ بامرأة العزيز هَمَّ فُحْشٍ وسوء ، ولفَّقوا في ذلك قصصًا وحكايات لا تليق بمقام الرسل الكرام ، الذين عصمهم الله من كل سوء وفاحشة .

فالواجب على كل مسلم نبذُ هذه الإسرائيليات ، والاعتماد على المصادر الإسلامية الصحيحة الشهيرة .

وأما الحديث : فلقد حاول الدسَّاسون المغرضون تشويه معالم الإسلام عن طريق وضع أحاديث مكذوبة مفتراة على لسان الرسول ﷺ ؛ يقصدون بذلك تحطيم العقيدة ، ودس الأفكار الهدَّامة ؛ كالتجسيم والتشبيه والفوقية والجهة ، وغير ذلك من العقائد الفاسدة .

كما وضعوا أحاديث في الترغيب والترهيب ما أنزل الله بها من سلطان . وإذا قيل لهم : لِمَ تكذبون على رسول الله ﷺ ، وهو يقول : « مَنْ كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأْ مقعده من النار »؟[1] قالوا : نحن نكذب له لا عليه . كما كان بعضهم يضع الحديث تقربًا إلى الحكام ، وتزلفًا إلى الملوك ، رغبة في مطمع دنيوي ومكسب مادي .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب العلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم في كتاب الإيمان ، والترمذي في كتاب العلم ، وابن ماجه في أبواب السنة

ولكن الله تعالى قيَّض لسنة رسوله ﷺ علماء مخلصين غيورين ، محَّصوا تلك الأحاديث ، وبينوا الصحيحة من الضعيفة ، والموضوعة من الحسنة ، والمشهورة من الغريبة ، كالمُزّي والزين العراقي والذهبي وابن حجر وغيرهم [وقد جمع بعض العلماء الغيورين على الأحاديث النبوية كتبًا بيَّنوا فيها الأحاديث الموضوعة منها : اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي ، وكشف الخفاء للعجلوني ، وأسنى المطالب للحوت البيروتي] .

وأما التاريخ : فقد كان ميدانًا خصبًا للدس والافتراءِ ؛ حيث ألصق المضللون في تاريخ الإِسلام قصصًا وحوادث من نسيج خيالهم . حاولوا بذلك تشويه سيرة الخلفاء وملوك الإِسلام ، كما نسبوا إِلى هارون الرشيد أُمورًا غريبة منكرة ، نجدها في أكاذيب ألف ليلة وليلة .

ولا يخفى ما أحدثه المضللون الصليبيون والمستشرقون ومَنْ لفَّ لَفَّهم في تاريخ الإِسلام من افتراءات وتُرَّهَاتٍ وأضاليل واضحة البطلان لم يقصدوا بها إِلا التهديم والتشكيك .

ولكن المؤرخين المسلمين المحققين كالذهبي ، والطبري ، وابن كثير ، وابن الأثير ، وابن هشام وغيرهم ، قد دوَّنوا التاريخ الإِسلامي ، وهذبوه ونفوا عنه الدخائل ، وأخرجوه نقيًّا سليمًا . فعلى طالب الحقيقة أن يعود إِلى هذه المراجع الصحيحة ، كي يميز الخبيث من الطيب ، والغث من السمين .

وأما التصوف : فكغيره من العلوم الدينية ، لم يَسْلم من الدس والتحريف من هؤلاء الدخلاء والمفترين .

فمنهم من أدخل في كتب الصوفية أفكارًا منحرفة ، وعبارات سيئة ما أنزل الله بها من سلطان ، كقولهم :

وما الكلبُ والخنزيرُ إِلا إِلهنا وما الربُّ إِلا راهبٌ في كنيسة .

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (الكهف:٥).

ومنهم من أراد أن يفسد دين المسلمين بأشياء أُخر تمس عقائدهم ؛ فنسب إلى بعض رجال الصوفية أقوالاً تخالف عقيدة أهل السنة ؛ كالقول بالحلول والاتحاد ، وبأن الخالق عين المخلوق ، والكون عين المكوِّن .

ومنهم من حاول تشويه تاريخ رجال الصوفية ، ونزع ثقة الناس بهم ، فدَسَّ في كتبهم حوادث وقصصًا من نسج خياله ، فيها ارتكاب للمنكرات واقتراف للآثام والكبائر ، كما نجد ذلك كثيراً في الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رحمه الله تعالى ، وهو منها بريء كما سيأتي .

ومنهم المبشِّرون والمستشرقون ، وأبواق الاستعمار الذين درسوا كتب السادة الصوفية ، وكتبوا عنهم المؤلفات لأجل التحريف والتزوير والدس ، يقصدون بذلك أن يطعنوا الإسلام في صميمه ، وأن يسلخوا روح الدين عن جسده ، ولقد خُدع بهم أقوام أرادوا أن يفهموا التصوف من كتب هؤلاء المستشرقين ، كأمثال [نكلسون الإنكليزي ، وجولد زيهر اليهودي ، وماسينيون الفرنسي وغيرهم] ، فوقعوا في أحابيلهم ، وتسمَّمُوا من أفكارهم ، وانجرفوا في تيار محاربة الصوفية . ولا أدري كيف يثق مسلم صادق بأقوال عدوه المخادع الماكر؟

ومنهم السُّذَّجُ الذين يصدقون هؤلاء وهؤلاء ، فيعتقدون بهذه الأمور المدسوسة ويثبتونها في كتبهم . وكل هذا بعيد عن الصوفية والتصوف .

فإن قال قائل : إنَّ ما نسب إلى الصوفية من أقوال مخالفة هي حقًّا من كلامهم بدليل وجودها في كتبهم المطبوعة المنشورة .

نقول : ليس كل ما في كتب الصوفية لهم ؛ لأنها لم تسْلم من حملات الدس والتحريف . وما أحوجنا إلى تضافر جهود المؤمنين المخلصين لتنقية هذا التراث الإسلامي الثمين ممَّا لحق به من دس وتحريف .

ولو ثبت بطريق صحيح عن بعض الصوفية كلام مخالف لحدود الشريعة فنقول : ليست كلمة فرد واحد حجة على جماعة ، شعارها ومذهبها التمسك

بالكتاب والسنة . حتى إِنهم ليقولـون : إِن أول شـرط الصـوفي أن يكـون واقفًـا عند حدود الشريعة ، وألا ينحرف عنها قيد شعرة ، فإِذا هو تخطى هذا الشرط ، ووصف نفسه بأنه صوفي ، فقد اختلق لنفسه صفة ليست فيه وزعم ما ليس له .

وإِن من إِضاعة الوقت الثمين الانشغالَ بمثل هذه التُّرَّهَات والأباطيل المفتراة على هؤلاء القوم في هذه الأوقات التي يوجد مـا هـو أهـم مـن المجادلـة بهـا ، فهي معروفة لدى الصوفية المحققين والعلماء المـدققين . وعلينـا أن نعـرف أن التصوف ليس علمًا نتلقـاه بقـراءة الكتـب ومطالعـة الكـراريس ، ولكنـه أخـلاق وإِيمان ، وأذواق ومعارف ، لا ينال إِلا بصـحبة الرجـال ، الـذين اهتـدوا بهـدي الرسول ﷺ ، وورثوا عنه العلم والعمل والأخلاق والمعارف . وهو علـم ينتقـل من الصدر إِلى الصدر ، ويفرغه القلب في القلب .

وهناك أقوام مغرضون ، درسوا كتب السادة الصوفية وتتبعوا ما فيها مـن دس وتشويه وتحريف واعتبروها حقائق ثابتة ، وارتكزوا عليها في حملاتهم العنيفـة وتهجماتهم الشديدة على السادة الصوفية الأبرار . ولو أنهم قرأوا ما يعلنه رجال التصوف في جميع كتبهم من استمساكهم بالشريعة واعتصامهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتقيدهم بالمذاهب الإِسلامية المعتبرة ، وتَبَنِّـيهِمْ عقيـدة أهـل السـنة والجماعة ، كما بينـاه آنفًا في بحث بين الحقيقة والشريعة ، لأدركـوا تمامًـا أن ما ورد في كتبهم مما يناقض هـذا المبـدأ الواضـح والمـنهج السـوي ، إِنمـا هـو مؤول أو مدسوس .

وإِليك بعض أمثلة الدس المفتراة على الصوفية والعلماء في كتبهم :

يقول ابن الفراء في طبقاته نقلاً عن أبي بكر المروزي ومسـدد وحـرب إِنهـم قد رووا الكثير مـن المسـائل ، ونسـبوها للإِمـام أحمـد بـن حنبـل . . وبعـد أن يفيض في ذكر هذه المسائل يقول :

(رجلان صالحان بُليا بأصحاب سوء : جعفر الصادق ، وأحمـد بـن حنبـل ، أما جعفر الصادق فقد نسبت إِليه أقوال كثيرة ، دونـت في فقـه الشـيعة الإِماميـة

على أنها له ، وهو بريء منها . وأما الإِمام أحمد ، فقد نسب إِليه بعض الحنابلة آراء في العقائد لم يقل بها) [1].

وسئل الإِمام الفقيه ابن حجر الهيثمي رحمه الله تعالى ونفعنا به : في عقائد الحنابلة ما لا يخفى على شريف علمكم ، فهل عقيدة الإِمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه كعقائدهم؟

فأجاب بقوله : (عقيدة إِمام السنة أحمد بن حنبل رضي الله عنه وأرضاه وجعل جنان المعارف متقلبه ومأواه ، وأفاض علينا وعليه من سوابغ امتنانه ، وبوأه الفردوس الأعلى من جنانه ، موافقةٌ لعقيدة أهل السنة والجماعة من المبالغة التامة في تنزيه الله تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا ؛ من الجهة والجسمية وغيرها من سائر سمات النقص ، بل وعن كل وصف ليس فيه كمال مطلق ، وما اشتهر بين جهلة المنسوبين إِلى هذا الإِمام الأعظم المجتهد من أنه قائل بشيء من الجهة أو نحوها فكذب وبهتان وافتراء عليه . فلُعن من نسب إِليه ، أو رماه بشيء من هذه المثالب التي برأه الله منها ، وقد بين الحافظ الحجة القدوة الإِمام أبو الفرج بن الجوزي من أئمة مذهبه المبرئين من هذه الوصمة القبيحة الشنيعة أن كل ما نسب إِليه من ذلك كذب عليه وافتراء وبهتان ، وأن نصوصه صريحة في بطلان ذلك وتنزيه الله تعالى عنه ، فاعلم ذلك ، فإِنه مهم) [2].

وأما الإِمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد دُسَّ عليه كتاب نهج البلاغة أو أكثره ، فقد ذكر الذهبي رحمه الله تعالى في ترجمة علي بن الحسين الشريف المرتضى أنه : (هو المتهم بوضع كتاب نهج البلاغة ، ومَنْ طالعه جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، ففيه السب الصراح والحط على السيدين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وفيه من التناقض والأشياء

---

(١) التصوف الإِسلامي والإِمام الشعراني طه عبد الباقي سرور صـ٨٢
(٢) الفتاوى الحديثية لابن حجر المكي صـ١٤٨

الركيكة والعبارات التي من له معرفة بنَفَس القرشيين الصحابة ، وبنَفَس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين جزم بأن الكتاب أكثره باطل) [(١)].

وممن دُسَّ عليهم الإمام الشعراني رحمه الله تعالى ، وأكثر ما دُسَّ عليه في الطبقات الكبرى ، ولقد أوضح ذلك في كتابه لطائف المنن والأخلاق فقال : (ومما مَنَّ الله تبارك وتعالى به عليَّ ، صبري على الحسدة والأعداء ، لما دسوا في كتبي كلامًا يخالف ظاهر الشريعة ، وصاروا يستفتون عليَّ زورًا وبهتانًا ، ومكاتبتهم فيَّ لِبابِ السلطان ، ونحو ذلك . اعلم يا أخي أن أول ابتلاء وقع لي في مصر من نحو هذا النوع ، أنني لما حججْتُ سنة سبع وأربعين وتسعمائة ، زَوَّر عليَّ جماعة مسألة فيها خرق لإجماع الأئمة الأربعة ، وهو أنني أفتيتُ بعض الناس بتقديم الصلاة عن وقتها إذا كان وراء العبد حاجة ، قالوا : وشاع ذلك في الحج ، وأرسل بعض الأعداء مكاتبات بذلك إلى مصر من الجبل ، فلما وصلتُ إلى مصر ، حصل في مِصْرَ رَجٌّ عظيم ، حتى وصل ذلك إلى إقليم الغربية والشرقية والصعيد وأكابر الدولة بمصر ، فحصل لأصحابي غاية الضرر ، فما رجعتُ إلى مصر إلا وأجد غالب الناس ينظر إليَّ شذرًا ، فقلت : ما بال الناس ؟ فأخبروني بالمكاتبات التي جاءتهم من مكة ، فلا يعلم عدد من اغتابني ، ولاث بعرضي إلا الله عز وجل .

ثم إني لما صنفت كتاب البحر المورود في المواثيق والعهود ، وكتب عليه علماء المذاهب الأربعة بمصر ، وتسارع الناس لكتابته ، فكتبوا منه نحو أربعين نسخة ، غار من ذلك الحسدةُ ، فاحتالوا على بعض المغفلين من أصحابي ، واستعاروا منه نسخته ، وكتبوا لهم منها بعض كراريس ، ودسوا فيها عقائد زائغة ومسائل خارقة لإجماع المسلمين ، وحكايات وسخريات عن جحا ، وابن الراوندي ، وسبكوا ذلك في غضون الكتاب في مواضع كثيرة ، حتى كأنهم المؤلف ، ثم أخذوا تلك الكراريس ، وأرسلوها إلى سوق الكتبِيِّين في يوم

---

(١) ميزان الاعتدال للذهبي ٣/١٢٤

السوق ، وهو مجمع طلبة العلم ، فنظروا في تلك الكراريس ، ورأوا اسمي عليها ، فاشتراها من لا يخشى الله تعالى ، ثم دار بها على علماء جامع الأزهر ، ممن كان كتب على الكتاب ومن لم يكتب ، فأوقع ذلك فتنة كبيرة ، ومكث الناس يلوثون بي في المساجد والأسواق وبيوت الأمراء نحو سنة ، وأنا لا أشعر . وانتصر لي الشيخ ناصر الدين اللقاني ، وشيخ الإِسلام الحنبلي ، والشيخ شهاب الدين بن الجلبي ، كل ذلك وأنا لا أشعر ، فأرسل لي شخص من المحبين بالجامع الأزهر ، وأخبرَني الخبرَ فأرسلت نسختي التي عليها خطوط العلماء ، فنظروا فيها ، فلم يجدوا فيها شيئًا مما دسه هؤلاء الحسدة ، فسبُّوا من فعل ذلك ، وهو معروف .

وأعرفُ بعض جماعة من المتهوِّرين ، يعتقدون فيَّ السوء إِلى وقتي هذا ، وهذا بناء على ما سمعوه أولاً من أُولئك الحسدة ، ثم إِن بعض الحسدة ، جمع تلك المسائل التي دُسَّت في تلك الكراريس وجعلها عنده ، وصار كلما سمع أحدًا يكرهني ، يقول له : إِن عندي بعض مسائل تتعلق بفلان ، فإِن احتجت إِلى شيء منها أطلعتك عليه ، ثم صار يعطي بعض المسائل لحاسد بعد حاسد إِلى وقتي هذا ، ويستفتون عليَّ وأنا لا أشعر ، فلما شعرتُ ، أرسلت لجميع علماء الأزهر أنني أنا المقصود بهذه الأسئلة ، وهي مفتراة عليَّ ، فامتنع العلماء من الكتابة عليها) [1].

وقد ذكر المؤرخ الكبير عبد الحي بن العماد الحنبلي رحمه الله تعالى في كتابه شذرات الذهب في أخبار من ذهب ترجمة الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى وبعد أن أثنى عليه ، وذكر مؤلفاته الكثيرة ، وأثنى عليها أيضًا قال فيه : (وحسده طوائف فدسوا عليه كلمات يخالف ظاهرها الشرع ، وعقائد زائغة ، ومسائل تخالف الإِجماع ، وأقاموا عليه القيامة ، وشنَّعوا وسبُّوا ، ورموه بكل عظيمة ، فخذلهم الله ، وأظهره الله عليهم وكان مواظبًا على السنة ، ومبالغًا

---

(١) «لطائف المنن والأخلاق» للشعراني ٢/١٩٠ ، ١٩١

في الورع ، مُؤثِراً ذوي الفاقة على نفسه حتى بملبوسه ، متحملاً للأذى ، موزعًا أوقاته على العبادة ؛ ما بين تصنيفٍ وتسليكٍ وإِفادة . . وكان يُسمَعُ لزاويته دوي كدوي النحل ليلاً ونهارًا ، وكان يحيي ليلة الجمعة بالصلاة على المصطفى ﷺ ، ولم يزل مقيمًا على ذلك ، معظَّمًا في صدور الصدور ، إِلى أن نقله الله تعالى إِلى دار كرامته)[1].

وقال الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه اليواقيت والجواهر : (وقد دسَّ الزنادقة تحت وسادة الإِمام أحمد بن حنبل في مرض موته ، عقائد زائغة ، ولولا أن أصحابه يعلمون منه صحة الاعتقاد ، لافتتنوا بما وجوده تحت وسادته)[2].

وكذلك ذكر الشيخ مجد الدين الفيروز أبادي صاحب القاموس في اللغة : أن بعض الملاحدة صنف كتابًا في تنقيص الإِمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه وأضافه إِليه ، ثم أوصله إِلى الشيخ جمال الدين بن الخياط اليمني ، فشنَّع على الشيخ أشد التشنيع ، فأرسل إِليه الشيخ مجد الدين يقول له : (إِني معتقد في الإِمام أبي حنيفة غاية الاعتقاد ، وصنفت في مناقبه كتابًا حافلاً وبالغتُ في تعظيمه إِلى الغاية ، فأحرِقْ هذا الكتاب الذي عندك ، أو اغسله ، فإِنه كذب وافتراء عليَّ)[3].

وقال الفقيه الكبير أحمد بن حجر الهيثمي المكي رحمه الله تعالى : (وإِياك أن تغترَّ بما وقع في كتاب الغنية لإِمام العارفين ، وقطب الإِسلام والمسلمين ، الشيخ عبد القادر الجيلاني . فإِنه دسه عليه فيها مَنْ سينتقم الله منه ، وإِلا فهو بريء من ذلك . وكيف تروج عليه هذه المسألة الواهية مع تضلعه من الكتابِ

---

(١) «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» للمؤرخ الفقيه الأديب عبد الحي الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩هـ . ٣٧٤/٨
(٢) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر للشيخ عبد الوهاب الشعراني ٨/١
(٣) لطائف المنن والأخلاق للشعراني ١٢٧/١

والسنةِ وفقهِ الشافعيةِ والحنابلةِ ، حتى كان يفتي على المذهبين . هذا مع ما انضم لذلك من أن الله مَنَّ عليه من المعارف والخوارق الظاهرة والباطنة . وما أنبأ عنه ما ظهر عليه وتواتر من أحواله . . إلى أن قال : فكيف يُتصور أو يُتوهم أنه قائل بتلك القبائح التي لا يصدر مثلها إلا عن اليهود وأمثالهم ممن استحكم فيهم الجهل بالله وصفاته وما يجب له وما يجوز وما يستحيل . سبحانك هذا بهتان عظيم) [1].

وكذلك دسوا على الإمام الغزالي عدة مسائل في كتاب الإحياء ، وظفر القاضي عياض بنسخة من تلك النسخ فأمر بإحراقها[2].

قال الشعراني رحمه الله تعالى : (وممَّا دسُّوا على الغزالي ، وأشاعه بعضهم عنه ، قولهم عنه إنه قال : [إن لله عبادًا لو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها ، وإن لله عبادًا لو سألوه أن يقيم الساعة الآن لأقامها] . فإن مثل ذلك كذب وزور على الإمام حجة الإسلام رضي الله تعالى عنه وأرضاه ، يجب على كل عاقل تنزيه الإمام عنه ، لأنه يردُّ النصوص القاطعة الواردة في مقدمات الساعة ، فيؤدي ذلك إلى تكذيب الشارع ﷺ فيما أخبر ، وإنْ وُجد ذلك في بعض مؤلفات الإمام فذلك مدسوس عليه من بعض الملاحدة ، وقد رأيت كتابًا كاملاً مشحونًا بالعقائد المخالفة لأهل السنة والجماعة ، صنَّفه بعض الملحدين ونسبه إلى الإمام الغزالي ، فاطلع عليه الشيخ بدر الدين بن جماعة ، فكتب عليه : كذبَ والله وافترى مَنْ أضافَ هذا الكتاب إلى حجة الإسلام) [3].

وقال أيضًا : (وكذلك دسوا عليَّ أنا في كتابي المسمى بالبحر المورود جملةً من العقائد الزائغة ، وأشاعوا تلك العقائد في مصر ومكة نحو ثلاث سنين ، وأنا بريء منها كما بَيَّنْتُ في خطبة الكتاب لمَّا غيرتها ، وكان العلماء

---

(١) « الفتاوى الحديثية » لابن حجر صـ١٤٩

(٢) « اليواقيت والجواهر » ١/٨

(٣) « لطائف المنن والأخلاق » للشعراني ١/١٢٧

كتبوا عليه وأجازوه ، فما سكنت الفتنة حتى أرسلت إِليهم النسخة التي عليها خطوطهم) [1].

هذا وقد ملأ خصومُه الدنيا حوله حقدًا وحسدًا ، وافتراء وكذبًا وتضليلاً ، لاسيما في كتبه المعروفة ، وأشهرها الطبقات الكبرى .

فلو قارن المُنْصِفُ بين كلام الشعراني رحمه الله تعالى الذي يعلن فيه تمسك الصوفية بالشريعة ، وقد مر بك في بحث بين الحقيقة والشريعة . . وبين كلامه في الطبقات الكبرى لرأى تباينًا ظاهرًا ، ولظهر له كذب ما في الطبقات .

وكذلك دسوا على الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى ، قال الشعراني : (كان رضي الله عنه متقيدًا بالكتاب والسنة ، ويقول : كل مَنْ رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك . . إِلى أن قال : وهذا اعتقاد الجماعة إِلى قيام الساعة ، وجميع ما لم يفهمه الناس من كلامه إِنما هو لِعُلوِّ مراقيه ، وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه ، كما أخبرني بذلك سيدي أبو طاهر المغربي نزيل مكة المشرفة ، ثم أخرج لي نسخة الفتوحات التي قابلها على نسخة الشيخ التي بخطه في مدينة قونيه ، فلم أر فيها شيئًا مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات . . ثم قال الشعراني رحمه الله تعالى : إِذا علمت ذلك ، فيحتمل أن الحسدة دسوا على الشيخ في كتبه ، كما دسوا في كتبي أنا ، فإِنه أمر قد شاهدته عن أهل عصري في حقي ، فالله يغفر لنا ولهم آمين) [2].

ذكر الفقيه الحنفي صاحب الدر المختار أن : (من قال عن فصوص الحكم للشيخ محيي الدين بن عربي ، إِنه خارج عن الشريعة ، وقد صنفه للإِضلال ، ومَنْ طالعه ملحد ، ماذا يلزمه؟ أجاب : نعم ، فيه كلمات تباين الشريعة ، وتكلف بعض المتصلِّفين لإِرجاعها إِلى الشرع ، لكن الذي تيقنْتُه أن بعض

---

(١) «اليواقيت والجواهر» ١/٨

(٢) «اليواقيت والجواهر» للشعراني ١/٩

اليهود افتراها على الشيخ قدس الله سره ، فيجب الاحتياط بترك مطالعة تلك الكلمات . قال العلامة ابن عابدين رحمه الله تعالى في حاشيته على الدر المختار عندقوله : [لكن الذي تيقنْتُه] : وذلك بدليلٍ ثبت عنده ، أو لسببِ عدمِ اطلاعه على مراد الشيخ فيها ، وأنه لا يمكن تأويلها ، فتعيَّن عنده أنها مفتراة عليه ، كما وقع للشيخ الشعراني أنه افترى عليه بعض الحساد في بعض كتبه أشياء مكفرة ، وأشاعها عنه ، حتى اجتمع بعلماء عصره ، فأخرج لهم مسودة كتابه التي عليها خطوط العلماء فإِذا هي خالية عما افْتُرِيَ عليه . وقال ابن عابدين أيضًا عند قوله : [فيجب الاحتياط] : لأنه إِن ثبت افتراؤها فالأمر ظاهر ، وإِلا فلا يفهم كلُّ أحد مرادَه فيها ، فيُخشى على الناظر فيها من الإِنكار عليه ، أو فهم خلاف المراد) [1].

ومن المدسوس على الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى أيضًا : القول بأن أهل النار يتلذذون بدخولهم النار ، وأنهم لو أخرجوا منها ، تعذبوا بذلك الخروج .

قال الشعراني رحمه الله تعالى : (وإِن وُجد نحو ذلك في شيء من كتبه فهو مدسوس عليه ، فإِني مررت على كتاب الفتوحات المكية جميعه فرأيته مشحونًا بالكلام على عذاب أهل النار) [2].

وقال أيضًا : (كذب مَنْ دسَّ في كتاب الفصوص والفتوحات ، أن الشيخ محيي الدين بن عربي قال بأن أهل النار يتلذذون بالنار ، وأنهم لو أُخرجوا منها لاستغاثوا ، وطلبوا الرجوع إِليها ، كما رأيت ذلك في هذين الكتابين . وقد حذفت ذلك من الفتوحات حال اختصاري لها . حتى ورد عن الشيخ

---

(١) حاشية ابن عابدين ٣/٣٠٣ ، وصاحب الدر المختار الشيخ محمد علاء الدين الحصكفي المتوفى سنة ١٠٨٨هـ

(٢) «الكبريت الأحمر» صـ٢٧٦ طبعة ١٢٧٧ . كذا في مجلة العشيرة المحمدية عدد محرم ١٣٨١هـ ، صـ٢١

شمس الدين الشريف ، بأنهم دسوا على الشيخ في كتبه كثيراً من العقائد الزائغة التي نقلت عن غير الشيخ ، فإن الشيخ مِنْ كُمَّل العارفين بإجماع أهل الطريق ، وكان جليس رسول الله ﷺ على الدوام ، فكيف يتكلم بما يهدم شيئًا من أركان شريعته ، ويساوي بين دينه وبين جميع الأديان الباطلة ، ويجعل أهل الدارين سواء؟! هذا لا يعتقده في الشيخ إلا من عزلَ عنه عقله . فإياك يا أخي أن تصدق ، من يضيف شيئًا من العقائد الزائغة إلى الشيخ ، واحمِ سمعك وبصرك وقلبك ، وقد نصحتُك والسلام . وقد رأيت في عقائد الشيخ محيي الدين الواسطي ما نصه : ونعتقد أن أهل الجنة والنار مخلدون في دارَيْهما ، لا يخرج أحد منهم من داره أبد الآبدين ودهر الداهرين . . قال : ومرادنا بأهل النار الذين هم أهلها من الكفار والمشركين والمنافقين والمعطِّلين ، لا عصاة الموحدين فإنهم يخرجون من النار بالنصوص) [1] .

ويؤيد ما ذكرنا بأن هذا القول مدسوس على الشيخ محيي الدين ما ذكره الشيخ نفسه في الباب الحادي والسبعين وثلثمائة من الفتوحات ، عندما تغلق أبواب النار ، كيف يصير أهلها كقطع اللحم حينما تغلي بهم النار ويصير أعلاها أسفلها . وكذلك ما ذكره الإمام الباجوري الشافعي في شرحه على جوهرة التوحيد : (وما يقال بتمرن أهل النار بالعذاب ، حتى لو أُلْقُوا في الجنة لتألموا مدسوس على القوم [الصوفية] كيف وقد قال تعالى : ﴿ **فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا** ﴾ (النبأ: ٣٠) [2] .

فكيف يعتقد مسلم هذه العقيدة الفاسدة التي تخالف عقيدة أهل السنة والجماعة؟ وقد نص على ذلك الشيخ محمد بن يوسف الكافي ، بعد أن ذكر فريق الجنة ، وأنهم مخلدون فيها ومنعمون ، ذكر فريق أهل النار فقال : (وفريق السعير خالدون فيه أبدًا ، لا ينقطع عنهم ألم العذاب ، وقال بعضهم :

---

(١) «اليواقيت والجواهر» للشعراني ٢/٢٠٥

(٢) حاشية العلامة شيخ الإسلام إبراهيم الباجوري صـ١٠٨

[ينقطع عنهم ، وينقلب في حقهم استلذاذًا ، بحيث لو عُرضت عليهم الجنة لأَبوْها ، لما هم فيه من الاستلذاذ] . ومعتقد هذا كافر بلا شك ولا ريب ، لتكذيبه الله تعالى في خبره : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (البقرة:١٦١،١٦٢) . وفي خبره أيضًا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ (النساء:٥٦) . وغير ذلك من الآيات الدالة على استمرار عذابهم)[1] .

ومما نسب إلى الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى أيضًا افتراءً عليه القولُ : بسقوط التكليف .

يقول العلامة الشعراني رحمه الله تعالى : (وقد ذكر الشيخ محيي الدين أنه لا يجوز لولي قط المبادرة إلى فعل معصية اطلع من طريق كشفه على تقديرها عليه ، كما لا يجوز لمن كُشف له أن يمرض في اليوم الفلاني من رمضان ، أن يبادر للفطر في ذلك اليوم ، بل يجب عليه الصبر حتى يتلبس بالمرض ، لأن الله تعالى ما شرع الفطر إلا مع التلَبُّس بالمرض أو غيره من الأعذار ، قال : وهذا مذهبنا ومذهب المحققين من أهل الله عز وجل)[2] .

ومما دُسَّ على العارف الكبير الشيخ إبراهيم الدسوقي رحمه الله تعالى قوله : (أذن لي ربي أن أتكلم وأقول أنا الله ، فقال لي : قل : أنا الله ولا تبالِ) وفي هذا من الشناعة والاجتراء ، ما يغني عن الإطالة[3] .

ومما دُسَّ على رابعة العدوية رحمها الله تعالى ، قولها عن الكعبة : [هذا الصنم المعبود في الأرض] [وقد عمد بعض المغرضين الدساسين إلى تقصي جميع النصوص المدسوسة والمكذوبة على الصوفية ليتخذها ذريعة في حملته

(١) المسائل الكافية للشيخ محمد بن يوسف الكافي التونسي صـ١٩
(٢) مجلة العشيرة المحمدية عدد محرم ١٣٨١هـ ، صـ٢١
(٣) المرجع السابق ١٣٨١ صـ٢٣

المغرضة ، وتهجمه الشنيع على الصوفية بأسلوب مقذع وعبارات منحطة بعيدة عن أخلاق الإِسلام وصفات المؤمنين لا يدفعه إِلى ذلك إِلا حقد دفين وهوى نفسي ومآرب شخصية] . وهذا ابن تيمية نفسه يُكذِّب نسبة هذا القول إِليها ويبين أنه مدسوس ومكذوب عليها ، فقد قال حين سئل عن ذلك : (وأما ما ذكر عن رابعة من قولها عن البيت : إِنه الصنم المعبود في الأرض ، فهو كذب على رابعة المؤمنة التقية ، ولو قال هذا من قال لكان كافراً يستتاب ، فإِن تاب وإِلا قتل ، وهو كذب . فإِن البيت لا يعبده المسلمون ؛ ولكنهم يعبدون رب البيت بالطواف به والصلاة إِليه) [1] .

ولو ذهبنا نستقصي ألوان التزييف في التاريخ الإِسلامي والتصوف لما وَسِعْتَنا هذه الرسالة ، إِذ التصوف كان نصيبه من الدس والافتراء أعظم من غيره ، لأن المزيفين أدركوا أن التصوف هو روح الإِسلام ، وأن الصوفية هم قوته النافذة الضخمة وشعلته الوضاءة المشرقة ، فأرادوا أن يطفئوا هذا النور . قال تعالى : ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ (الصف:٨) .

وإِننا لا ننسى أن الذي ساعد على الدس والتضليل والافتراء عدم الطباعة الفنية والمراقبة الشديدة في الماضي ، كما هي عليه اليوم في عصرنا الحاضر من الطبع المنظم ، ومن العقوبات القانونية لمن يتجرأ على طبع شيء من الكتب بغير إِذن مؤلفها ، بخلاف عصر النسْخ للكتب الخطية ، فقد كان الدساسون والكذابون يروجون كتبًا فيها ما فيها من الدجل والكذب ما الله به عليم ، ويُدخلون على كتب العلماء وخصوصًا الصوفية الدسائس والأباطيل .

ولكن الله تعالى ـ وله الحمد ـ قيَّضَ لهذا الدين رجالاً سهروا على تنقية الكتب الإِسلامية ، وبيَّنوا المدسوس فيها من الصحيح .

---

(١) «مجموعة الرسائل والمسائل» لابن تيمية ١/٨٠ ، ٨١

ونحن بهذا الكتاب المتواضع نساهم في تنقية التصوف الإِسلامي مما علق به من دسائس وأمور دخيلة عليه ، لنعيد له صفاءه وبريقه ولينتفع الناس من طاقاته الروحية ونفحته الإِيمانية في هذا العصر الذي خيَّمت عليه ظلمات المادية وآثام الإِباحية وتيارات الإِلحاد والوجودية . .

تأويل كلام السادة الصوفية

إِن ما نراه في كتب الصوفية من الأمور التي يخالف ظاهرها نصوص الشريعة وأحكامها ، هي :

- إِما أن تكون مدسوسة عليهم من قبل الزنادقة والحسدة وأعداء الإِسلام كما بيَّنَّا .
- وإِما أن يكون كلامًا قابلاً للتأويل ، تحدثوا به من باب الإِشارة أو الكناية أو المجاز ، كما نرى ذلك في كثير من الكلام العربي ، ونجده بارزًا في كتاب الله تعالى في مواطن عديدة ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ** ﴾ (البقرة:٩٣). أي حب العجل . وقوله تعالى : ﴿ **وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ** ﴾ (يوسف:٨٢). أي أهل القرية . وقوله عز وجل : ﴿ **أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ** ﴾ (الأنعام:١٢٢) . أي كان ميت القلب ، فأحياه الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ **لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ** ﴾ (إبراهيم:١) . أي من ظلمات الكفر إِلى نور الإِيمان . كما نلاحظ في بعض الآيات القرآنية الكريمة تعارضًا في الظاهر ، ولكنا لو تعمقنا في فهمها ، ودققنا في مدلولها ومتعلقها ، لوجدناها قابلة للتأويل ، وبذلك لا نستطيع أن نقول : إِن في القرآن تعارضًا أو تصادمًا .

فمثلاً ؛ يقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ** ﴾ (القصص:٥٦) . ويقول في موطن آخر : ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (الشورى:٥٢) .

فقد يرى مَنْ ليس عنده علم في التفسير أن بين النصَّيْن تعارضًا ؛ لأن الأول ينفي عن الرسول ﷺ الهداية ، والثاني يثبت له الهداية . ولكنه لو سأل أهل

الذكر لأخبروه أن الهداية في الآية الأولى بمعنى خلْقِ الهداية ، وأن معناها في الآية الثانية الدلالة والإرشاد . فلا تعارض بين النصَّين عند أهلِ الفهم .

وكذلك نجد أن بعض الأحاديث النبوية الشريفة لا يصح حملها على ظاهرها ، بل لابد من تأويلها على معانٍ تلائم باقي نصوص الشرع ، وتطابق صريح القرآن الكريم ، وفي هذا المعنى يقول الإمام الشعراني رحمه الله تعالى : (وقد أجمع أهل الحق على وجوب تأويل أحاديث الصفات ، كحديث : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخَر ؛ فيقول : من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيَه؟ من يَستغفرني فأغفرَ له؟ »[1]. وقد بلغ بأحد الضالين أن يقول ، وكان على منبر ، فنزل درجة منه وقال للناس : ينزل ربكم عن كرسيه إلى السماء ؛ كنزولي عن منبري هذا ، وهذا جهل ليس فوقه جهل)[2].

ومن جملة التأويل في الحديث ، تأويل حديث « إن الله خلق آدم على صورته »[3]. قال العلامة ابن حجر الهيثمي رحمه الله تعالى مؤولاً ذلك : (ويصح أن يكون الضمير لله تعالى كما هو ظاهر السياق ، وحينئذٍ يتعين أن المراد بالصورة الصفة ، أي أن الله تعالى خلق آدم على أوصافه . من العلم والقدرة وغيرهما ، ويؤيد هذا الحديثُ الصحيح عن عائشة رضي الله عنها : « كان ﷺ خلُقُه القرآن » [هذا الحديث فقرة من حديث طويل ولفظه : « قال سعد بن هشام : يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ قالت : ألستَ تقرأ القرآن؟ قلت : بلى ، قالت : فإن خُلُقَ نبي الله ﷺ كان القرآن »[4]، وحديث : « تخلقوا بأخلاق الله تعالى » .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب أبواب التهجد عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء

(٢) « التصوف الإسلامي والإمام الشعراني » طه عبد الباقي سرور صـ١٠٥

(٣) رواه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة عن أبي هريرة رضي الله عنه وأول الحديث : « إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه . . »

(٤) رواه مسلم في صحيحه في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب جامع صلاة الليل

فالمطلوب من الكامل أن يطهِّر أخلاقه ، وأوصافه من كل نقص ، ليحصل له نوعُ تأسٍّ بأخلاق ربه ، أي صفاته ، وإلا فشتَّان ما بين أوصاف القديم والحادث . وبهذا التقرير يُعلَم أن هذا الحديث غاية المدح لآدم عليه السلام ، حيث أوجد الله فيه صفاتٍ كصفاته تعالى بالمعنى الذي قررته . . إلى أن قال : والحاصل أن الحديث إن أعيدَ الضمير فيه لله تعالى ، وجب تأويله على ما هو المعروف من مذهب الخلف الذي هو أحكمُ وأعلمُ ، خلافًا لفرقة ضلوا عن الحق ، وارتكبوا عظائِم من الجهة والتجسيم اللذيْن هما كفر عند كثير من العلماء ، أعاذنا الله من ذلك بمنِّه وكرمه)[1] .

قال العلامة المناوي في شرحه على الجامع الصغير ، عند قوله ﷺ : « إن الله يقول يوم القيامة ، يا ابن آدم مرضتُ فلم تعدني . قال : يا رب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال : أمَا علمتَ أنَّ عبدي فلانًا مرض فلم تعده؟ أما علمتَ أنك لو عُدتَه لوجدتني عنده »؟[2] . . . إلخ الحديث : (سئل بعض العارفين عن تَنَزُّلاتِ الحق في إضافة الجوع والظمأ لنفسه ؛ هل الأَوْلى إبقاؤُها على ما وردت ، أو تأويلها كما أوَّلها الحق لعبده حين قال : كيف أطعمك . . إلخ؟ فقال : الواجب تأويلها للعوام لئلا يقعوا في جانب الحق بارتكاب محظور وانتهاك حرمة ، وأما العارف فعليه الإيمان بها على حد ما يعلمه الله ، لا على حد نسبتها للخلق لاستحالته ، وحقيقته تعالى مخالفة لسائر الحقائق ، فلا يجتمع قط مع خلقه في جنس ولا نوع ولا شخص ، ولا تلحقه صفةُ تشبيه ؛ لأنها لا تكون إلا لمن يجتمع مع خلقه في حال من الأحوال . ولذا أبقاها السلف على ظاهرها لئلا يفوتَهم كمال الإيمان ، لأنه ما كلفهم إلا بالإيمان به لا بما أولوه ، فقد لا يكون مرادًا للحق ، فالأدب إضافتنا إليه كلَّ ما أضافه لنفسه تعالى . . إلخ)[3] .

(١) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيثمي صـ ٢١٤

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة عن أبي هريرة رضي الله عنه

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي ٢/٣١٣

فإِذا كان كلام سيد المرسلين ﷺ وقد أوتي الفصاحة والبلاغة ووضوح اللفظ وإِشراق التعبير وجوامع الكلم ؛ قد احتاج في بعض الأحيان إِلى التأويل ؛ بحمل معانيه على غير ما يفيده ظاهر لفظه ، فإِن كلام غيره من أمته ممن لم يبلغ شأوه في البيان والفصاحة قابل للتأويل محتمل للتفسير من باب أولى . ومن ناحية أخرى ، فإِن لكل فن من الفنون أو علم من العلوم كالفقه والحديث والمنطق والنحو والهندسة والجبر والفلسفة اصطلاحات خاصة به ، لا يعلمها إِلا أرباب ذلك العلم ، فهل يفهم الطبيب اصطلاح المهندس ، أو يفهم المهندس اصطلاح الطبيب حين يعبر كل منهما عن آلاته ومسميات فنه؟

ومن قرأ كتب علم من العلوم دون أن يعرف اصطلاحاته ، أو يطلع على رموزه وإِشاراته ، فإِنه يؤول الكلام تأويلات شتى مغايرة لما يقصده العلماء ، ومناقضة لما يريده الكاتبون فيتيه ويضل .

وللصوفية اصطلاحاتهم التي قامت بعض الشيء مقام العبارة في تصوير مدركاتهم ومواجيدهم ، حين عجزت اللغة عن ذلك . فلابد لمن يريد الفهم عنهم من صحبتهم حتى تتضح له عباراتهم ، ويتعرف على إِشاراتهم ومصطلحاتهم ؛ فيستبين له أنهم لم يخرجوا عن الكتاب والسنة ، ولم ينحرفوا عن الشريعة الغراء ، وأنهم هم الفاهمون لروحها ، الواقفون على حقيقتها ، الحارسون لتراثها .

قال بعض العارفين : (نحن قوم يحرم النظر في كتبنا على من لم يكن من أهل طريقنا)[1]. لأن الغاية من تدوين هذه العلوم إِيصالها لأهلها ، فإِذا اطلع عليها مَنْ ليس من أهلها جهلها ، ثم عاداها ، لأن الإِنسان عدو لما جهل . ولذلك قال السيد علي بن وفا رحمه الله تعالى : (إِنَّ من دَوَّنَ المعارف والأسرار

(١) اليواقيت والجواهر للشعراني ١/٢٢

لمْ يدوِّنها للجمهور ، بل لو رأى مَنْ يطالع فيها ممَّن ليس هو بأهلها لنهاهُ عنها) [1].

وتوضيحًا للموضوع نقول : إن كلام السادة الصوفية في تحذير من لا يفهم كلامهم ولا يعرف اصطلاحاتهم من قراءة هذه الكتب ليس من قبيل كتم العلم ، ولكن خوفًا من أن يفهم الناس من كتبهم غير ما يقصدون ، وخشية أن يؤولوا كلامهم على غير حقيقته ، فيقعوا في الإنكار والاعتراض ، شأن من يجهل علمًا من العلوم . لأن المطلوب من المؤمن أن يخاطب الناس بما يناسبهم من الكلام وما يتفق مع مستواهم في العلم والفهم والاستعداد ، ولهذا أفرد البخاري في صحيحه بابًا في ذلك فقال : « باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا» ، وقال علي رضي الله عنه : (حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يُكذَّبَ الله ورسولهُ؟)[2]. قال العلامة العيني رحمه الله تعالى في شرحه لهذا الحديث : (ترك بعض الناس من التخصيص بالعلم لقصور فهمهم ، والمراد كلموهم على قدر عقولهم ، وفي كتاب العلم لآدم بن إياس عن عبد الله بن داود عن معروف في آخره : « ودعوا ما ينكرون» . أي ما يشتبه عليهم فهمه ، وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يُذكَر عند العامة . ومثله قول ابن مسعود رضي الله عنه ، ذكره مسلم في مقدمة كتابه بسند صحيح قال : « ما أنتَ بمحدثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة» . لأن الشخص إذا سمع ما لا يفهمه ، وما لا يتصور إمكانه يعتقد استحالته جهلاً ، فلا يصدق وجوده ، فإذا أُسنِدَ إلى الله ورسوله يلزم تكذيبهما)[3].

وقال الشيخ أحمد زروق رحمه الله تعالى في قواعده : (في كل علم ما يخص وما يعم ، فليس التصوف بأولى من غيره في عمومه وخصوصه ، بل يلزم بذل أحكام الله المتعلقة بالمعاملات من كلٍّ عمومًا ، وما وراء ذلك على

---

(١) اليواقيت والجواهر للشعراني ٢٢/١

(٢) « صحيح البخاري» كتاب العلم

(٣) « عمدة القاري شرح صحيح البخاري» للإمام العيني ٢٠٤/٢ ، ٢٠٥

حسب قابِله لا قدر قائِله ، لحديث : « حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله؟ »[1] . وقيل للجنيد رحمه الله تعالى : يسألك الرجلان عن المسألة الواحدة فتجيب هذا بخلاف ما تجيب هذا ؟ فقال : الجواب على قدر السائل . قال عليه السلام : « أُمِرْنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم »[2] .

ولهذا ذكر الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى في الباب الرابع والخمسين من الفتوحات ما نصه : (اعلم أن أهل الله لم يضعوا الإِشارات التي اصطلحوا عليها فيما بينهم لأنفسهم ، فإِنهم يعلمون الحق الصريح في ذلك ، وإِنما وضعوها منعًا للدخيل بينهم ، حتى لا يعرف ما هم فيه ، شفقةً عليه أن يسمع شيئًا لم يصل إِليه فينكره على أهل الله ، فيُعاقَبُ بحرمانه ، فلا يناله بعد ذلك أبدًا ، قال : ومن أعجب الأشياء في هذه الطريق ، بل لا يوجد إِلا فيها ، أنه ما من طائفة تحمل علمًا من المنطقِّيين والنحاة وأهل الهندسة والحساب والمتكلمين والفلاسفة ؛ إِلا ولهم اصطلاح لا يعلمه الدخيل فيهم إِلا بتوقيف منهم ، لابد من ذلك . إِلا أهل هذه الطريقة خاصة ، فإِن المريد الصادق إِذا دخل طريقهم ، وما عنده خبر بما اصطلحوا عليه ، وجلس معهم ، وسمع منهم ما يتكلمون به من الإِشارات ، فَهِمَ جميع ما تكلموا به ، حتى كأنه الواضع لذلك الاصطلاح ، ويشاركهم في الخوض في ذلك العلم . ولا يستغرب هو ذلك من نفسه ، بل يجد علم ذلك ضروريًّا لا يقدر على دفعه ، فكأنه ما زال يعلمه ، ولا يدري كيف حصل له ذلك . هذا شأن المريد الصادق ، وأما الكاذب فلا يعرف ما يسمع ، ولا يدري ما يقرأ ، ولم يزل علماء الظاهر في كل عصر يتُوقون في فهم كلام القوم . وناهيك بالإِمام أحمد بن سريج ، حضر

(١) رواه البخاري تعليقًا في كتاب العلم باب من خص قومًا دون آخرين عن علي رضي الله عنه

(٢) رواه الديلمي بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قواعد التصوف للشيخ زروق صـ٧

يومًا مجلس الجنيد ، فقيل له : ما فهمتَ من كلامه؟ فقال : لا أدري ما يقول ، ولكن أجد لكلامه صولة في القلب ظاهرة . تدل على عمل في الباطن وإخلاص في الضمير ، وليس كلامه كلام مبطل . ثم إن القوم لا يتكلمون بالإشارة إلا عند حضور مَنْ ليس منهم ، أو في تأليفهم لا غير .. ثم قال : ولا يخفى أن أصل الإنكار من الأعداء المبطلين إنما ينشأ من الحسد ، ولو أن أولئك المنكرين تركوا الحسد ، وسلكوا طريق أهل الله ، لم يظهر منهم إنكار ولا حسد ، وازدادوا علمًا إلى علمهم . ولكن هكذا كان الأمر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) (١) .

وقال العلامة ابن عابدين رحمه الله تعالى في حاشيته شارحًا كلام صاحب الدر المختار ، حين سئل عن فصوص الحكم للشيخ محيي الدين بن عربي : (يجب الاحتياط ؛ لأنه إن ثبت افتراؤها فالأمر ظاهر ، وإلا فلا يفهم كل واحد مراده فيها ، فيُخشى على الناظر فيها من الإنكار عليه ، أو فهم خلاف المراد . وللحافظ السيوطي رسالة سماها : [تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي] ، ذكر فيها أن الناس افترقوا فيه فرقتين : الفرقة المصيبة تعتقد ولايته ، والأخرى بخلافها . ثم قال : والقول الفصل عندي فيه طريقة لا يرضاها الفرقتان ؛ وهي اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه ، وقد نُقل عنه أنه قال: [نحن قومٌ يحرم النظر في كتبنا]، وذلك أن الصوفية تواطؤوا على ألفاظ ، اصطلحوا عليها ، وأرادوا بها معاني غير المعاني المتعارفة منها بين الفقهاء ، فمن حملها على معانيها المتعارفة كفر ، نص على ذلك الغزالي في بعض كتبه وقال : إنه شبيه بالمتشابه في القرآن والسنة ، كالوجه واليد والعين والاستواء . وإذا ثبت أصل الكتاب عنه [عن الشيخ محيي الدين] فلابدّ من ثبوتِ كلِّ كلمة لاحتمال أن يُدس فيه ما ليس منه ، من قِبَلِ عدو أو ملحد أو زنديق ، وثبوتِ أنه قصد بهذه الكلمة

---

(١) اليواقيت والجواهر للشعراني صـ١٩

المعنى المتعارف ، وهذا لا سبيل إليه ، ومن ادَّعاه كفر لأنه من أمور القلب التي لا يطلع عليها إلا الله تعالى . وقد سأل بعضُ أكابر العلماء بعضَ الصوفية : ما حملكم على أنكم اصطلحتم على هذه الألفاظ التي يُستشنع ظاهرها؟ فقال : غيرة على طريقنا هذا أن يدَّعيَه من لا يُحْسنه ويدخل فيه من ليس أهله) [1].

وسئل العلامة ابن حجر الهيثمي رحمه الله تعالى : ما حكم مطالعة كتب ابن عربي وابن الفارض؟ فأجاب بقوله : (حكمها أنها جائزة مطالعة كتبهما ، بل مستحبة ، فكم اشتملت تلك الكتب على فائدة لا توجد في غيرها ، وعائدة لا تنقطع هواطل خيرها ، وعجيبة من عجائب الأسرار الإلهية التي لا ينتهي مددُ خيرها ، وكم تَرجمت عن مقامٍ عجز عن الترجمة عنه من سواها ، ورمزت برموز لا يفهمها إلا العارفون ، ولا يحوم حول حومة حماها إلا الربانيون ، الذين هم بين مواطن الشريعة الغراء وأحكام ظواهرها على أكمل ما ينبغي جامعون ، ولذلك كانوا بفضل مؤلفيها معترفين . . إلى أن قال : هذا وإنه قد طالع هذه الكتب أقوام عوام جهلة طغام ، فأدمنوا مطالعتها ، مع دقة معانيها ورقة إشاراتها وغموض مبانيها ، وبنائها على اصطلاح القوم السالمين عن المحذور واللوم ، وتوقف فهمها بكمالها على إتقان العلوم الظاهرة ، والتحلي بحقائق الأحوال والأخلاق الباهرة ، فلذلك ضَعُفتْ أفهامهم ، وزلَّتْ أقدامهم ، وفهموا منها خلاف المراد ، واعتقدوه صوابًا فباؤوا بخسار يوم التناد ، وألحدوا في الاعتقاد ، وهوت بهم أفهامهم القاصرة إلى هفوة الحلول والاتحاد ، حتى لقد سمعتُ شيئًا من هذه المفاسد القبيحة ، والمكفرات الصريحة ، من بعض من أدمن مطالعة تلك الكتب ، مع جهله بأساليبها وعظم ما لها من

---

(١) حاشية ابن عابدين ٣٠٣/٣

الخطب . وهذا هو الذي أوجب لكثير من الأئمة الحط عليها ، والمبادرة بالإِنكار إِليها ، ولهم في ذلك نوع عذر ، لأن قصدهم فطم أولئك الجهلة عن تلك السموم القاتلة لهم ، لا الإِنكار على مؤلفيها من حيث ذاتهم وحالهم) (١).

وقال الشعراني رحمه الله تعالى : (وبالجملة فلا تَحِلُّ قراءة كتب التوحيد الخاص ، وكتب العارفين إِلا لعالم كامل ، أو من سلك طريق القوم . وأما من لم يكن واحدًا من هذين الرجلين ، فلا ينبغي له مطالعة شيء من ذلك ، خوفًا عليه من إِدخال الشُّبَهِ التي لا يكاد الفَطِنُ أن يخرج منها ، فضلاً عن غير الفطن ، ولكن من شأن النفس كثرة الفضول ، ومحبة الخوض فيما لا يعنيها)(٢).

وقال الشيخ عبد الكريم الجيلي رحمه الله تعالى في كتابه الإِنسان الكامل : (ثم ألتمس من الناظر في هذا الكتاب ، بعد أن أعلمه أني ما وضعت شيئًا في هذا الكتاب إِلا وهو مؤيَّد بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وأنه إِذا لاح له شيء من كلامه بخلاف الكتاب والسنة ، فليعلم أن ذلك من حيث مفهومه ، لا من حيث مرادي الذي وضعتُ الكلام لأجله ، فليتوقف عن العمل به مع التسليم ، إِلى أن يفتح الله عليه بمعرفته ، ويحصل له شاهد ذلك من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .. إِلى أن قال : واعلم أن كل علم لا يؤيده الكتاب والسنة فهو ضلالة ، لا لأجل ما لا تجد أنت له ما يؤيده ، فقد يكون العلم في نفسه مؤيَّدًا بالكتاب والسنة ، ولكن قلة استعدادك منعك من فهمه ، فلم تستطع أن تتناوله بيدك من محله ، فتظن أنه غير مؤيد بالكتاب والسنة ، والطريقُ في هذا التسليمُ) (٣).

---

(١) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيثمي المكي صـ٢١٦

(٢) التصوف الإِسلامي والإِمام الشعراني لطه عبد الباقي سرور صـ١٠٤ ، ١٠٥

(٣) الإِنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي صـ٥ . وليحذر القارئ من مطالعة هذا الكتاب لأن فيه كلمات مخالفة لعقيدة أهل السنة ، ولا تقبل التأويل بحال مع أنه قد ألف كتابه مؤيدًا بالكتاب والسنة ، كما نص عليه مؤلفه في مقدمة كتابه . ونحن متأكدون أن الكثير مما فيه مدسوس عليه . . .

يتبين لنا من هذه النصوص التي نقلناها عن الفقهاء الأعلام والسادة الصوفية أمور أهمها :

أ- أنه لا يصح لغير السالك في طريق الصوفية ، أن يطالع كتبهم ، خشية أن يفهمها على غير حقيقتها ، وخلاف ما يريده مؤلفوها ؛ لأنه بعيد عن فهم اصطلاحاتهم ، ومعرفة إِشاراتهم .

غير أن كتب الصوفية إِجمالاً تنقسم إِلى ثلاثة أقسام :

١- القسم الأول : يبحث عن تصحيح العبادات ، وحسن إِقامتها بصورتها وروحها ، من الخشوع والحضور فيها مع الله تعالى ، مع مراعاة آدابها الظاهرة كذلك .

٢- القسم الثاني : يبحث في مجاهدة النفس وتزكيتها ، والقلب وأحواله ؛ من تخليته عن صفاته الناقصة كالشكوك والوساوس والرياء والحقد والغل والسمعة والجاه والحسد وغيرها من الصفات المذمومة . وتحليته بالصفات الكاملة كالتوبة والتوكل والرضا والتسليم والمحبة والإِخلاص ، والصدق والخشوع والمراقبة وغيرها من الصفات الحسنة .

وهذان القسمان مذكوران في كتاب الإِحياء للإِمام الغزالي ، وقوت القلوب لأبي طالب المكي ، وأمثالهما . وتسمى هذه العلوم علومَ المعاملة .

٣- القسم الثالث : يبحث عن المعارف الربانية والعلوم الوهبية والأذواق الوجدانية والحقائق الكشفية . ومعظم كتب الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى من هذا القسم ؛ كالفتوحات المكية والفصوص . وكذلك كتاب الإِنسان الكامل للشيخ عبد الكريم الجيلي رحمه الله تعالى . وعلى أمثال هذه الكتب ينصبُّ التحذير من قراءتها لغير السالكين العارفين من الصوفية . وتسمى هذه العلوم علومَ المكاشفة .

ب ـ أن التصوف لا يُنال بقراءة الكتب ، ولا بمعرفة الاصطلاحات بل لابد من السلوك مع رجاله ومجالسة أهله . قال الشيخ الشعراني رحمه الله تعالى :

(سمعت سيدي عليًّا الخواص رضي الله عنه يقول : إِياك أن تعتقد يا أخي إِذا طالعت كتب القوم ، وعرفت مصطلحهم في ألفاظهم أنك صرت صوفيًّا ، إِنما التصوف التخلق بأخلاقهم ، ومعرفة طرق استنباطهم لجميع الآداب والأخلاق التي تحلَّوْا بها من الكتاب والسنة) (١).

جـ ـ أن السادة الصوفية إِنما وضعوا هذه الرموز والإِشارات كي لا يأخذ علمهم إِلا مَنْ سار في طريقهم . وقد بينا أن التصوف لا ينال بقراءة الأوراق ، بل بصحبة أهل الأذواق .

د ـ أن النصوص التي فيها الكفر والزيغ والمُرُوق من الدين مدسوسة على القوم حتمًا ، لما رأيتَ من تمسكهم بالكتاب والسنة مما مر معك مِنْ نُقُول .

هـ ـ أن ما ثبت عنهم بالتأكيد ، ويمكن تأويله وحمله على وجه صحيح من عقيدة أهل الحق ؛ أهل السنة والجماعة ، وجب تأويله عليها ، لأنها هي عقيدتهم التي يعتقدونها ويصرحون بها ، ويُثبتونها دائمًا في مقدمات كتبهم كما هي سنتهم ، وانظر إِن شئت مقدمة الرسالة القشيرية ، والفتوحات المكية ، والتعرُّفَ لمذهب أهل التصوف ، وإِحياء علوم الدين وغيرها من الكتب .

و ـ أن ما نسب إِليهم مما لا يمكن تأويله على وجه صحيح ، إِن صح عنهم فهو مردود على صاحبه ، لا نسلمه له ولا نعتقده ، بل نقول بكفر مُعْتَقَدِه ، ولكنا لا نكفر شخصًا معينًا ، لأنا لا ندري خاتمته ، ولأننا مسؤولون أولاً وآخرًا عن عقيدة أهل الحق ، أهل السنة والجماعة ، لا عن عقيدة أي إِنسان آخر .

وإِليك أيها القارئ الكريم بعض الأمثلة عن أُمور وعبارات أنكرها الجاهلون ، فتحاملوا على الصوفية ووصَموهم بالخروج عن الشريعة ، ولكنك

---

(١) لطائف المنن والأخلاق للشعراني ٢/١٤٩

حين تفهم مرادهم ، وتطلع على قصدهم ، يتبين لـك أن إِنكـار المنكـرين كـان إِما عن جهل وتسرع ، أوعن حسد وتحامل .

١- يقول الإِمام الشعراني رحمه الله تعالى : (مما نُقِلَ عن القوم قولهم : [دخلنا حضرةَ الله ، وخرجنا عن حضرةِ الله] . ليس مرادهم بحضرة الله عـز وجـل مكانًا معينًا ، فإِن ذلك ربما يُفهم منه التحيُّزُ للحـق ، تعـالى الله عـن ذلـك علواًّ كبيراً ، وإِنما مرادهم بالحضرة حيث أطلقـوا شـهودُ أحـدهم أنـه بـين يدي ربه عز وجل ، فمـا دام يشـهد أنـه بـين يـديْ ربـه عـز وجـل فهـو في حضرته ، فإِذا حُجب خرج عن حضرته) [(١)].

٢- وقال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى : (كنت ذات يـوم مع بعض إِخواني فأنشدت قائلاً :

يـــا مَـــنْ يـــرانـــي ولا أراه كـــم ذا أراهُ ولا يـــرانـــي .

فقال ذلك الأخ الذي كان معي لما سمع هذا البيت : كيف تقول إِنه لا يراك ، وأنت تعلم أنه يراك ؟ قال : فقلت مرتجلاً :

يـــا مَـــنْ يـــراني مـــذنبًا ولا أراه آخـــــــذًا .

كـــم ذا أراه منعِمًـــا ولا يـــرانـــي لائِـــذًا . [(٢)]

٣- وقال الشعراني رحمه الله تعالى : (ومما نقل عن الغزالي أنه قال : [ليس في الإِمكان أبدع مما كان] . ولعل مراده رضي الله تعالى عنه أن جميع الممكنات أبرزها الله على صورةِ ما كانت في علمه تعالى القديم ، وعلمه القديم لا يقبل الزيادة ، وفي القرآن العظيم : ﴿ **أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴾ (طه:٥٠) . فلو صح أن في الإِمكان أبدع مما كان ، ولم يسبق به علم الله تعالى للزم عليه تقدم جهل ، تعالى الله عن ذلك علواًّ كبيراً ، وهذا

---

(١) لطائف المنن والأخلاق للشعراني ١٢٧/١

(٢) كتاب النصرة النبوية للشيخ مصطفى المدني على هامش الرائية صـ٨٢

هو معنى قول الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى في تأويل ذلك : إِن كلام حجة الإِسلام في غاية التحقيق ، لأنه ما ثَمَّ إِلا رتبتان : قِدَمٌ وحدوث ؛ فالحق تعالى له رتبة القِدَم ، والحادث له رتبة الحدوث ، فلو خلق الله تعالى ما خلق إِلى ما لا يتناهى عقلاً ، فلا يرقى عن رتبة الحدوث إِلى رتبة القدم أبدًا » [1].

٤- وقال محمد أبو المواهب الشاذلي رحمه الله تعالى مؤولاً كلام أبي يزيد رحمه الله تعالى : [خضْنا بحرًا وقفتْ الأنبياء بساحله] . (قلنا : خاض العارفون بحر التوحيد أولاً بالدليل ؛ وبعد ذلك وصلوا إِلى مرتبة الشهود والعيان ، والأنبياء عليهم السلام وقفوا بأول وهلة على ساحل العيان ، ثم وصلوا إِلى ما لا يعبر عنه بالعرفان . فكانت بدايتهم عليهم السلام نهاية العارفين) [2].

٥- ومما نقل عن أبي الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى قوله : [يصل الولي إِلى رتبة يزول عنه فيها كلفة التكليف]. فأجاب أبو المواهب بقوله : (قلنا : يكون الولي أولاً يجد كلفة التعب ، فإِذا وصل ، وجد بالتكليف الراحة والطرب ، من باب قوله ﷺ : « أرحْنا بها يا بلال » [3]. ذلك مقصد الرجال [4].

٦- ومن الكلمات التي لها تأويل شرعي صحيح كلمة [مدد] التي يُردِّدها بعض الصوفية ، فينادي بها أحدهم رسول الله ﷺ أو يخاطب بها شيخه .

وحجة المعترِض عليهم أن هذه الكلمة هي سؤال لغير الله واستعانة بسواه ولا يجوز السؤال إِلا له ولا الاستعانة إِلا به ؛ حيث قال الرسول ﷺ : « إِذا

---

(١) « لطائف المنن والأخلاق » للشعراني ١/١٢٦

(٢) قوانين حكم الإِشراق إِلى كافة الصوفية في جميع الآفاق ، قانون الولاية الخاصة صـ٥٨

(٣) يا بلال أرحنا بالصلاة . رواه الإمام أحمد في مسنده . ورواه أبو داود في كتاب الأدب : باب في صلاة العتمة يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها عن سالم بن أبي الجعد

(٤) « قوانين حكم الإِشراق » صـ٥٩

سألت فاسأل الله ، وإِذا استعنت فاستعن بالله»[1] ، ثم إِن الله تعالى بيَّن في كتابه العزيز أنه هو مصدر الإِمداد حين قال : ﴿ **كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَ** ﴾ (الإسراء: ٢٠).

وقد جهل هؤلاء المعترضون أن السادة الصوفية هم أهل التوحيد الخالص ، الذين يأخذون بيد مريديهم ليذيقوهم حلاوة الإِيمان ، وصفاء اليقين ؛ ويخلصوهم من شوائب الشرك في جميع صوره وأنواعه .

ولتوضيح المراد من كلمة [مدد] نقول : لابد للمؤمن في جميع أحواله أن تكون له نظرتان :

- نظرة توحيدية لله تعالى ، بأنه وحده مسبب الأسباب ، والفاعل المطلق في هذا الكون ، المنفردُ بالإِيجاد والإِمداد ، ولا يجوز للعبد أن يشرك معه أحدًا من خلقه ، مهما علا قدره أو سمت رتبته من نبي أو ولي .
- ونظرة للأسباب التي أثبتها الله تعالى بحكمته ، حيث جعل لكل شيء سببًا .

فالمؤمن يتخذ الأسباب ولكنه لا يعتمد عليها ولا يعتقد بتأثيرها الاستقلالي ، فإِذا نظر العبد إِلى السبب واعتقد بتأثيره المستقل عن الله تعالى فقد أشرك ، لأنه جعل الإِله الواحد آلهة متعددين ، وإِذا نظر للمسبِّب وأهمل اتخاذ الأسباب ، فقد خالف سنة الله الذي جعل لكل شيء سببًا . والكمال هو النظر بالعينين معًا ، فنشهد المسبِّبَ ولا نهمل السبب . ولتوضيح هذه الفكرة نسوق بعض الأمثلة عليها :

- إِن الله تعالى وحده هو خالق البشر ؛ ومع ذلك فقد جعل لخلقهم سببًا عاديًا ، وهو التقاء الزوجين ، وتكوُّنُ الجنين في رحم الأم ، وخروجه منه في أحسن تقويم .

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . وقال : حديث حسن صحيح

- وكذلك فإن الله تعالى هو وحده المميت ؛ ولكنه جعل للإماتة سببًا هو ملك الموت ، فإذا لاحظنا المسبب قلنا : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ ﴾ (الزمر:٤٢).

وإذا قلنا : إن فلانًا قد توفاه ملك الموت ، لا نكون قد أشركنا مع الله إلهًا آخر ؛ لأننا لاحظنا السبب ، كما بينه الله تعالى في قوله : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ (السجدة:١١) .

- وكذلك فإن الله تعالى هو الرزاق ، ولكنه جعل للرزق أسبابًا عادية كالتجارة والزراعة . . فإذا لاحظنا المسبب في معرض التوحيد ، أدركنا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (الذاريات:٥٨) . وإذا لاحظنا السبب وقلنا : إن فلانًا يُرزَقُ من كسبهِ ، لا نكون بذلك قد أشركنا ، فرسول الله ﷺ يقول : « ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده »(١). وقد جمع الرسول ﷺ بين النظرتين توضيحًا للأمر وبيانًا للكمال في قوله : « وإنما أنا قاسم والله يعطي »(٢).

- وكذلك الأمر بالنسبة للإنعام ، ففي معرض التوحيد قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل:٥٣) . لأنه المنعم الحقيقي وحده . وفي معرض الجمع بين ملاحظة المسبِّب والسبب قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ (الأحزاب:٣٧) . فليس الرسول ﷺ شريكًا لله في عطائه ، وإنما سيقت النعم لزيد بن حارثة رضي الله عنه بسببه ﷺ ، فقد أسلم على يديه ، وأُعتِقَ بفضله ، وتزوج باختياره . .

- وكذلك بالنسبة للاستعانة ، إذا نظرنا للمسبب قلنا : « إذا استعنْتَ فاستعن بالله » . وإذا نظرنا للسبب قلنا : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة:٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده ، عن المقدام رضي الله عنه

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيرًا ، عن معاوية رضي الله عنه

« والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »[1] . فإذا قال المؤمن لأخيه : أَعِنِّي على حمل هذا المتاع ؛ لا يكون مشركًا مع الله تعالى أحدًا أو مستعينًا بغير الله ، لأن المؤمن ينظر بعينيه ، فيرى المسبِّب والسبب ، وكل من يتهمه بالشرك فهو ضال مضل .

- وهكذا الأمر بالنسبة للهداية ؛ إذا نظرنا للمسبب ، رأينا أن الهادي هو الله وحده ، لهذا قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ** ﴾ (القصص:٥٦). وإذا لاحظنا السبب ، نرى قول الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (الشورى:٥٢) . أي تكون سببًا في هداية من أراد الله هدايته .

والعلماء العارفون المرشدون هم ورثة الرسول ﷺ في هداية الخلق ودلالتهم على الله تعالى . فإذا استرشد مريد بشيخه ، فقد اتخذ سببًا من أسباب الهداية التي أمر الله بها ، وجعل لها أئمة يدلون عليها ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ (السجدة:٢٤) . وصلة المريد هي صلة روحية ، لا تفصلها المسافات ولا الحواجز المادية ، وإذا كانت الجُدُر والمسافات لا تفصل أصوات الأثير فكيف تفصل بين الأرواح المطلقة؟! لذا قالوا : (شيخك هو الذي ينفعك بُعدُه كما ينفعك قربُه) وبما أن الشيخ هو سبب هداية المريد ؛ فإن المريد إذا تعلق بشيخه ، وطلب منه المدد ، لا يكون قد أشرك بالله تعالى ، لأنه يلاحظ هنا السبب ، كما أوضحناه سابقًا ، مع اعتقاده أن الهاديَ والمُمِدَّ هو الله تعالى ، وأن الشيخ ليس إلا سببًا ، أقامه الله لهداية خلقه ، وإمدادهم بالنفحات القلبية ، والتوجيهات الشرعية . ورسول الله ﷺ هو البحر الزاخر الذي يستمد منه هؤلاء الشيوخ وعنه يصدرون .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ، عن أبي هريرة رضي الله عنه

فإذا سلمنا بقيام الصلة الروحية بين المريد وشيخه ، سلمنا بقيام المدد المترتب عليها ، لأن الله يرزق البعض بالبعض في أمر الدين والدنيا .

ولعل القارئ الكريم بعد هذا ، قد اكتفى بهذه الأمثلة من كلام القوم ، وبتلك النقول الصريحة من عباراتهم ، حتى إذا ما رأى كلامًا مشتبهًا يحتمل ويحتمل ، أحسن الظن بهم ، والتمس سبلاً لتأويل كلامهم بعد أن تبين له أن التأويل جائز في كلام الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وكلام الفقهاء والمحدثين والأصوليين والنحويين وغيرهم . ولهذا قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : (يحرم على كل عاقل أن يسيئ الظن بأحد من أولياء الله عز وجل ، ويجب عليه أن يؤول أقوالهم وأفعالهم مادام لم يلحق بدرجتهم ، ولا يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق) [1]

وحدة الوجود والحلول والاتحاد

الحلول والاتحاد :

إن من أهم ما يتحامل به المغرضون على السادة الصوفية اتهامهم جهلاً وزورًا بأنهم يقولون بالحلول والاتحاد ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد حلَّ في جميع أجزاء الكون ؛ في البحار والجبال والصخور والأشجار والإنسان والحيوان . . إلخ ، أو بمعنى أن المخلوق عين الخالق ، فكل الموجودات المحسوسة والمشاهدة في هذا الكون هي ذات الله تعالى وعينه . تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

ولاشك أن هذا القول كفر صريح يخالف عقائد الأمة . وما كان للصوفية وهم المتحققون بالإسلام والإيمان والإحسان أن ينزلقوا إلى هذا الدرك من الضلال والكفر ، وما ينبغي لمؤمن منصف أن يرميهم بهذا الكفر جزافًا دون

---

(١) اليواقيت والجواهر ١/١١

تمحيص أو تثبت ، ومن غير أن يفهم مرادهم ، ويطلع على عقائدهم الحقة التي ذكروها صريحة واضحة في أُمهات كتبهم ، كالفتوحات المكية ، وإِحياء علوم الدين ، والرسالة القشيرية وغيرها . . ولعل بعض المغرضين المتحاملين على الصوفية يقولون : إِن هذا القول بتبرئة السادة الصوفية من فكرة الحلول والاتحاد ، إِنما هو تهرب من الواقع أو دفاع مغرض عن الصوفية بدافع التعصب والهوى ، فهلاَّ تأتون بدليل من كلامهم يبرئ ساحتهم من هذه التهم؟!..

فلبيان الحقيقة الناصعة نورد نبذًا من كلام السادة الصوفية تثبت براءَتَهم مما اتُّهموا به من القول بالحلول والاتحاد ، وتحذيرَهم الناسَ من الوقوع في هذه العقيدة الزائغة ، وتُظهِر بوضوح أن ما نسب إِليهم من أقوال تفيد الحلول أو الاتحاد إِما مدسوسة عليهم ، أو مؤولة بما يلائم هذه النصوص الصريحة التالية الموافقة لعقيدة أهل السنة والجماعة .

يقول الشعراني رحمه الله تعالى : (ولعمري إِذا كان عُبَّاد الأوثان لم يتجرؤوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله ؛ بل قالوا : ما نعبدهم إِلا ليقربونا إِلى الله زلفى ، فكيف يُظَن بأولياء الله تعالى أنهم يدَّعون الاتحاد بالحق على حدٍّ ما تتعقله العقول الضعيفة؟! هذا كالمحال في حقهم رضي الله تعالى عنهم ، إِذ ما مِن وليٍّ إِلا وهو يعلم أن حقيقته تعالى مخالفة لسائر الحقائق ، وأنها خارجة عن جميع معلومات الخلائق ، لأن الله بكل شيء محيط) [1].

والحلول والاتحاد لا يكون إِلا بالأجناس ، والله تعالى ليس بجنس حتى يحلَّ بالأجناس ، وكيف يحل القديم في الحادث ، والخالق في المخلوق!؟ إِن كان حلول عَرَض في جوهر فالله تعالى ليس عرضًا ، وإِن كان حلول جوهر في جوهر فليس الله تعالى جوهرًا ، وبما أن الحلول والاتحاد بين المخلوقات محال ؛ إِذ لا يمكن أن يصير رجلان رجلاً واحدًا لتباينهما في الذات ؛ فالتباين

---

(١) اليواقيت والجواهر ١/٨٣

بين الخالق والمخلوق ، وبين الصانع والصنعة ، وبين الواجب الوجود والممكن الحادث أعظم وأولى لتباين الحقيقتين .

وما زال العلماء ، ومحققو الصوفية يبينون بطلان القول بالحلول والاتحاد ، وينبهون على فساده ، ويحذرون من ضلاله . قال الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى في عقيدته الصغرى : (تعالى الحق أن تحله الحوادث أو يحلها) [(١)].

وقال في عقيدته الوسطى : (اعلم أن الله تعالى واحد بالإجماع ، ومقام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء ، أو يحل هو في شيء ، أو يتحد في شيء)[(٢)].

وقال في باب الأسرار : (لا يجوز لعارف أن يقول : أنا الله ، ولو بلغ أقصى درجات القرب ، وحاشا العارف من هذا القول حاشاه ، إنما يقول : أنا العبد الذليل في المسير والمقيل) [(٣)].

وقال في الباب التاسع والستين ومائة : (القديم لا يكون قط محلاً للحوادث ، ولا يكون حالاً في المحدَث) [(٤)].

وقال في باب الأسرار : (من قال بالحلول فهو معلول ، فإن القول بالحلول مرض لا يزول ، وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد ، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول) [(٥)].

وقال في باب الأسرار أيضًا : (الحادث لا يخلو عن الحوادث ، ولو حل بالحادثِ القديمُ لصح قول أهل التجسيم ، فالقديم لا يحل ولا يكون محلاًّ)[(٦)].

وقال في الباب التاسع والخمسين وخمسمائة بعد كلام طويل : (وهذا يدلك على أن العالم ما هو عين الحق ، ولا حل فيه الحق ، إذ لو كان عينَ الحق ، أو حلَّ فيه لما كان تعالى قديمًا ولا بديعًا)[(٧)].

(١-٧) الفتوحات المكية للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ، كما في اليواقيت والجواهر ١/٨٠ ، ٨١

وقال في الباب الرابع عشر وثلاثمائة : (لو صحَّ أن يرقى الإنسان عن إِنسانيته ، والمَلَكُ عن ملكيته ، ويتحد بخالقه تعالى ، لصحَّ انقلاب الحقائق ، وخرج الإِله عن كونه إِلهًا ، وصار الحق خلقًا ، والخلق حقًّا ، وما وثق أحد بعلم ، وصار المحال واجبًا ، فلا سبيل إِلى قلب الحقائق أبدًا) [(١)].

وكذلك جاء في شعره ما ينفي الحلول والاتحاد كقوله :

ودعْ مقالةَ قوم قال عالِمُهم ... بأنَّه بالإِله الواحد اتَّحدا .

الاتحادُ مُحالٌ لا يقول به ... إِلا جهولٌ به عن عقلِه شَرَدَا .

وعن حقيقتِه وعن شريعتِه ... فاعبدْ إِلهَك لا تشركْ به أَحَدا .

وقال أيضًا في الباب الثاني والتسعين ومائتين : (من أعظم دليل على نفي الحلول والاتحاد الذي يتوهمه بعضهم ، أن تعلم عقلاً أن القمر ليس فيه من نور الشمس شيء ، وأن الشمس ما انتقلت إِليه بذاتها ، وإِنما كان القمر محلاًّ لها ، فكذلك العبد ليس فيه من خالقه شيء ولا حل فيه) [(٢)].

قال صاحب كتاب نهج الرشاد في الرد على أهل الوحدة والحلول والاتحاد : (حدثني الشيخ كمال الدين المراغي قال : اجتمعتُ بالشيخ أبي العباس المرسي ـ تلميذ الشيخ الكبير أبي الحسن الشاذلي ـ وفاوضْته في هؤلاء الاتحادية ، فوجدته شديد الإنكار عليهم ، والنهي عن طريقهم ، وقال : أتكون الصنعة هي عين الصانع؟!) [(٣)].

وأما ما ورد من كلام السادة الصوفية في كتبهم مما يفيد ظاهره الحلول والاتحاد ، فهو إِما مدسوس عليهم ، بدليل ما سبق من صريح كلامهم في نفي هذه العقيدة الضالة . وإِما أنهم لم يقصدوا به القول بهذه الفكرة الخبيثة والنحلة

(١-٢) الفتوحات المكية للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ، كما في اليواقيت والجواهر ١/٨٠ ، ٨١

(٣) الحاوي للفتاوي في الفقه وعلوم التفسير للعلامة جلال الدين السيوطي ٢/١٣٤

الدخيلة ، ولكن المغرضين حملوا المتشابه من كلامهم على هذا الفهم الخاطئ ، ورموهم بالزندقة والكفر .

أما الراسخون في العلم والمدققون المنصفون من العلماء فقد فهموا كلامهم على معناه الصحيح الموافق لعقيدة أهل السنة والجماعة ، وأدركوا تأويله بما يناسب ما عرف عن الصوفية من إيمان وتقوى .

قال العلامة جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه الحاوي للفتاوي : (واعلم أنه وقع في عبارة بعض المحققين لفظ الاتحاد ، إشارة منهم إلى حقيقة التوحيد ، فإن الاتحاد عندهم هو المبالغة في التوحيد ، والتوحيد معرفة الواحد والأحد ، فاشتبه ذلك على من لا يفهم إشاراتهم ، فحملوه على غير محمله ؛ فغلطوا وهلكوا بذلك . . إلى أن قال : فإذن أصل الاتحاد باطل محال ، مردود شرعًا وعقلاً وعرفًا بإجماع الأنبياء ومشايخ الصوفية وسائر العلماء والمسلمين ، وليس هذا مذهب الصوفية ، وإنما قاله طائفة غلاة لقلة علمهم وسوء حظهم من الله تعالى ، فشابهوا بهذا القولِ النصارى الذين قالوا في عيسى عليه السلام : اتَّحَد ناسوتُهُ بلاهوتِهِ ، وأما مَنْ حفظه الله تعالى بالعناية ، فإنهم لم يعتقدوا اتحادًا ولا حلولاً ، وإن وقع منهم لفظ الاتحاد فإنما يريدون به محو أنفسهم ، وإثبات الحق سبحانه .

قال : وقد يُذْكَر الاتحاد بمعنى فناء المخالفات ، وبقاء الموافقات ، وفناء حظوظ النفس من الدنيا ، وبقاء الرغبة في الآخرة ، وفناء الأوصاف الذميمة ، وبقاء الأوصاف الحميدة ، وفناء الشك ، وبقاء اليقين ، وفناء الغفلة وبقاء الذكر ، قال : وأما قول أبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالى : [سبحاني ، ما أعظم شأني] فهو في معرض الحكاية عن الله ، وكذلك قول من قال : [أنا الحق] محمول على الحكاية ، ولا يُظَنُّ بهؤلاء العارفين الحلول والاتحاد ، لأن ذلك غير مظنون بعاقل ، فضلاً عن المتميزين بخصوص المكاشفات واليقين

والمشاهدات ، ولا يُظَنُّ بالعقلاء المتميزين على أهل زمانهم بالعلم الراجح والعمل الصالح والمجاهدة وحفظ حدود الشرع الغلطُ بالحلول والاتحاد ، كما غلط النصارى في ظنهم ذلك في حق عيسى عليه السلام . وإنما حدث ذلك في الإِسلام من واقعاتِ جهلةِ المتصوفة ، وأما العلماء العارفون المحققون فحاشاهم من ذلك . . إلى أن قال : والحاصل أن لفظ الاتحاد مشترك ، فيطلق على المعنى المذموم الذي هو أخو الحلول ، وهو كفر ، ويطلق على مقام الفناء اصطلاحًا اصطلح عليه الصوفية ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، إذ لا يمنع أحد من استعمال لفظ في معنى صحيح ، لا محذور فيه شرعًا ، ولو كان ذلك ممنوعًا لم يجز لأحد أن يتفوه بلفظ الاتحاد ، وأنت تقول : بيني وبين صاحبي زيد اتحاد .

وكم استعمل المحدِّثون والفقهاء والنحاة وغيرهم لفظ الاتحاد في معان حديثية وفقهية ونحوية .

كقول المحدِّثين : اتحد مخرج الحديث .

وقول الفقهاء : اتحد نوع الماشية .

وقول النحاة : اتحد العامل لفظًا أو معنى .

وحيث وقع لفظ الاتحاد من محققي الصوفية ، فإنما يريدون به معنى الفناء الذي هو محو النفس ، وإِثبات الأمر كله لله سبحانه ، لا ذلك المعنى المذموم الذي يقشعر له الجلد . وقد أشار إلى ذلك سيدي علي بن وفا ، فقال من قصيدة له :

يظنُّوا بي حلولاً واتحادًا وقلبي مِنْ سوى التوحيد خالي .

فتبرأ من الاتحاد بمعنى الحلول ، وقال في أبيات أُخَرَ :

وعلمُك أنَّ كلَّ الأمرِ أمْري هو المعنى المسمى باتحاد .

فذكر أن المعنى الذي يريدونه بالاتحاد إِذا أطلقوه، هو تسليم الأمر كله لله، وترك الإِرادة معه والاختيار، والجريُ على مواقع أقداره من غير اعتراض، وترك نسبة شيءٍ ما إِلى غيره)[1].

ونقل الشعراني عن سيدي علي بن وفا رحمهما الله تعالى قوله: (المراد بالاتحاد حيث جاء في كلام القوم فناء العبد في مراد الحق تعالى، كما يقال: بين فلان وفلان اتحاد، إِذا عمل كل منهما بمراد صاحبه، ثم أنشد:

وعلمُك أنَّ كلَّ الأمرِ أمري ... هو المعنى المسمَّى باتحاد.[2]

وقال العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى في كتابه مدارج السالكين شرح منازل السائرين: (الدرجة الثالثة من درجات الفناء: فناء خواص الأولياء وأئمة المقربين، وهو الفناء عن إِرادة السوى، شائمًا برق الفناءِ عن إِرادة ما سواه، سالكًا سبيل الجمع على ما يحبه ويرضاه، فانيًا بمراد محبوبه منه، عن مراده هو من محبوبه، فضلاً عن إِرادة غيره، قد اتحد مراده بمراد محبوبه، أعني المراد الديني الأمري، لا المراد الكوني القدري، فصار المرادان واحدًا.. ثم قال: وليس في العقل اتحاد صحيح إِلا هذا، والاتحاد في العلم والخبر. فيكون المرادان والمعلومان والمذكوران واحدًا مع تباين الإِرادتين والعلمين والخبرين، فغاية المحبة اتحاد مراد المحب بمراد المحبوب، وفناء إِرادة المحب في مراد المحبوب. فهذا الاتحاد والفناء هو اتحاد خواص المحبين وفناؤهم؛ قد فَنَوْا بعبادة محبوبهم، عن عبادة ما سواه، وبحبه وخوفه ورجائه والتوكل عليه والاستعانة به والطلب منه عن حب ما سواه. ومَنْ تحقق بهذا الفناء لا يحب إِلا في الله، ولا يبغض إِلا فيه، ولا يوالي إِلا فيه، ولا يعادي

---

(١) الحاوي للفتاوي في الفقه وعلوم التفسير والحديث والأصول والنحو والإِعراب وسائر الفنون للعلامة جلال الدين السيوطي صاحب التآليف الكثيرة المتوفى سنة ٩١١هـ ١٣٤/٢

(٢) اليواقيت والجواهر للشعراني ٨٣/١

إلا فيه ، ولا يعطي إلا لله ، ولا يمنع إلا لله ، ولا يرجو إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، فيكون دينه كله ظاهراً وباطنًا لله ، ويكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، فلا يوادُّ من حادَّ الله ورسوله ولو كان أقرب الخلق إليه ، بل يُعادي الذي عادى مِن الناسِ كلِّهم جميعًا ولو كانَ الحبيبَ المصافيا .

وحقيقة ذلك فناؤه عن هوى نفسه، وحظوظها بمراضي ربه تعالى وحقوقه، والجامع لهذا كله تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله علمًا ومعرفة وعملاً وحالاً وقصداً، وحقيقة هذا النفي والإثبات الذي تضمنتْهُ هذه الشهادة هو الفناء والبقاء، فيفنى عن تأله ما سواه علمًا وإقراراً وتعبداً ، ويبقى بتألهه وحده ، فهذا الفناء وهذا البقاء هو حقيقة التوحيد ، الذي اتفق عليه المرسلون صلوات الله عليهم ، وأُنزلت به الكتب ، وخلقت لأجله الخليقة ، وشرعت له الشرائع ، وقامت عليه سوق الجنة ، وأسس عليه الخَلْق والأمر . . إلى أن قال : وهذا الموضع مما غلط فيه كثير من أصحاب الإرادة ، والمعصوم من عصمه الله ، وبالله المستعان والتوفيق والعصمة) [1] .

وقال في موضع آخر : (وإن كان مشمراً للفناء العالي ، وهو الفناء عن إرادة السوى ، لم يبق في قلبه مرادٌ ، يزاحم مراده الديني الشرعي النبوي القرآني ، بل يتحد المرادان ؛ فيصير عين مراد الرب تعالى هو عين مراد العبد ، وهذا حقيقة المحبة الخالصة ، وفيها يكون الاتحاد الصحيح ، وهو الاتحاد في المراد ، لا في المريد ولا في الإرادة) [2] .

ورغم أن ابن تيمية مخاصم للسادة الصوفية ، وشديد العداوة لهم ، فإنه يبرِّئ ساحتهم من تهمة القول بالاتحاد ، ويؤول كلامهم تأويلاً صحيحًا سليمًا .
أما تبرئته لساحتهم ، فقد قال في فتاويه : (ليس أحد من أهل المعرفة بالله ، يعتقد حلول الرب تعالى به أو بغيره من المخلوقات ، ولا اتحاده به ، وإن

(١،٢) مدارج السالكين شرح منازل السائرين ١/٩٠ ، ٩١ للعلامة الشهير ابن قيم الجوزية المتوفى ٧٥١ هـ

سُمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ فكثير منه مكذوب ، اختلقه الأفاكون من الاتحادية المباحية ، الذين أضلهم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية) [1].

وقال أيضًا : (كل المشايخ الذين يُقتدَى بهم في الدين متفقون على ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من أن الخالق سبحانه مباين للمخلوقات ، وليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، وأنه يجب إِفراد القديم عن الحادث ، وتمييز الخالق عن المخلوق ، وهذا في كلامهم أكثر من أن يمكن ذكره هنا) [2].

وأما تأويله لكلامهم فقد قال في مجموعة رسائله : (وأما قول الشاعر في شعره :

أنا مَنْ أهوى ومَنْ أهوى أنا .

فهذا إِنما أراد به الشاعر الاتحاد المعنوي ، كاتحاد أحد المحبّين بالآخر ، الذي يحب أحدهما ما يحب الآخر ، ويبغض ما يبغضه ، ويقول مثل ما يقول ، ويفعل مثل ما يفعل ؛ وهذا تشابه وتماثل ، لا اتحاد العين بالعين ، إِذا كان قد استغرق في محبوبه ، حتى فني به عن رؤية نفسه ، كقول الآخر :

غبتُ بكَ عنِّي فظننْتُ أنَّك أنِّي .

فهذه الموافقة هي الاتحاد السائغ) [3].

من هذه النصوص المتعددة تبين لنا أن كل ما ورد في كلام السادة الصوفية من كلمة [اتحاد] إِنما يراد بها هذا الفهم السليم الذي يوافق عقيدة أهل السنة والجماعة ، ولا يصح أن نحمل كلامهم على معان تخالف ما صرحوا به من

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية قسم التصوف ١١/٧٤ ، ٧٥
(٢) المرجع السابق قسم علم السلوك ١٠/٢٢٣
(٣) مجموع رسائل ابن تيمية صـ ٥٢

تبنِّيهم لعقيدة أهل السنة والجماعة ، وما على المنصف إِلا أن يحسن الظن بالمؤمنين ، ويؤول كلامهم على معنى شرعي مستقيم .

وحدة الوجود

اختلف علماء النظر في موقفهم من العارفين المحققين القائلين بوحدة الوجود ، فمنهم من تسرع باتهامهم بالكفر والضلال ، وفهم كلامهم على غير المراد ، ومنهم من لم يتورط بالتهجم عليهم ، فتثبت في الأمر ورجع إِليهم ليعرف مرادهم ؛ لأن هؤلاء العارفين مع توسعهم في هذه المسألة لم يبحثوا فيها بحثًا يزيل إِشكال علماء النظر ، لأنهم تكلموا في ذلك ودوَّنوا لأنفسهم وتلاميذهم لا لمن لم يشهد تلك الوحدة من غيرهم ، لذلك احتاج الأمر للإِيضاح لتطمئن به قلوب أهل التسليم من علماء النظر .

ومن العلماء الذين حققوا في هذه المسألة ، وفهموا المراد منها السيد مصطفى كمال الشريف ، حيث قال : (الوجود واحد ، لأنه صفة ذاتية للحق سبحانه وتعالى ، وهو واجب فلا يصح تعدده ، والموجود هو الممكن ، وهو العالَمُ فصح تعدده باعتبار حقائقه ، وقيامُه إِنما هو بذلك الوجود الواجب لذاته ، فإِذا زال بقي الوجود كما هو ، فالموجود غير الوجود ، فلا يصح أن يقال الوجود اثنان : وجود قديم ووجود حادث ، إِلا أن يراد بالوجود الثاني الموجود من إِطلاق المصدر على المفعول ، فعلى هذا لا يترتب شيء من المحاذير التي ذكرها أهل النظر على وحدة الوجود القائل بها أهل التحقيق . . إِلى أن قال : الحِسُّ لا يرى إِلا الهياكل أي الموجود ، والروحُ لا تشهد إِلا الوجود ، وإِذا شهدت الموجود فلا تشهده إِلا ثانيًا ، على حدِّ مَنْ قال : ما رأيت شيئًا إِلا ورأيت الله قبله ، وأراد بهذه الرؤية الشهودَ لا رؤية البصر ، لأن الرؤية من خصائص البصر ، والشهود من خصائص البصيرة ، لذلك ورد : أشهد أن لا إِله إِلا الله ، ولم يرد أرى ؛ بل ولا يصح أن يقال : أرى) [(١)].

---

(١) رسالة وحدة الوجود للعلامة مصطفى كمال الشريف صـ٢٧ ، ٢٨

وهكذا شأن العلماء المنصفين ، يغارون على الشريعة الغـراء ، ويتثبَّتـون في الأمور ، دون أن يتسرعوا بتكفير أحد مـن المـؤمنين ، ويرجعـون في فهـم كـل حقيقة إِلى أهل الاختصاص بها .

ونظرًا لأن مسألة وحدة الوجود أخذت حظًّا كبيرًا من اهتمام بعض العلماء ، وشغلت أذهان الكثير منهم ، أردنا أن نزيد الموضوع إِيضـاحًا وتبسـيطًا خدمـة للشريعة وتنويرًا للأفهام فنقول :

إِن الوجود نوعان : وجود قديم أزلي ؛ وهو واجب ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ (الحج:٦٢) . أي الثابت الوجود ، المحَقَّق .

ووجود جائز عرضي ممكن ، وهو وجود من عداه من المُحْدَثات .

وإِن القول بوحـدة الوجـود ، وأن الوجـود واحـد هـو الحـق تعـالى يحتمـل معنيين : أحدهما حق ، والثاني كفر ، ولهذا فالقائلون بوحدة الوجود فريقان :

١- الفريق الأول : أرادوا به اتحاد الحق بالخلق ، وأنه لا شيء في هـذا الوجـود سوى الحق ، وأن الكل هو ، وأنه هو الكل ، وأنـه عـين الأشـياء ، وفي كـل شيء له آية تدل على أنه عينه . . فقوله هذا كفر وزندقة وأشـد ضـلالة مـن أباطيل اليهود والنصارى وعبدة الأوثان .

وقد شدَّد الصوفية النكير علـى قائلـه ، وأفتَـوْا بكفـره ، وحـذَّروا النـاس مـن مجالسـتـه . قال العارف بالله أبـو بـكـر محمد بناني رحمه الله تعـالى : (فاحـذر يا أخي كلَّ الحذر من الجلوس مع من يقـول : مـا ثَـمَّ إِلا الله ، ويسترسـل مـع الهوى ، فإِن ذلك هو الزندقة المحضـة ، إِذ العـارف المحقـق إِذا صـح قدمـه في الشريعة ، ورسخ في الحقيقة ، وتَفَوَّهَ بقوله : ما ثَمَّ إِلا الله ، لم يكـن قصـدهُ مـن هـذه العبـارة إِسـقاطَ الشـرائع وإِهمـال التكـاليف ، حـاش لله أن يكـون هـذا قصده)[1] .

---

(١) مدارج السلوك إِلى ملك الملوك للعارف الكبير محمد بناني المتوفى ١٢٨٤هـ

٢- الفريق الثاني : قالوا ببطلان وكفر ما ذُكِرَ ؛ من أن الخالق عين المخلوق ، وإنما أرادوا بوحدة الوجود وحدة الوجود القديم الأزلي ، وهو الحق سبحانه ، فهو لاشك واحد منزه عن التعدد ، ولم يقصدوا بكلامهم الوجود العرضي المتعدد ، وهو الكون الحادث ، نظراً لأن وجوده مجازي ، وفي أصله عَدَمِيٍّ لا يضر ولا ينفع . فالكون معدوم في نفسه ، هالك فانٍ في كل لحظة . قال تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ (القصص:٨٨) . وإنما يُظهره الإيجاد ، ويُثْبتُه الإمداد . الكائنات ثابتة بإثباته ، وممحوةٌ بأَحدِّيَة ذاته ، وإنما يُمْسكه سر القيومية فيه . وهؤلاء قسمان :

١- قسم أخذ هذا الفهم بالاعتقاد والبرهان ، ثم بالذوق والعَيان ، وغلب عليه الشهود ، فاستغرق في لُجج بحار التوحيد ، ففني عن نفسه فضلاً عن شهود غيره ، مع استقامته على شرع الله تعالى وهذا قوله حق .

٢- وقسم ظن أن ذلك علم لفظي ، فتوغل في تلاوة عباراته ، وتمسَّك بظواهر إشاراته ، وغاب في شهودها عن شهود الحق ، فربما هانت الشريعة في عينيه ، لما يلتذ به من حلاوة تلك الألفاظ ، فيقع على أم رأسه ، ويتكلم بما ظاهره أن الشريعة في جهة يختص بها أهل الغفلة ، والحقيقة في جهة أخرى يختص بها أهل العرفان ، ولَعمري إن هذا لهو عين الزور والبهتان ، وما ثَمَّ إلا شريعةٌ ومقامُ إحسان .

وعلى كلٍّ فالأَوْلى بالصوفي في هذا الزمان أن يبتعد عن الألفاظ والتعابير التي فيها إيهام أو غموض أو اشتباه . . . لئلا يوقع الناس بسوء الظن به ، أو تأويل كلامه على غير ما يقصده ، ولأن كثيراً من الزنادقة والدخلاء على الصوفية قد تكلموا بمثل هذه العبارات الموهمة والألفاظ المتشابهة ، لِيُظْهروا ما يُكِنُّونَه في قلوبهم من عقائد فاسدة ، ولِيصلوا بذلك إلى إباحة المحرمات ، ولِيبرِّرُوا ما يقعون فيه من المنكرات والفواحش ، فاختلط الحق بالباطل ، وأُخِذَ المؤمن الصادق بجريرة الفاسق المنحرف .

لهذا سيَّجَ الصوفية بواطنهم وظواهرهم بالشريعة الغرَّاء ، وأوْصَوْا تلامذتهم بالتمسك بها قولاً وعملاً وحالاً ، فهي عندهم باب الدخول وسلم الوصول ، ومَنْ حاد عنها كان من الهالكين . . . [أما ما ثبت من كلام أعلام الصوفية مما فيه غموض أو اشتباه فمردُّه أحد سببين :

أ- إِما لأنهم التزموا اصطلاحاتٍ ورموزًا وإِشاراتٍ لا يفهمها غيرهم كما أشرنا إِلى ذلك في بحث التأويل .

ب ـ وإِما لأنهم تكلموا بها في حالات الغلبة والشطح ، ولذلك لا يجوز لمن لم يذق مذاقهم ولم يبلغ مراتبهم أن يقلدهم في هذه العبارات ويتشدق بها أمام الناس] .

وختامًا نقول : إِن تلك النقول عن العلماء الأعلام ، وعن الصوفية أنفسهم ، تكشف للقارئ الكريم أن الصوفية مُبَرَّؤون مما نُسب إِليهم من القول بالحلول والاتحاد ، ووحدة الوجود ، وأن كلامهم مؤوَّل على وجه شرعي ، وموافق لما عليه أهل السنة والجماعة ، من العقيدة الصحيحة السليمة ، وأنهم ما نالوا هذه المواهب العرفانية إِلا بالتمسك بالكتاب والسنة ، وأنهم حقيقة رجال السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ الذين تمسكوا بهدي رسول الله ﷺ ، فأفلحوا وتحققوا بالاتباع الكامل له عليه الصلاة والسلام ، فنالوا الرضى من الله تعالى ، وفازوا بسعادة الدارين . **﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾**

(النساء:٦٩) .

بين الصوفية وأدعياء التصوف

لقد شوَّهَ التصوفَ رجالٌ مغرِضونَ تَزَيَّوْا بزيه ، وانتسبوا له ، فأساؤوا إِليه بأقوالهم وأفعالهم وسيرتهم ، والتصوف منهم براء .

فمن أجل خدمة الحق وإِظهاره علينا أن نفرق بين أدعياء التصوف المنحرفين ، وبين السادة الصوفية الصادقين العارفين ، وخصوصًا الأئمة منهم الذين كانت لهم درجات عليا في الإِيمان والتقوى والورع ، وآثار كبرى في نشر الأخلاق والدين والدعوة إِلى الله تعالى في سائر العصور والبلدان ، وعلينا أن نقف وقفة رجل متمسك بشرعه ودينه ونقول : هناك فرق كبير بين التصوف والصوفي ، وليس المتصوف بانحرافه وشذوذه ممثلاً للتصوف ، كما أن المسلم بأفعاله المنكَرة ليس ممثلاً لإِسلامه ودينه .

ومتى كان في شريعة الحق والدين أن يُؤَاخذ الجار بظلم الجار؟ وأن يتحمل الإِسلامُ في جوهره النقي أخطاءَ المسلمين المنحرفين؟ وأن تنسب إِلى هذه الفئة الطيبة النقية أخطاءُ المتصوفة الشاذين؟ .

وإِنكار بعض العلماء على أفعال شاذة منسوبة إِلى الصوفية إِنما يستهدف هؤلاء الغلاة المنحرفين من أدعياء التصوف ، ولطالما حذَّر مرشدو الصوفية الناسَ منهم . قال الشيخ أحمد زروق رحمه الله تعالى في كتابه قواعد التصوف : (فغلاةُ المتصوفة كأهل الأهواء من الأصوليين ، وكالمطعون عليهم من المتفقهين ، يُرَدُّ قولُهم ، ويُجتنَبُ فعلُهم ، ولا يُترَكُ المذهب الحق الثابت بنسبتهم له وظهورهم فيه) [1] إِلخ .

إِن الخير والشر موجود في كل طائفة من الناس إِلى يوم القيامة ، فليس كل الصوفية سواء ، كما أنه ليس كل العلماء والفقهاء والمدرسين والقضاة والتجار والأمراء سواء ؛ إِذ فيهم الصالح وفيهم الأصلح ، وفيهم الفاسد وفيهم الأفسد ، هذا أمر ظاهر لا شبهة فيه عند الجمهور اعرفِ الحقَّ تعرفْ أهلَه ، ويعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال .

---

(١) قواعد التصوف للشيخ أحمد زروق قاعدة ٣٥ ، صـ١٣

ونحن ننكر ما أنكره العلماء على هؤلاء الأدعياء من المتصوفة المنحـرفين ، الشاذين عن دين الله تعالى ، وأمـا المتمسـكون بالكتـاب والسـنة ، المسـتقيمون على شرع الله تعالى فهم الـذين نَعنـيهم ، ونقتفـي أثـرهم ، وسـنعرض لـك في الفصل التالي شهادة علماء الأمة الإِسلامية من سلفها إِلى خلفها بهم .

منهجي في الشرح :

١- اعتمدت على طبعة دار طويق[١] لرسالة ـ الثلاثة الأصول وأدلتها ـ .

٢- تفسير الآيات القرآنية الكريمة .

٣- شرح الأحاديث النبوية الصحيحة .

٤- اعتمدت في تفسير الآيات القرآنية[٢] على كتاب : «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» لابن عجيبة الحسني المالكي .

٥- اعتمدت في شرح الأحاديث النبوية الصحيحة على الكتب الآتية :

- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان الصديقي الشافعي .
- فيض القدير شرح الجامع الصغير لمحمد بن عبد الرؤوف المناوي الشافعي .
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي القاري الحنفي .
- جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب الدمشقي الحنبلي .

٦- عَزَوْتُ الآيات القرآنية إلى سورها .

٧- خَرَّجْتُ الأحاديث النبوية من مصاردها .

أسأل الله العظيم أن ينفع به الإسلام والمسلمين ، وأن يتقبلـه خالصًا لوجهـه الكريم .

---

(١) الرياض ـ المملكة العربية السعودية الطبعة الثالثة ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م .

(٢) في السياق القرآني .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب[1] :

اعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل :

الأولى : العلم ، وهو معرفة الله ، ومعرفة نبيه ، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة .

الثانية : العمل به .

الثالثة : الدعوة إليه .

الرابعة : الصبر على الأذى فيه .

والدليل قوله تعالى : ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ (العصر : ١-٣)

التفسير :

قال ابن عجيبة[2] :

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ **وَٱلۡعَصۡرِ** ﴾ أقسم تعالى بصلاة العصر لفضلها

---

(١) هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (١١١٥-١٢٠٦هـ- ١٧٠٣-١٧٩٢م) : زعيم النهضة الدينية الإصلاحية الحديثة في جزيرة العرب . ولد ونشأ في العيينة (بنجد) ورحل مرتين إلى الحجاز ، فمكث في المدينة مدة قرأ بها على بعض أعلامها ، وزار الشام ، ودخل البصرة فأوذي فيها ، وعاد إلى نجد ، فسكن (حريملاء) وكان أبوه قاضيها بعد العيينة ، ثم انتقل إلى العيينة ، ناهجاً منهج السلف الصالح ، داعياً إلى التوحيد الخالص ونبذ البدع وتحطيم ما علق بالإسلام من أوهام . وله مصنفات أكثرها رسائل مطبوعة ، منها (كتاب التوحيد) ورسالة (كشف الشبهات) و(أصول الإيمان) و (معرفة العبد ربه ودينه ونبيه)، و(فضل الإسلام). انظر : خير الدين الزركلي« الأعلام» (٢٥٧/٦) .

(٢) هو أحمد بن محمد بن المهدي ، ابن عجيبة ، الحسني الأنجري (١١٦٠-١٢٢٤هـ - ١٧٤٧-١٨٠٩م) : مفسر صوفي مشارك من أهل المغرب دفن ببلدة أنجرة (بين طنجة وتطوان) له كتب كثيرة ، منها (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد) ، و(أزهار البستان) بالخزانة الزيدانية بمكناس ، لم يتمه ، في طبقات الأعيان المالكية ، و(شرح القصيدة المنفرجة) و(شرح صلوات ابن مشيش) و(تبصرة الطائفة الزرقاوية) و(الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية) و(الفتوحات القدوسية في شرح المقدمة الآجرومية) جمع فيه بين النحو والتصوف ، و(إيقاظ الهمم في شرح الحكم). انظر : خير الدين الزركلي« الأعلام» (٢٤٥/١) .

الباهر ، إذ قيل : هِي الصلاة الوسطى ، أو : بالعشيِّ الذي هو مابين الزوال والغروب ، كما أقسم بالضُحى ، أو بعصر النبوة ، لظهور فضله على سائر الأعصار ، أو بالدهر مطلقًا ؛ لانطوائه على تعاجيب الأمور النافعة والضارة ، وجوابه : ﴿ **إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ** ﴾ ؛ لفي خسران في متاجرهم ومساعيهم ، وصرف أعمارهم في حظوظهم وأمانيهم . ﴿ **إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ** ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا ، فربحوا وسعدوا ، أو : فإنهم في تجارةٍ لن تبور ، حيث باعوا الفاني الخسيس ، وآثروا الباقي النفيس ، واستبدلوا الباقيات الصالحات بالعاديات الرائحات ، فيا لها من صفقة ما أربحها! وهذا بيان لتكميلهم لأنفسهم ، وقوله تعالى : ﴿ **وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ** ﴾ بيان لتكميلهم لغيرهم ، أي : وصّى بعضُهم بعضًا بالأمر الثابت ، الذي لا سبيل إلى إنكاره ، ولا زوال في الدارين لمحاسن آثاره ، وهو الخير كله ، من الإيمان بالله عزّ وجل ، واتباع كتبه ورسله في كل عقد وعمل ، ﴿ **وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ** ﴾ عن المعاصي التي تُساق إليها النفس الأمّارة ، وعلى الطاعة التي يشق عليها أداؤها ، وعلى البلية التي تتوجه إليه من جهة قهريته تعالى ، وعلى النعمة بالقيام بتمام شكرها ، وتخصيص هذا التواصي بالذكر ، مع اندراجه تحت التواصي بالحق ؛ لإبراز كمال الاعتناء به ، أو : لأن الأول عبارة عن رتبة العبادة ، التي هي فعل ما يُرضي الله عزّ وجل ، والثاني عن العبودية التي هي الرضا بما فعل اللهُ تعالى ، فإنّ المراد ليس مجرد حبس النفس عمّا تتوق إليه من فعلٍ وترك ، بل هو تلقي ما يَرِد منه تعالى بالجميل والرضا ظاهرًا وباطنًا . قاله أبو السعود .

الإشارة : والعصر ، أي : عصر الذاكرين ، إنّ الإنسان لفي خُسر ، حيث احتجب عن ربه بنفسه وبرؤية وجوده ، إلاّ الذين آمنوا إيمان الخصوص ، وعملوا عمل الخصوص ، وهو خرق العوائد واكتساب الفوائد ، حتى وصلوا إلى كشف الحجاب ، فلم يروا مع الله غيره ، غابوا عن أنفسهم ، وعن وجودهم ووجود غيرهم ، في شهود محبوبهم ، فلمّا تكملوا اشتغلوا بتكميل غيرهم ،

كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : بفعل الحق ، وهو ما يثقل على النفس ، حتى لا يثقل عليها شيء ، أو بالإقبال على الحق ، وتواصَوْا على مشاق السير ، ثم على عكوف الهم في حضرة الحق . وبالله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلم .[١]

قال الشافعي رحمه الله تعالى : لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم .

وقال البخاري رحمه الله تعالى : باب العلم قبل القول والعمل ، والدليل قوله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ (محمد:١٩)[٢]

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ أي : إذا علمت أن مدار السعادة ، والفوز بالنعيم في دار البقاء هو التوحيد والطاعة ، ومناط الشقاء والخسران في دار الهوان هو الإشراكُ والعصيان ، فاثبت على ما أنت عليه من التوحيد ، واعلم أنه لا إله في الوجود إلا اللّه ، فلا يستحق العبادة غيره ، ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ وهو ما قد يصدر منه ﷺ من خلاف الأولى ، عبّر عنه بالذنب نظرًا إلى منصبه الجليل ، كيف لا ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين؟ فكل مقام له آداب ، فإذا أخلّ بشيء من آدابه أُمر بالاستغفار ، فلمقام الرّسالة آداب ، ولمقام الولاية آداب ، ولمقام الصلاح آداب ، وضعفُ العبودية لا يقوم بجميع حقوق الرّبوبية ، قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ (الزمر:٦٧)، وبالجملة ، فالقيام بالآداب مع اللّه ـ تعالى ـ على ما يستحقه ـ سبحانه ـ حتى يُحيط العبد بجميع الآداب مع عظمة الربوبية محال عادة ، قال ﷺ مع جلالة

---

(١) تفسير البحر المديد ٨/٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٢) تمام الآية : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ (محمد:١٩).

منصبه : (لا أُحِصى ثناءً عليك ، أنَت كما أثنيتَ على نفسك) [1] فكل ما قَرُب العبد من الحضرة شُدد عليه في طلب الأدب ، فإذا أخذته سِنةٌ أُمر بالاستغفار ، ولذلك (كان ﷺ يستغفر في المجلس سبعين مرة ، أو مائة ، على ما في الأثر) [2].

وقال شيخ شيوخنا ، سيدي عبد الرّحمن الفاسي ، بعد كلام : والحق أن استغفاره ﷺ طلب ثبات المغفرة والستر من الوقوع ، لا طلب العفو بعد الوقوع ، وقد أخبره تعالى بأنه فعل . وقد يُقال : استغفار تعبّد لا غير . قال : والذي يظهر لي أن أمره بالاستغفار مع وعد اللّه بأنه مغفور له إشارة إلى الوقوف مع غيب المشيئة ، لا مع الوعد ، وذلك حقيقة ، والوقوف مع الوعد شريعة . وقال الطيبي : إذا تيقنت أن الساعة آتية ، وقد جاء أشراطها ، فخُذ بالأهم فالأهم ، والأَولى فالأَولى ، فتمسّك بالتوحيد ، ونزّه اللّه عما لا ينبغي ، ثم طهّر نفسك بالاستغفار عما لا يليق بك ، من ترك الأولى ، فإذا صرت كاملاً في نفسك فكن مكملاً لغيرك ، فاستغفر ﴿ **وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ** ﴾ (محمد:١٩) اهـ . أي : استغفر لذنوبهم ، بالدعاء لهم ، وترغيبهم فيما يستدعى غفران ذنوبهم ، وفي إعادة الجار تنبيه على اختلاف متعلّقيه إذ ليس موجبُ استغفاره ﷺ كموجب استغفارهم ، فسيئاته ـ عليه السّلام ـ فرضًا ـ حسناتهم . وفي حذف المضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ـ أي : ولذنب المؤمنين ـ إشعار بعراقتهم في الذنوب ، وفرط افتقارهم إلى الاستغفار . ﴿ **وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ** ﴾ (محمد:١٩) أي : يعلم متقلبكم في الدنيا ، فإنها مراحل لا بد من قطعها ، ويعلم مثواكم في العقبى فإنها مواطن إقامتكم ، فلا يأمركم إلا بما هو خير لكم فيهما ، فبادِروا إلى الامتثال لما أمركم به ، فإنه المهم لكم ، أو : يعلم متقلبكم :

---

(١) صحيح مسلم (٤٨٦) .

(٢) المصدر السابق (٢٧٠٢) .

في معايشكم ومتاجركم ، ومثواكم : حيث تستقرون في منازلكم ، أو متقلبكم : في حياتكم ، ومثواكم : في القبور ، أو : متقلبكم : في أعمالكم الحسنة أو السيئة ، ومثواكم : من الجنة أو النّار ، أو : يعلم جميع أحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها ، فمثله حقيق بأن يُخشى ويُتقى ويُستغفر .

الإشارة: قال القشيري: قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ **فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ** ﴾ ، وكان عالمًا ، ولكن أمره باستدامة العلم واستزادته ، وذلك في الثاني من حاله في ابتداء العلم ، لأن العلم أمر ، ولا يجوز البقاء على الأمر الواحد ، فكل لحظة يأتى فيها علم . ويقال : كان له علم اليقين ، فأُمر بعين اليقين ، أو : كان له عين اليقين ، فأُمر بحق اليقين . ويقال : قال ﷺ : (أنا أعلمكم باللّه وأخشاكم له)[1] فنزلت الآية ، أي : أمر بالتواضع . وهنا سؤال : كيف قال : « فأعلم » ولم يقل ﷺ بعدُ : علمتُ ، كما قال إبراهيم حين قال له : ﴿ **أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ** ﴾ (البقرة:١٣١) ويُجاب : بأن اللّه تعالى أخبر عنه بقوله : ﴿ **ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ** ﴾ (البقرة:٢٨٥) والإيمان هو العلم ، فإخبار الحق ـ تعالى ـ عنه أتم من إخباره عن نفسه بقوله : علمته . ويقال : إبراهيم عليه السّلام لما قال : (أَسْلَمْتُ) ابتلي ، ونبينا ﷺ لم يقل علمت ، فعُوفي ، ويقال : فرق بين موسى ، لمّا احتاج إلى زيادة العلم أُحيل على الخضر ، ونبينا ﷺ قال له : ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ (طه:١١٤)

---

(١) في مسند الإمام أحمد (٢٥٢٦٧) : حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا أبو نوح أنا مالك ابن أنس عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر عن أبى يونس عن عائشة قالت : سأل رجل رسول الله ﷺ وهو قائم على الباب وأنا أسمع قال : أصبح جنباً وأنا أريد الصوم ، قال النبي ﷺ : إني أصبح جنباً ، وأنا أريد الصوم ، قال الرجل : إنى لست كمثلك أنت غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فغضب النبي ﷺ فقال : « إنى أرجو أن أكون أخشاكم للرب عز وجل وأعلمكم بما اتقى ». قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح .

فكم بين مَن أُحيل في استزادة العلم على عبد ، وبين من أمر باستزادة العلم من الحق . ويقال : إنما أمره بقوله : (فَاعْلَمْ) بالانقطاع إليـه من الحظوظ من الخلق ، ثم بالانقطاع منه إليه ، وإذا قال العبد هذه الكلمة على العادة ، والغفلة عن الحقيقة ، وهي نصف البيان فليس لهذا القول كبيرُ قيمةٍ ، وهذا إذا تعجب من شيء فذكر هذه الكلمة ، فليس له قَدرٌ ، وإذا قاله مخلصًا ذاكرًا لمعناها ، متحققًا بحقيقتها ، فإن قاله بنفسه فهو في وطن التفرقة ، وعندهم هذا من الشّركِ الخفي ، وإن قاله بالحق فهو إخلاص ، والعبد أولاً يعلم ربه بدليل وحُجةٍ ، فعلمه بنفسه ضروري ، وهو أصل الأصول ، وعليه ينبنى كلّ علم استدلالي ، ثم تزداد قوةُ علمه بزيادة البيان ، وزيادة الحجج ، ويتناقض علمه بنفسه لغَلبة ذكرِ اللّه بقلبه عليه ، فإذا انتهى لحال المشاهدة ، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه ، صار علمه في تلك الحالة ضروريًّا ، ويقل إحساسه بنفسه ، حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلال ، وكأنه غافلٌ عن نفسه ، أو ناسٍ لنفسه ، ويقال : الذي في البحر غلب عليه ما يأخذه من الرؤية عن ذكر نفسه ، فإذا ركب البحر فرّ من هذه الحالة ، فإذا غرق في البحر فلا إحساس له بشيء سوى ما هو مستغرقٌ فيه مستهلَك اهـ . قلت : لا مدخل للحجج هنا ، وإنما هو أذواق وكشوفات ، فالصواب أن يقول : ثم تزداد قوة علمه ، بزيادة الكشف والذوق ، حتى يغيب عن وجوده ، بشهود معبوده ، فيتناقض علمه ، فيصير علمه باللّه ضروريًّا ، وعلمه بعدم وجوده ضروريًّا ، واللّه تعالى أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ قال الورتجبي عن الجنيد: أي : اعلم حقيقة أنك بنا ولنا وبنا ، عَلِمتنا ، وإياك أن ترى نفسَك فـي ذلك ، فإن خـطـر بـك خـاطـر غـيـرٍ ، فاستغفر من خاطرك ، فلا ذنب ولا خطب أعظم ممن رجع عنـا إلى سـوانا ، ولو في خطرة ونفس . ثم قال عن الأستاذ القشيري : إذا

علمت أنك علمته فاستغفر لذنبك من هذا فإن الحق على جلال قدره أن يعلمه غيره اهـ . قلت : وحاصله : أنّ استغفاره ﷺ ما عسى أن يخطر بباله رؤية وجوده ، كما قال الشاعر :

وجُـــــــودك ذَنـــــــبٌ لا يُقـــــاس بِـــــه ذنـــــبُ .

فلا وجودَ للغيرِ معهُ أصلاً ، فهو الذي عَرف نفسه بنفسه ، ووحَّد نفسه بنفسه ، وقدّس نفسه بنفسه ، وعظّم نفسه بنفسه ، كما قال الهروي رضي اللّه عنه حين سُئل عن التوحيد الخاص :

مـــا وحّـــد الواحـــدَ مـــن واحـــد إذ كـــلّ مـــن وحّـــدهُ جاحـــد .

توحيـــد مـــن ينطـــق عـــن نعتـــه عاريـــــة أبطلـــــها الواحـــــدُ .

توحيـــــدُه إيّـــــاه توحيـــــدُه ونعـــــتُ مـــــن يَنعتـــــهُ لاحـــد . [1]

فبدأ بالعلم قبل القول والعمل . اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة ، تعلم ثلاث هذه المسائل ، والعمل بهن : الأولى : أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً ، بل أرسل إلينا رسولاً ، فمن أطاعه دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار . والدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولاً شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذًا وَبِيلاً ﴾ (المزمل:١٥،١٦)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

﴿ **إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ** ﴾ يا أهل مكة ﴿ **رَسُولاً** ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿ **شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ** ﴾ ؛ يشهد يوم القيامة بما صدر منكم من الكفر والعصيان ، ﴿ **كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولاً** ﴾ وهو موسى عليه السلام ، ﴿ **فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ** ﴾

---

(١) تفسير البحر المديد ٧/١١٨-١٢١ .

الذي أرسلنا إليه ، أي : عصى ذلك الرسول ؛ لأنّ النكرة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأولى . ومحل الكاف النصب على أنها صفة لمصدر محذوف ، أي : أرسلنا إليكم رسولاً فعصيتموه ، كما يعرب عنه قوله تعالى : ﴿ **شَـٰهِدًا** ﴾ إرسالاً كائنًا كإرسال موسى لفرعون ، فعصاه ، ﴿ **فَأَخَذۡنَـٰهُ أَخۡذًا وَبِيلاً** ﴾ ؛ شديدًا غليظًا . وإنما خص موسى وفرعون ؛ لأنّ خبرهما كان منتشرًا بين أهل مكة ؛ لأنهم كانوا جيران اليهود[1] .

الثانيـة : أن الله لا يرضى أن يُشرك معه أحد فـي عبادته لا ملَك مقـرب ولا نبي مرسل . والدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ (الجن:١٨) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ **وَأَنَّ ٱلۡمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ** ﴾ أي : ومن جملة ما أُوحي إليّ : أنّ المساجد ، أي : البيوت المبنية للصلاة فيها هي لله ، وقيل : معناه : ولأنّ المساجد لله ﴿ **فَلَا تَدۡعُواْ** ﴾ ، على أنّ اللام متعلّقة بـ « تدعوا » ، أي : فلا تدعوا ﴿ **مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا** ﴾ في المساجد ؛ لأنها خالصة لله ولعبادته ، فلا تعبدوا فيها غيره تعالى ، ولا تفعلوا فيها إلا ما هو عبادة . وقيل : المراد : المسجد الحرام ، والجمع ؛ لأن كل ناحية منه مسجد له قبلة مخصوصة ، أو لأنه قبلة المساجد ، وقيل : الأرض كلها ؛ لأنها جُعلت للنبي ﷺ مسجدًا وطهورًا[2] ، وقيل : أعضاء السجود السبعة التي يسجد عليها العبد ، وهي : القدمان ، والركبتان ، واليدان ، والوجه[3] ، يقول : هذه الأعضاء أنعم الله بها عليك ، فلا تسجد عليها

---

(١) تفسير البحر المديد ١٦٧/٨ .

(٢) صحيح البخاري (٣٢٨) (٤٢٧) وفيه : فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ...، صحيح مسلم (٥٢١) (٥٢٣) .

(٣) صحيح البخاري (٧٧٦) ، صحيح مسلم (٤٩٢) .

لغيره ، فتجحد نِعَمه ، ولا تذلها لغير خالقها . فإن جعلت المساجد المواضع ، فواحدها مسجِد بكسر الجيم ، وإن جعلت الأعضاء ، فبفتح الجيم[1] .

الثالثه : أن من أطاع الرسول ووحّد الله لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله ، ولو كان أقرب قريب . والدليل

قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (المجادلة:٢٢)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ **لَّا تَجِدُ** ﴾ أيها الرسول ، أو : كل مَن يسمع ﴿ **قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ** ﴾ أي : خالفه ﴿ **وَرَسُولَهُۥ** ﴾ أي : عاده ، أي : لا تجد قومًا مؤمنين يُوالون المشركين ، أي : لا ينبغي أن يكون ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال ، مبالغة في الزجر عن موالاة أعداء الله ، والاحتراز عن مخالطتهم ومعاشرتهم ، وزاد ذلك الأمر تأكيدًا وتشديدًا بقوله : ﴿ **وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ** ﴾ أي : لو كان مَن حادّ الله ورسولَه مِن أقرب الناس إليه ، فإنَّ قضية الإيمان بالله تعالى أن يهجر كُلَّ مَن حادَ عنه بالمرة ، وهذه حال أهل الصدق في الإيمان ، ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يُقاتلون آباءهم وأبناءهم وإخوانهم ، فقد قَتَلَ أبو عبيدة بنُ الجراح أباه ، وأتى برأسه للنبي ﷺ ،

---

(١) تفسير البحر المديد ١٥٩/٨ .

طاعةً لله ورسوله ، وقال سعدُ بن أبي وقاص : كنتُ جاهدًا على قتل أخي عُتبة ، يوم بدر . وفيهم نزلت الآية . والجمع باعتبار معنى «مَن» كما أنّ الإفراد فيما قبله باعتبار لفظها . ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ** ﴾ الموصوفون بما ذكر ، وما فيه من معنى البُعد لرفع درجتهم في الفضل ، وهو مبتدأ خبره : ﴿ **كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ** ﴾ أي : أثبته فيها ، وفيه دلالة على خروج الأعمال مِن مفهوم الإيمان ، فإنَّ جزء الثابت في القلب ثابت فيه ، ولا شيء من أعمال الجوارح يثبتُ فيه . ﴿ **وَأَيَّدَهُم** ﴾ أي : قوّاهم ﴿ **بِرُوحٍ مِّنۡهُ** ﴾ أي : من عنده تعالى ، وهو نور اليقين ، أو : القرآن ، أو : النصر على العدو ، ويجوز أن يكون الضمير للإيمان ، أي : بروح من الإيمان ، على أنه في نفسه روح لحياة القلوب به . وعن الثوريِّ : أنهم كانوا يَرَوْنَ أنها نزلت فيمن يصحب السلطان ، أي : ويُداهنه ولا ينصحه . وقال سهل : مَن صحّح إيمانه ، وأخلص توحيده ، لا يأنس بمبتدِع ، ولا يُجالسه ، ويظهر له من نفسه العداوة ، ومَن داهن مبتدِعًا سلبه الله حلاوةَ السنن ، ومَن أجابه لطلب عزِّ الدنيا ، أو عَرضها ، أذلَه الله بذلك العزّ ، وأفقره بذلك الغنى ، ومَن ضحك إلى مبتدع نزع الله نورَ الإيمان من قلبه ، ومَن لم يصدّق فليجرب . اهـ من النسفي . ثم بيّن ما يتحفهم به في الآخرة ، بعد بيان ما أكرمهم به في الدنيا ، بقوله : ﴿ **وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا** ﴾ أبد الآبدين ، ﴿ **رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ** ﴾ لتوحيدهم الخالص وطاعتهم ، ﴿ **وَرَضُواْ عَنۡهُ** ﴾ لثوابه الجسيم في الآخرة ، وبما قضى بهم في الدنيا ، وهو بيان لابتهاجهم بما أوتوه عاجلاً وآجلاً . ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِ** ﴾ أنصار حقّه ، ورعاة خلقه ، وهو بيان لاختصاصهم به ـ عزّ وجل ـ وفي مقابلة اختصاص حزب الشيطان به . وقوله تعالى : ﴿ **أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ** ﴾ بيان لاختصاصهم بالفوز بسعادة النشأتين ، أي : هم الباقون في النعيم المقيم ، الفائزون بكل محبوب ، الآمنون من كل مرهوب .

الإشارة : لا تجد قومًا يريدون تحقيق الإيمان وخلوص العرفان يُوادون أهلَ الغفلة والعصيان ، ولو كانوا من أقرب الناس إليهم ، فالأخ الحقيقي والصاحب الخالص هو الذي يوافقك في النسبة ، ويرافقك على الطاعة ، ويُغيِّبك عن مواطن الغفلة ، وأمَّا مَن يجرك إلى الغفلة فلا نسبة بينك وبينه ، ولو كان أبًا أو أمًّا أو أخًّا شقيقًا . وقد تقدّم الكلام على المسألة في قوله تعالى : ﴿ **ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ** ﴾ (الزخرف:٦٧) . قال القشيري : مَن جَنَحَ إلى منحرفٍ في دينه ، أو داهَنَ مبتدعًا في عقده ، نَزَعَ اللهُ نورَ التوحيد من قلبه ، فهو في حياته جانٍ على عقيدته ، سيذوق قريبًا وَبَال أمره ، وإنَّ الأولياء كتب الله الإيمانَ في قلوبهم وأثبته . ويقال : جعل قلوبهم مُطرّزةً باسمه ، وأعْزِزْ بحُلة أسرار قومٍ ، طِرازُهم اسم «الله» عزّ وجل!! . اهـ . وقال الورتجبي : (لا تجد قومًا يؤمنون بالله . . .) إلخ ، أي : آثروا اللّهَ على مَن دونه ، وذلك بأنّ الله غرس أشجار التوحيد والمعرفة في قلوبهم ، وتجلّى لأرواحهم بنفسه ، فصار معنى حقيقة التجلّي منقوشًا في نفس أرواحهم وعقولهم . اهـ . وقوله تعالى : (وأيَّدهم بروح منه) قال في الحاشية الفاسية : هو مقام الشهود والتجلّي العياني ، وهو حقيقة السر عند القوم ، وهو علم يمتد ظله في الأرواح المواجَهة على حسب قابليتها واستعدادها ، كما خصصتها المشيئة الإلهية ، وهو التعليم الإلهامي للأولياء ، والتنزُّل الوحيي للأنبياء عليهم السلام . وعن ذلك الإمداد عُبر بالنفخ والإلقاء ، وباعتبار حياة الروح به وقوتها سُمي رُوحًا ، وإضافته إلى الله تعالى لأنه مقتبس من نور أوصافه ، ومثالٌ انفعالي عن علمه ، وآثارٌ عن قدرته وكلامه ، وبالجملة فالعلم الحقيقي الذاتي لله ، وكذا سائر صفاته ، والعلم العرضي المثالي الانفعالي لمَن خصّ سبحانه من عباده ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء ، ﴿ **أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً** ﴾ وكما أن الصُور المنطبعة في المرآة الصقيلة آثار ناشئة منها ، وحادثة من مواجهة الصور الحسية ، كذلك العلوم الممتدة في الأرواح المواجَهة ، ظلال وآثار عارضة ، منفعلة حادثة من حضرة الوجود الحقيقي ، والعلم الذاتي ،

وهذا واضح لا شك فيه . والله الموفق . وقال الورتجبي : وأيّدهم بتجلّي ذاته لأرواحهم ، وما وفقهم في الصفات ، بل أغرقهم في بحر الذات . اهـ . وقوله تعالى : ﴿ **أُوْلَـٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِ** ﴾ قال سهل : الحزب : الشيعة ، وهم الأبدال : وأرفع منهم الصدِّيقون . وقال بعضهم : حزب الله ، إذا نطقوا بهروا ، وإن سكتوا ظهروا ، وإن غابوا حضروا ، وإن ناموا سهروا . اهـ . وقال ابن عطاء : إنّ لله عبادًا اتصالُهم به دائم ، وأعينهم به قريرة أبدًا ، لا حياة لهم إلاّ به ؛ لاتصال قلوبهم به ، والنظر إليه بصفاء اليقين ، فحياتهم بحياته موصولة ، لا موت لهم أبدًا ، ولا صبر لهم عنه ، لأنه قد سبى أرواحهم به ، فعلّقها عنده ، فثمَّ مأواها ، قد غشي قلوبهم من النور ما أضاءت به ، فأشرقت ، ونما زيادتها على الجوارح ، وصاروا في حِرز حماية ، أولئك حزب الله . وقال أبو عثمان : حزب الله مَن يغضب في الله ، ولا يأخذه فيه لومة لائم . جعلنا الله ممن تحقّق بجميع هذه الأوصاف بمنّه وكرمه . آمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .[١]

اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم ، أن تعبد الله مخلصًا له الدين ، وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ** ﴾ (الذاريات:٥٦) أي : إلا لنأمرهم بالعبادة والخضوع لربوبيتي ، لا لنستعين بهم على شأنٍ من شؤوني ، كما هي عادة السادات في كسب العبيد ، ليستعينوا بهم على أمرٍ الرزق والمعاش ، ويدلُ على هذا التأويل : قوله تعالى : ﴿ **مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ** ﴾ (الذاريات:٥٧) ، قال ابن المنير : إلا لآمرهم بعبادتي ، لا لطلب

---

(١) تفسير البحر المديد ٧/٣٥٠-٣٥٢ .

رزقٍ لأنفسهم ، ولا إطعام لي ، كما هو حال السادات من الخلق مع عبيدهم ، بل الله هو الذي يرزق ، وإنما على عباده العبادة له لأنهم مُكلفون ، ابتلاءً وامتحانًا ، أما الإرادة فكما تعلقت بالعبادة تعلقت بما يخالفها ، لقوله ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ (الأعراف:١٧٩) . اهـ . وقيل المعنى : ما خلقهم إلا مستعدين للعبادة ، متمكنين منها أتم استعداد ، وأكمل تمكن ، فمنهم مَن أطاع ، ومنهم مَن كفر ، وهو كقولهم : البقر مخلوقة للحرث ، أي : قابلة لذلك ، وقد يكون فيها مَن لا يحرث . والحاصل : أنه لا يلزم من كون الشيء مُعدًّا لشيءٍ أن يقع منه جميع ذلك . أو : ما خلقتهم إلا ليتذللوا لي ، ولقدرتي ، وإن لم يكن ذلك على قواعد شرع ، وهذا عام في الكل ، طوعًا أو كرهًا ، إذ كل ما خلق مُنقاد لقدرته وقهريته ، عابد له بهذا المعنى . وفي البخاري : وما خلقت أهل السعادة من الفريقين إلا ليُوحّدون . وقال بعضهم : خلقهم ليفعلوا ، ففعل بعضٌ وترك بعضٌ . وليس فيه حجة لأهل القدر . اهـ . والمراد بأهل القدر : المعتزلة ، القائلون بأن الله تعالى لم يُرد الكفر والمعاصي ، وهو باطل ، وسيأتي في الإشارة بقية تحقيق إن شاء الله .

الإشارة : اعلم أن الحق ـ جل جلاله ـ إنما بعث الرسلَ بإظهار الشرائع ، ليحوشوا العباد إلى الله ، ويدعوهم إليه كافة ، ويأمروهم بالتبتُّل والانقطاع ، من غير التفات لمَن سبق له السعادة والشقاء ؛ لأن ذلك من سر القدر ، وغيب المشيئة لا يجوز كشفه في حالة الدعوة ، فقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦) هذا ما يمكن الأمر به في ظاهر الأمر ، ويُؤمر بإظهاره في حالة الدعوة ، وكون الحق تبارك وتعالى أراد من قوم الكفر والمعاصي من غيب المشيئة ، وسر القدر لا يقدح في عموم الدعوة التي تعلقت بالظواهر ؛ لأنه من قبيل الحقيقة ، وما جاءت الرسل إلا بالشريعة ، فالدعاة إلى الله يُعممون الدعوة ، ويُحرِّضون على التبتُّل والانقطاع إلى الله ، وينظرون

إلى ما يبرز من غيب المشيئة . وقال الورتجبي : عن جعفر الصادق ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦) أي : ليعرفوني . اهـ . ومداره قوله ﷺ فيما يحكيه عن رب العزة : (كنت كنزًا مخفيًّا لم أُعرف ، فأحببتُ أن أُعرف ، فخلقت الخلق لأعرف) [(١)] أي : ما أظهرت الخلق إلا لأُعرف بهم ، فتجليت بهم في قوالب العبودية ، لتظهر ربوبيتي في قوالب العبودية ، فتظهر قدرتي وحكمتي ، فسبحان الحكيم العليم . قال أبو السعود : ولعل السر في التعبير عن المعرفة بالعبادة للتنبيه على أن المعتَبر هي المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى ، لا ما يحصل بغيرها ، كمعرفة الفلاسفة .هـ . قلت : وكل معرفة وحقيقة لا تصحبها شريعة لا عبرة بها ، بل هي زندقة أو دعوى . وبالله التوفيق[(٢)] .

ومعنى (يَعْبُدُونِ) يوحدون ، وأعظم ما أمر الله به : التوحيد وهو إفراد الله بالعبادة[(٣)] وأعظم ما نهى عنه : الشرك ، وهو دعوة غيره[(٤)] معه .

والدليل قوله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ (النساء:٣٦) [(٥)].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ** ﴾ أي : وَحدُوه وأطيعوه ﴿ **وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا** ﴾ جليًّا أو خفيًّا في اعتقادكم أو في عبادتكم ، فمن

---

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة(٦٠٢٣) : لا أصل له اتفاقاً .

(٢) تفسير البحر المديد ٢١٦/٧ ، ٢١٧ .

(٣) وإفراده في الملك ، وفي الخلق والتدبير ، وفي التشريع ، وفي أسمائه وصفاته .

(٤) ربًّا وإلهًا .

(٥) تمام الآية : ﴿ **وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا** ﴾ (النساء:٣٦)

قصد الحج والتجارة ، فقد أشرك مع الله في عبادته ، وأحسنوا بالوالدين إحسانًا حسنًا ، وهو برهما والقيام بحقهما ، ﴿ وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ ، أي : القرابة في النسب ، أو الدين ﴿ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ لضعف حالهم ، ﴿ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾ لقلة ما بيدهم ، وقد شكى بعض الناس قساوة قلبه ، فقال له عليه الصلاة والسلام : (إن أردت أن يلين قلبك ، فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم ، وأطعمه) . ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (النساء:٣٦) الذي قَرُب جواره أو نسبه ، ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ الذي بَعُد مكانه أو نسبه ، وحدّد بعضُهم الجوار بأربعين دارًا من كل ناحية . وقال ابن عباس : الجار ذي القربى : الجار الذي بينك وبينه قرابة ، والجار الجنب : الجار من قوم آخرين . اهـ . قيل يا رسول الله : ما حق الجار على الجار قال : (إن دعاك أجبتَه ، وإن أصابته فاقةٌ عُدت عليه ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن مرض عُدته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، وإن توفى شهدت جنازته ، ولا تستعل عليه بالبنيان لتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه بقُتار قدرك ـ أي : بخارها ـ إلا أن تغرف له منها ، وإن ابتعت فاكهة فأهد له منها ، فإن لم تفعل فأدخلها سرًّا ، ولا يخرج ولدك منها بشيء فيغيظ ولده) ثم قال : (الجيران ثلاثة : فجارٌ له ثلاثة حقوق : حق الجوارِ ، وحق القرابة ، وحق الإسلام ، وجار له حقان : حق الجِوار ، وحق الإسلام ، وجارٌ له حق واحد : وهو المشرك من أهل الكتاب) [(١)] . ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ ، وهو الرفيق في أمر حسن ، كتعلم وتصرف وصناعة وسفر ، فإنه صحبك بجنبك ، وعن علي ـ كرم الله وجهه ـ (أنها الزوجة) ، فيتأكد في حقها الإحسان زيادة على المعاشرة بالمعروف ، قال بعضهم : أول قدم في الولاية كف الأذى وحمل الجفا ، ومعيار ذلك حسن معاشرة الأهل والولد ، وقال ـ عليه الصلاة السلام ـ : (خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائي) [(٢)] ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ،

---

(١) مسند الشاميين للطبراني(٢٢٣٠) قال محققه : حمدي عبد المجيد السلفي : رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق وسويد بن عبد العزيز وعثمان بن عطاء ضعيفان .

(٢) سنن ابن ماجه (١٦٠٩) قال الألباني : صحيح .

وهو الضيف أو المسافر لغرابته ، ﴿ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ ﴾ ، من الإماء والعبيد ، وكان آخرُ كلام النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ : (الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم) [١] . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالاً فَخُورًا ﴾ أي : متكبرًا ، يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم ، ﴿ فَخُورًا ﴾ يتفاخر عليهم بماله وجاهه ، وما خوله الله من نعمه ، فهو جدير أن تسلب منه .

الإشارة : واعبدوا الله ، أي : بالقيام بوظائف العبودية ، ومشاهدة عظمة الربوبية ، وقال بعض الحكماء : العبودية : ترك الاختيار ، وملازمة الذل والافتقار . وقيل : العبودية أربعة أشياء : الوفاء بالعهود ، والحفظ للحدود ، والرضا بالموجود ، والصبر على المفقود ، وعنوان ذلك صفاء التوحيد ، ولذلك قال : ﴿ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔا ﴾ أي : لا تَرَوْا معه غيره ، كما قال القائل :

مُـــذْ عرفـــتُ الإلـــه لم أرَ غـــيرًا … وكَـــذا الغـــيرُ عِنـــدنا ممنـــوعُ .

وقال آخر : (لو كُلفت أن أرى غيره ، لم أستطع ، فإنه لا غير معه حتى أشهده) . فإذا حصلت العبودية في الظاهر ، وتحقق التوحيد في الباطن ، ظهرت عليه مكارم الأخلاق فيُحسن إلى الأقارب والأجانب ، ويجود عليهم بالحس والمعنى ، لأن الفتوة من شأن أهل التوحيد ، ومن شيم أهل التجريد ، كما هو معلوم من حالهم ، نفعنا الله بذكرهم ، وخرطنا في سلكهم . آمين . قال الورتجبي : (الوالدين) : مشايخ المعرفة . ثم نقل عن الجنيد ، أنه قال : أمرني أبي أمرًا ، وأمرني السرى أمـرًا . فقدمت أمر السري على أمر أبي ، وكل ما وجدت فهو من بركاته . اهـ . وذوو القربـى هـم الأخـوة فـي الشيخ ، ﴿ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ ﴾ : من قصدهم من المتفقرة الجاهلة ، ﴿ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ ﴾ : ضعفاء اليقين من العامة ، أمر الله تعالى أهل الخصوصية بالإحسان إليهم والبرور بهم ، وهو أن يقرهم في طريقهم ، ويحوشهم إلى ربهم . ﴿ وَٱلۡجَارِ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ وهو جارك في السكنى وأخوك في النسبة ، فيستحق عليك زيادة الإحسان . ﴿ وَٱلۡجَارِ

(١) سنن أبي داوود (٥١٥٦) قـال الألـباني : صحيح .

﴿ ٱلۡجُنُبِ﴾ : من جاورك من العوام فتنصحه وترشده ، **﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾** : من رافقك في أمر من العوام ، كسَفرٍ وغيره ، **﴿ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾** : من نزل بأهل الخصوصية من الأضياف ، فلهم حق الضيافة عليهم حسًّا ومعنًى ، **﴿ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ﴾** : مالكم تصرف عليهم من الأهل والبنين والإماء والعبيد ، فتقربونهم إلى حضرة الملك المجيد ، ثم أمرهم بالتواضع والإقبال على الخاص والعام . فقال : **﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالاً فَخُورًا ﴾** . والله تعالى أعلم[(١)].

فإذا قيل لك : ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها؟ فقل: معرفة العبد ربه ، ودينه ، ونبيه محمد ﷺ . فإذا قيل لك : من ربك؟ فقل : ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه ، وهو معبودي ليس لي معبود سواه. والدليل قوله تعالى : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾(الفاتحة:٢)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله مُعلّما لعباده كيف يُثنونَ عليه ويعظمونه ثم يسألونه : يا عبادي قولوا : **﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾** أي : الثناء الجميل إنما يستحقه العظيم الجليل ، فلا يستحق الحمد سواه ، إذ لا منعم على الحقيقة إلا اللّه ، **﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾** (النحل:٥٣). أو جميع المحامدِ كلّها للّه ، أو الحمدُ المعهودُ في الأذهان هو حمدُ اللّه تعالى نفسَه في أزله ، قبل أن يوجِد خلقَه ، فلما أوجد خلقه قال لهم : الحمد للّه ، أي : احمدوني بذلك الحمد المعهود في الأزل ، وإنما استحق الحمد وحده لأنه **﴿ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾** ، وكأن سائلاً سأله : لم اختصصت بالحمد؟ فقال : لأني ربّ العالمين ، أنا أوجدتُهم برحمتي ، وأمددتهم بنعمتي ، فلا منعم غيري ، فاستحققت الحمد وحدي ، مِنّي كان الإيجاد وعليّ توالى الإمداد ، فأنا ربّ العباد ، فالعوالم كلها ـ على تعدد أجناسها واختلاف أنواعها ـ في قبضتي وتحت تربيتي ورعايتي ...

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/٤٥ ، ٤٤ .

الإشارة : لما تجلّى الحق سبحانه من عالم الجبروت إلى عـالم الملكـوت ، أو تقول : من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، حمد نفسه بنفسـه ، ومجّـد نفسـه بنفسه ، ووحّد نفسه بنفسه ، ولله درّ الهروىّ ، حيث قال :

مـا وحّـد الواحـد مـن واحـدٍ إذ كـلّ مـن وحّـدهُ جاحـد .

توحيـدُ مـن ينطـقُ عـن نعتـهِ عاريـةٌ أبطلـها الواحـد .

توحيـدُه إيـاه توحيـدُه و نعـتُ مـن ينعتـه لاحِـد .

فقال في توحيد نفسه بنفسه مترجمًا عن نفسه بنفسه : ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ ، فكأنه يقول في عنوان كتابه وسر خطابه : أنا الحامد والمحمود ، وأنا القائم بكل موجود ، أنا رب الأرباب ، وأنا مسبب الأسباب لمن فهم الخطاب ، أنا رب العالمين ، أنا قيوم السموات والأرضِين ، بل أنا المتوحدُ في وجودي ، والمتجلّي لعبادي بكرمي وجودي ، فالعوالم كلها ثابتة بإثباتي ، ممحُوّة بأحدية ذاتي . قال رجل بين يدى الجنيد : ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ** ﴾ ولم يقل : ﴿ **رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ ، فقال له الجنيد : كَمّلها يا أخي ، فقال الرجل : وأىّ قَدر للعالمين حتى تُذكر معه؟! فقال الجنيد : قُلها يا أخي فإن الحادث إذا قُرن بالقديم تلاشى الحادثُ وبقي القديم . يقول سبحانه : يا من هو مني قريب ، تَدبر سرّى فإنه غريب ، أنا المحبُّ ، وأنا الحبيب ، وأنا القريب ، وأنا المجيب ، أنا الرحيم الرحمن ، وأنا الملك الديان ، أنا الرحمن بنعمة الإيجاد ، والرحيم بتوالي الإمداد ، منّي كان الإيجاد ، وعليّ دوام الإمداد ، وأنا رب العباد ، أنا الملك الدّيان ، وأنا المجازي بالإحسان على الإحسان ، أنا الملك على الإطلاق ، لولا جهالة أهل العناد والشقاق ، الأمر لنا على الدوام ، لمن فهم عنا من الأنام . قال في الرسائل الكبرى[1] : لا عبرة بظواهر الأشياء ، وإنما العبرة بالسر

---

(١) قال محققه عمر أحمد الراوي : الرسائل الكبرى : لمحمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي الشاذلي المتوفى سنة٧٩٢ هـ ، شارح« الحكم العطائية » (انظر كشف الظنون ١/٦٧٥) .

المكنون ، وليس ذلك إلا بظهور الحق وارتفاع غِطائه وزوال أستاره وخفائه ، فإذا تحقق ذلك التجلي والظهور ، واستولى على الأشياء الفناء والدُّثُور ، وانقشعت الظلمات بإشراق النور ، فهناك يبدو عينُ اليقين ويحِق الحق المبين ، وعند ذلك تبطل دعوى المدعين ، كما يفهم العامة بطلان ذلك في يوم الدين ، حين يكون الملك للّه رب العالمين ، وليت شعري أي وقت كان الملكُ لسواه حتى يقع التقييد بقوله : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ (الحج:٥٦) ، وقوله : ﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ (الانفطار:١٩) ؟! لولا الدعاوى العريضة من القلوب المريضة[(١)].

وكل من سوى الله عالم ، وأنا واحد من ذلك العالم .

فإذا قيل لك : بم عرفت ربك ؟ فقل بآياته ومخلوقاته ، ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، ومن مخلوقاته السموات السبع ، والأرضون السبع ، ومن فيهن وما بينهما . والدليل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (فصلت:٣٧) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ﴾ الدالة على وحدانيته : ﴿ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ ﴾ في تعاقبهما على حدّ معلوم ، وتناوبهما على قدرٍ مقسوم ، ﴿ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ في اختصاصهما بسير مقدّر ، ونور مقرّر إذ لا يصدر ذلك إلا من واحد قهار . ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ فإنهما مخلوقان مثلكم ، وإن كثرت منافعهما ، ﴿ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ أي : الليل والنهار والشمس والقمر . وحكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث في الضمير ، تقول : الأقلام بريتها وبريتهنّ . ولعلّ ناسًا من المشركين كانوا

---

(١) تفسير البحر المديد ١/٣٠-٣٣ .

يسجدون للشمس والقمر ، تبعًا للصّابئين من المجوس في عبادتهم الكواكب ، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لها السجود للّه ـ تعالى ـ فنُهوا عن هذه الواسطة ، وأُمِروا أن يقصدوا بسجودهم وَجهَ اللّه وحده ، إن كانوا موحدين ، ولذلك قال : ﴿ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ فإن السجود أقصى مراتب العبادة ، فلابد من تخصيصه به سبحانه . . .

الإشارة : الليل والنهار والشمس والقمر خَلقَهن من أجلك ، فعارٌ عليك أن تخضع لما خُلق لك ، وتترك المُنعم بها عليك . قال القشيري : الحق ـ سبحانه ـ يأمرك بصيانة وجهك عن الشمس والقمر مع علوهما ، وأنت لأجلِ حظّ خَسيس تنقل قَدمك إلى كلّ أحدٍ ، وتذل وجهك لكل أحد . اهـ . وأما الخضوع لمَن أمر الله بالخضوع له من الدعاة إلى الله فهو من الخضوع لله ، كأمر الملائكة بالسجود لآدم ، وكأمره بالخضوع للأنبياء والأولياء ، فكان مآل من سجد وخضع التقريب ، ومآل مَن استكبر وأنف الطرد والبُعد ، والله تعالى غني عن الكل ، ولذلك قيل : (فإن استكبروا . .)الآية . . . [(١)]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾

(الأعراف:٥٤)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ﴾ الذي يستحق أن تعبدوه ، هو ﴿ ٱللَّهُ ﴾ وحده ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ أي : أظهرهما ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أي : مقدار ستة أيام من أيام الدنيا إذ لم يكن ثمّ شمس ، ولو شاء

---

(١) تفسير البحر المديد ٣٤٧/٦ ، ٣٤٨ .

خلقهن في لمحة ، والعدول إليه لتعليم خلقه التأني والتثبت . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ استواء يليق به ، والعرش : جسم عظيم محيط بالأكوان . سمي به لارتفاعه ، وللتشبيه بسرير الملك ، فالأكوان في جوفه ممحوقة فقد استولى عليها ومحقها ، كذلك أسرار معاني الربوبية الأزلية قد استولت عليه ومحقته ، فيمكن أن يكون الحق تعالى عبّر بالاستواء عن هذا الاستيلاء ، وسيأتي في الإشارة تمامه إن شاء الله . وقال القشيري : ثم استوى على العرش ، أي : تَوحّد بجلال الكبرياء بوصف الملكوت ، وملوكنا إذا أرادوا التجلّي والظهور للحَشم والرعية برزوا لهم على سرير مُلكهم في إيوان مشاهدتهم . فأخبر الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بما يَقرب من فهم الخلق ، بما ألقي إليهم من هذه الكلمات ، بأنه استوى على العرش ، ومعناه : اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية ، وانفراده بنعت الجبروت وجلاء الربوبية ، وتقدّس الجبّارُ عن الأقطار ، والمعبودُ عن الحدود . اهـ . ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ أي : يُغطي نور النهار بظلمة الليل ، ﴿ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ أي : يعقبه سريعًا كالطالب له ، لا يفصل بينهما شيء ، (وَ) خلق ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ أي : بقضائه وتصريفه ، ومن عجائِب تسخيرها أن جعلها مقرونة بأُمور غيبية ، دالة على ظهور شيء منها . والنهي عن النظر في النجوم أو تصديق المنجمين إنما هو لمن اعتقد التأثير لها مستقلة بنفسها ، أو تصديقهم في تفصيل ما يخبرون به لأنهم إنما يقولون ذلك عن ظن وتخمين وجهل ، فإنّ عِلم النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء ، ثم اندرس ذلك العلم ، فلم يبق إلا ما هو مختلط ، لا يتميز فيه الصواب من الخطأ ، فاعتقاد كون الكواكب أسبابًا لآثار يخلق الله ـ تعالى ـ بها في الأرض ، وفي النبات والحيوان شيئًا ، يعني في الجملة ليس قادحًا في الدين ، بل هو الحق ، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل : قادح في الدين ، فالكواكب ما خُلقت عبثًا ، ولهذا نظر عليه الصلاة والسلام إلى

السماء ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴾ (آل عمران:١٩١) الآية[1]. انظر : الإحياء للغزالي . ثم قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ أي : الإيجاد والتصرف بالأمر والنهى ، ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي : تعاظم في ألوهيته ، وتعالى في ربوبيته ، وتفرد في وحدانيته . قال البيضاوي : (و تحقيق الآية ـ والله أعلم ـ أن الكفرة كانوا متخذين أربابًا ، فبيّن لهم أن المستحق للربوبية واحد ـ وهو الله تعالى لأنه الذي له الخلق والأمر ، فإنه تعالى خلق العالَم على ترتيب قويم ، وتدبير حكيم فأبدع الأفلاك العلوية ، والأجرام السفلية ، ثم بعد تمام خلق عالَم الملك أخذ في تدبيره كالملِك الجالس على عرشه وسريره لتدبير مملكته ، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب ، وتكوير الليالي والأيام ، فله الخلق والأمر . وكذلك قال في آية السجدة بعد ذكر الخلق : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ (السجدة:٤) ، فربّ الخلائق : مَن هذا صفته ، لا غيره ، انتهى بالمعنى .

الإشارة : قوله تعالى : ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ : قال الورتجبي : في كل يوم من هذه الأيام : ظهور صفة من صفاته الست : أولها : العلم ، والثاني : القدرة ، والثالث : السمع ، والرابع : البصر ، والخامس : الكلام ، والسادس : الإرادة ، كملت الأشياء بظهور أنوار الصفات الستة ، ولما أتمها صارت الحدثان كجسد آدم بلا روح ، فتجلى من صفته السابعة ـ وهي حياته القديمة الأزلية الباقية ، المنزهة عن همهمة الأنفاس والمشابهة والقياس ـ فقامت الأشياء بصفاته القائمة بذاته ، ويكون إلى الأبد لحياتها بروح حياته ، المقدسة عن الاتصال والانفصال . قلت : وهي المعبّر عنها بالمعاني القائمة بالأوانى . ثم قال : وفي أدق الإشارة : السموات : الأرواح ، والأرض : الأشباح ، والعرش : القلوب ، بدأ بكشف الصفات للأرواح ، وبدأ بكشف الأفعال للأشباح ، ثم بدأ بكشف الذات للقلوب

---

(١) سنن النسائي الكبرى (١٣٢٠) .

لأن مناظر القلوب للغيوب ، والغيوب من القلوب محل تجلى استواء القدم ، استوى قهر القدم ، بنعت الظهور للعدم ، أي : فتلاشى العدم ، ثم استوى تجلي الصفات على الأفعال ، واستوى تجلي الذات على الصفات ، فاستوى بنفسه لنفسه ، المنزه عن المباشرة بالحدثان والاتصال والانفصال عن الأكوان . قلت : أي : إذ لا حدثان ولا أكوان لأنها لما قرنت بالقدم تلاشت ، وما بقي إلا نعت القدم . ثم قال : خصّ السموات والأرض بتجلي الصفات ، وخص العرش بتجلي الذات . قلت : لأن المعاني المستولية على العرش باقية على أصلها ، وهي أسرار الذات لم تَرتدِ برداء الكبرياء ، وهو حجاب الحس الظاهر ، بخلاف المعاني القائمة بالأواني ، وهي أنوار الصفات ، تجلت مرتدية بحجاب القهرية ، فقيل لها : تجلي الصفات . ثم قال : السموات والأرض جسد العالم ، والعرش قلب العالم ، والكرسي دماغ العالم ، خص الجميع بالأفعال والصفات ، وخص العرش بظهور الذات لأنه قلب الكل ، وهو غيب الرحمن وعلمه وحكمته ، رأيته في المكاشفة أنوارًا شعشعانيًّا ، بلا جسم ولا مكان ولا صورة ، يتلألأ ، فسألت عن ذلك ، فقيل لى : هذا عالمٌ يسمى عرشًا . انتهى . قلت : وأقرب من هذا كله : أن العرش قد استولى على ما في جوفه من العوالم ، حتى صارت في وسطه كل شيء ، ومعاني أسرار الربوبية ، وهي العظمة الأصلية ـ قد استولت عليه ، وأحاطت به ، ومحت وجوده ، فعبّر الحق ـ جل جلاله ـ عن استيلاء هذه العظمة ـ التي هي أسرار الربوبية ـ على العرش بالاستواء . وإلى هذا أشار في الحكم العطائية بقوله : «يا من استوى برحمانيته على عرشه ، فصار العرش غيبًا في رحمانيته ، كما صارت العوالم غيبًا في عرشه ، محقت الآثار بالآثار ، ومحوت الآثار ـ وهي العرش وما احتوى عليه ـ بمحيطات أفلاك الأنوار» وهي أسرار الذات المحيطات بالآثار ، من العرش إلى الفرش ، فعبّر عن المعاني المستولية على العرش بالرحمانية لأن الرحمانية صفة الذات ، والصفة لا تفارق الموصوف ، فافهم . قلت : ومن كحل عينه بإثمد توحيد الذات لا يستبعد أن يكون الحق ـ جل جلاله ـ يتجلى بتجل خاص من أسرار

ذاته وأنوار صفاته ، يستوي بتلك العظمة على العرش ، كما يتجلى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده ، إذ تجلياته لا تنحصر ، بل كل ما ظهر في عالم الشهادة فإنما هو نور من تجلي ذاته وصفاته ولله در القائل :

هــذا الوجــود وإن تعــدد ظــاهرًا وحيــاتكم مــا فيــه إلا أنــتم .

وهذا القدر كاف لمن شم شيئًا من أسرار التوحيد ، وقد تكلم ابن جزى هنا على الخوف والرجاء ، وأطال فيهما ، ولكنه يجنح لتصوف أهل الظاهر ، وقد تقرر في محله[1].

والرب هو : المعبود . والدليل قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢١،٢٢)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

قلت : جملة الترجي حال من الواو في ﴿ **ٱعۡبُدُواْ** ﴾ ، أي : اعبدوا ربكم راجين أن تنخرطوا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح ، المستوجبين جوار الله تعالى ، نبه به على أن التقوى منتهى درجات السالكين وهو التبري من كل شيء سوى الله تعالى - إلى الله تعالى . و﴿ **ٱلَّذِي جَعَلَ** ﴾ صفة للرب ، و﴿ **فَلَا تَجۡعَلُواْ** ﴾ معطوف على ﴿ **ٱعۡبُدُواْ** ﴾ على أنه نهى ، أو منصوب بأن ، جواب له ، ﴿ **أَندَادٗا** ﴾ جمع ندّ ، بكسر النون . وهو الشبه والمثل ، و﴿ **وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ** ﴾ حال من ضمير ﴿ **فَلَا تَجۡعَلُواْ** ﴾ أي : فلا تجعلوا لله أندادًا والحال أنكم من أهل العلم .

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/٣٥٩-٣٦٢ .

يقول الحق جل جلاله : يا عبادى اعبدوني بقلوبكم بالتوحيد والإيمان ، وبجوارحكم بالطاعة والإذعان ، وبأرواحكم بالشهود والعيان ، فأنا الذي أظهرتكم من العدم ـ أنتم ومَن كان قبلكم ـ وأسبلت عليكم سوابغ النعم ، الأرض تقلكم والسماء تظلكم ، والجهات تكتنفكم ، وأنزلت من السماء ماء فأخرجت به أصنافًا ﴿ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡ ﴾ (البقرة:٢٢) ، فأنتم جوهرة الصدق ، تنطوى عليكم أصداف مكنوناتي ، وأنتم الذين أطلعتكم على أسرار مكنوناتى ، فكيف يمكنكم أن تتوجهوا إلى غيري ؟ وقد أغنيتكم بلطائف إحساني وبري ، أنعمت عليكم أولاً بالإيجاد ، وثانيًا بتوالي الإمداد ، خصصتكم بنور العقل والفهم ، وأشرقت عليكم نبذة من أنوار القِدم ، فبي عرفتموني ، وبقدرتي عبدتموني ، فما عبدني غيري ، ولا وحدني سواي فلا شريك معي ولا ظهير ، ولا أحتاج إلى معين ولا وزير .

الإشارة : توجه الخطاب إلى العارفين الكاملين في الإنسانية الذين يعبدون الله تعظيمًا لحق الربوبية ، وقيامًا بوظائف العبودية ، وفيهم قال صاحب العينية[1] :

هُم الناس فالزم إن عرفتَ جَنابهُم   فَفيهم لضُرّ العالمين منافعُ .

وقال قبل ذلك :

همُ القَصد للملهوفِ والكنزُ والرجا   ومنهم يَنالُ الصّب ما هو طامع .

بهم يَهتدى للعين من ضلّ في العَمى   بهم يُجذب العشّاق ، والرّبع شاسع .

هم القصدُ والمطلوبُ والسؤلُ والمنى   واسْمُهم لِلصبّ في الحبّ شافع .

فعبادة العارفين : بالله ومن الله وإلى الله ، وعبادة الجاهلين : بأنفسهم ومن أنفسهم ولأنفسهم ، عبادة العارفين حمد وشكر ، وعبادة الغافلين اقتضاء حظ

---

(١) قال محققه : هو عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الحلي القادري الصوفي الحنبلي من خلفاء الشيخ الجبرتي ، ولد سنة ٧٦٧هـ ، وتوفي سنة ٨٢٠ هـ .(انظر كشف الظنون ٥/٦١٠ ، ٦١١) .

وأجر ، عبادة العارفين قلبية باطنية ، وعبادة الغافلين حسية ظاهرية ، يا أيها الناس المخصوصون بالأنس والقرب دوموا على عبادة القريب ، ومشاهدة الحبيب ، فقد رفعتُ بيني وبينكم الحجب والأستار ، وأشهدتكم عجائب الألطاف والأسرار ، أبرزتكم إلى الوجود ، وأدخلتكم من باب الكرم والجود ، ومنحتكم بفضلي غاية الشهود ، لعلكم تتقون الإنكار والجحود ، وتعرفونني في كل شاهد ومشهود . فقد جعلت أرض نفوسكم مهادًا لعلوم الشريعة ، وسماء قلوبكم سقفًا لأسرار الحقيقة ، وأنزلت من سماء الملكوت ماء غيبيًّا تحيا به أرض النفوس ، وتهتز بواردات حضرة القدوس ، فتخرج من ثمرات العلوم اللدنية ، والأسرار الربانية ، والأحوال المرضية ، ما تتقوت به عائلة المستمعين ، وتنتعش به أسرار السائرين ، فلا تشهدوا معي غيري ، ولا تميلوا لغير إحساني وبري ، فقد علمتم أني منفرد بالوجود ، ومختص بالكرم والجود ، فكيف يرجى غيري وأنا ما قطعت الإحسان؟! وكيف يلتفت إلى ما سواي وأنا بذلت عادة الامتنان؟! مني كان الإيجاد ، وعليّ دوام الإمداد ، فثقوا بي كفيلاً ، واتخذوني وكيلاً ، أعطكم عطاءً جزيلاً ، وأمنحكم فخرًا جليلاً[(١)] .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة.

وأنواع العبادة التي أمر الله بها ، مثل الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، ومنه الدعاء ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والرغبة ، والرهبة ، والخشوع ، والخشية ، والإنابة ، والاستعانة ، والاستعاذة ، والاستغاثة ، والذبح ، والنذر ، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها لله تعالى .

والدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ (الجن:١٨)

تقدم تفسير الآية الكريمة .

---

(١) تفسير البحر المديد ١/٦٥ ، ٦٦ .

فمن صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشرك كافر . والدليل قـولـه تعالى :
﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ (المؤمنون:١١٧) (١) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : **﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثًا ﴾** أي : عابثين ، أو للعبث من غير حكمة في خلقكم وإظهاركم حتى أنكرتم البعث ، (**﴿ وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴾** للحساب والجزاء ، بل خلقناكم للتكليف ، ثم للرجوع إلينا ، فنُثيب المحسن ، ونعاقب المسيئ . (فَتَعالَى اللَّهُ) أن يخلق شيئًا عبثًا ، وهو استعظام له تعالى ولشئونه التي يُصرّف عليها عباده من البدء والإعادة ، والإثابة والعقاب ، بموجب الحكمة ، أي : ارتفع بذاته ، وتنزه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله ، وعن خلو أفعاله عن الحِكم والمصالح والغايات الحميدة . **﴿ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ ﴾** الذي يحق له الملك على الإطلاق ، إيجادًا وإعدامًا ، وإحياء وإماتة ، عذابًا وإثابة ، وكل ما سواه مملوك له ، مقهور تحت ملكوته ، **﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾** ، فإنّ كل ما عداه عبيده ، **﴿ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴾** ، فكيف بما تحته من الموجودات ، كائنًا ما كان ، ووصفه بالكرم : إمّا لأنه منه ينزل الوحي الذي منه القرآن الكريم ، والخير والبركة ، أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين . **﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾** ، يعبده فردًا أو اشتراكًا ، من صفته **﴿ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾** على صحة عبادته . وفيه تنبيه على أن التدين بما لا دليل عليه باطل ،

---

(١) قال الله عز وجل : **﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثًا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾** (المؤمنون:١١٥-١١٨) .

فكيف بما شهدت بديهة العقول بخلافه؟ ﴿ **فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ** ﴾ ، فهو مُجاز له على قدر ما يستحقه ، ﴿ **إِنَّهُۥ** ﴾ أي : الأمر والشأن ﴿ **لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ** ﴾ لا فوز لهم ولا نجاة . بدئت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين ، وختمت بنفي فلاح الكافرين تحريضًا على الإيمان ، وعلى ما يوجب بقاءه وتنميته ، من التمسك بما جاء به التنزيل ، وبما جاء به النبي الجليل ، ليقع الفوز بالفلاح الجميل . ثم علّمنا سؤال المغفرة والرحمة لأن شؤم المعاصي يؤدى إلى سوء الختام ، فقال : ﴿ **وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ** ﴾ ، وفيه إيذان بأنهما من أهم الأمور الدينية ، حيث أمر به من قد غفَر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فكيف بمن عداه؟ نسأل الله ـ تعالى ـ المغفرة الشاملة ، والرحمة الكاملة ، لنا ولإخواننا ولجميع المسلمين . . آمين . روي عن عبد الله ابن مسعود رضي اللّه عنه أنه مرّ بمصاب مبتلى ، فقرأ في أذنه : ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا** ﴾ إلخ السورة ، فبرئ من حينه . فقال النبي ﷺ : (ماذا قرأت في أذنه؟ فأخبره ، فقال : والذي نفسى بيده لو أن رجلاً مؤمنًا قرأها على جبل لزال) [1] .

الإشارة : ما أظهر الله الكائنات إلا ليُعرف بها ، ويُظهر فيها أسرار ذاته وأنوار صفاته ، وفي الأثر القدسي : (كنت كنزًا لم أُعرف ، فأَحببتُ أن أعرف ، فخلقت الخلق ، فتعرفت لهم ، فبي عرفوني) [2] وفي إيجاد المخلوقات حِكم بليغة وأسرار عجيبة ، لا يحصيها إلا من خلقها ودبّرها . فمن المخلوقات من خلقهم ليظهر فيهم أثر رحمته وكرمه وإحسانه ، وهم أهل الإيمان والطاعة ، ومنهم من خلقهم ليظهر فيهم حلمه وعفوه ، وهم أهل العصيان ، ومنهم من خلقهم ليظهر فيهم عدله وقهره ونقمته ، وهم أهل الكفر والطغيان . وقال الحكيم الترمذي رضي اللّه عنه : إن الله خلق الخلق عبيدًا ليعبدوه ، فيثيبهم على العبادة ، ويعاقبهم على تركها ، فإن عبدوه فهم اليوم له عبيد ، أحرار كرام من

---

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (٢١٨٩) .

(٢) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٦٠٢٣) : لا أصل له اتفاقًا .

رق الدنيا ، ملوك في دار السلام ، وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيد أُباق ، سُقاط ، لئام ، أعداء في السجون بين أطباق النيران . اهـ . وقال بعضهم : إنما أظهر الله الكون لأجل نبينا ﷺ تشريفًا له ، فهو من نوره . قال ابن عباس رضي الله عنه : (أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : يا عيسى ابن مريم آمن بمحمد ، ومُر أمتك أن يؤمنوا به ، فلولا محمد ما خلقت آدم ، ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار . . .)[1] الحديث . قال القشيري : حسابُه على الله في آجله ، وعذابُه من الله له في عاجله ، وهو ما أودعَ قلبَه حتى رضيَ أن يَعبُدَ معه غيره ، لقوله : ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ (الزمر:٣) ، كلامٌ حاصلٌ عن غير دليل عقل ، ولا شهادة خبر ونقل ، فما هو إلا إفك وبهتان ، وقولٌ ليس يساعده برهان . اهـ . وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ـ وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد ، وآله وصحبه وسلم تسليمًا ، والحمد لله رب العالمين[2] .

وفي الحديث : (الدعاء مخ العبادة) .[3]

والدليل قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر:٦٠)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ** ﴾ أي : اعبدوني ﴿ **أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ** ﴾ أي : أثبكم ، ويدل على هذا قوله : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ صاغرين أذلاء ، أو : اسألوني أعطكم ، على

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢٨٠) : لا أصل له .

(٢) تفسير البحر المديد ٥/٤٣-٤٥ .

(٣) سنن الترمذي (٣٣٧١) وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة . قال الألباني : ضعيف .

ما أريد ، في الوقت الذي أريد . قال القشيري : والحكمة في أنه أمر بالسؤال قبل الإجابة ، وبالاستغفار قبل المغفرة ، أنه حكم في اللوح أن يعطيك ذلك الشيء الذي تسأله وإن لم تسأل ، ولكن أمر بالسؤال ، حتى إذا وجدته تظن أنك وجدته بدعائك ، فتفرح به . قلت : السؤال سبب ، والأسباب غطى بها سر قدرته تعالى . ثم قال : ويقال : إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما مِن مؤمنٍ يدعو اللّه ، ويسأله شيئًا ، إلا أعطاه إياه ، إما في الدنيا ، وإما في الآخرة . حيث يقال له : هذا ما طلَبته في الدنيا ، وقد ادخرتُه لك إلى هذا اليوم ، حتى يَتمنى العبدُ أنه لم يُعط شيئًا في الدنيا . اهـ . قلت : فالدعاء كله إذًا مستجاب ، بوعد القرآن ، لكن منه ما يُعجّل ، ومنه ما يُؤجّل ، ومنه ما يصرف عنه به البلاء ، كما في الأثر[١] ، وإذا فسر الدعاء بالسؤال كان الاستكبار عنه منزلاً منزلة الاستكبار عن العبادة للمبالغة في الحث عليه . قال ﷺ : (الدعاء هو العبادة) وقرأ الآية[٢]، وفي رواية : (مخ العبادة)[٣] ، وعن ابن عباس : وحّدوني أغفر لكم ، فسّر الدعاء بالعبادة ، والعبادة بالتوحيد .

الإشارة : اختلف الصوفية أيّ الحالين أفضل ؟ هل الدعاء والابتهال ، أو السكوت والرّضا ؟ والمختار أن ينظر العبد ما يتجلى في قلبه ، فإن انشرح للدعاء فهو في حقه أفضل ، وإن انقبض عنه ، فالسكوت أولى ، والغالب على أهل التحقيق من العارفين ، الغنى باللّه ، والاكتفاء بعلمه ، كحال الخليل عليه

---

(١) مسند الإمام أحمد (١١١٤٩) وفيه : حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا أبو عامر ثنا علي عن أبي المتوكل عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن تعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها . قالوا : إذًا نكثر قال : الله أكثر ». قال شعيب الأرناؤوط : إسناده جيد .

(٢) سنن الترمذي (٣٣٧٢) قال الألباني : صحيح .

(٣) تقدم تخريجه صـ ٩١ .

السّلام ، فإنهم إبراهيميون . قال الورتجبي : أي : ادعوني في زمن الدعاء الذي جعلته خاصًّا لإجابة الدعوة ، فادعوني في تلك الأوقات ، أستجب لكم فإنّ وقوع الإجابة فيها حقيقة بلا شك ، ومَن لم يعرف أوقات الدعاء ، فدعاؤه ترك أدب فإن الدعاء في وقت الاستغفار من قلة معرفة المقامات ، فإن السلطان إذا كان غضبان لا يُسأل منه ، وإذا كان مستبشرًا فيكون زمانه زمن العطاء والكرم .
ـ قلت : هذا في حق الخصوص ، الفاهمين عن اللّه ، وأما العموم ، فما يناسبهم إلا دوام الدعاء في الرّخاء والشدة ، قال تعالى : ﴿ **فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ** ﴾ (الأنعام:٤٣) ، ثم قال عن الورّاق : ادعوني على حد الاضطرار والالتجاء ، حيث لا يكون لكم مرجع إليَّ سواي ، أستجب لكم . اهـ .[١]

ودليل الخوف قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٢] (آل عمران:١٧٥)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ** ﴾ وهم ركب عبد قيس حيث قالوا للمسلمين : ﴿ **إِنَّ ٱلنَّاسَ** ﴾ يعنى أبا سفيان ومن معه ، ﴿ **قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ** ﴾ ليرجعوا ليستأصلوكم ﴿ **فَٱخْشَوْهُمْ** ﴾ وارجعوا إلى دياركم ﴿ **فَزَادَهُمْ** ﴾ ذلك ﴿ **إِيمَـٰنًا** ﴾ ويقينًا وتثبيتًا في الدين ، وهذا يدل على أن الإيمان يزيد وينقص ، فيزيد بحسب التوجه إلى الله والتفرغ مما سواه ، وينقص بحسب التوجه إلى الدنيا وشغبها ، ويزيد أيضًا بالطاعة والنظر والاعتبار ، وينقص

---

(١) تفسير البحر المديد ٣١٧/٦ ، ٣١٨ .

(٢) قال الله عزوجل : ﴿ **ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (آل عمران:١٧٣-١٧٥) .

بالمعصية والغفلة والاغترار . ولما قال لهم الركب ذلك ليخوفهم ، ﴿ **وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ** ﴾ أي : كافينا الله وحده ، فلا نخاف غيره ، ﴿ **وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ** ﴾ أي : نعم من يتوكل عليه العبد ، وهي كلمة يدفع بها ما يخاف ويكره ، وهي الكلمة التي قالها إبراهيم حين ألقي في النار . ﴿ **فَٱنقَلَبُواْ** ﴾ راجعين من حمراء الأسد ، متلبسين ﴿ **بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ** ﴾ وهي العافية والسلامة ، ﴿ **وَفَضْلٍ** ﴾ وهي زيادة الإيمان وشدة الإيقان ، ﴿ **لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ** ﴾ من جراحة وكيد عدو ، ﴿ **وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ** ﴾ ، الذي هو مناط الفوز بخير الدارين ، ﴿ **وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾ فقد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان ، والتوفيق إلى المبادرة إلى الجهاد مع الرسول ﷺ الذي هو موجب الرضوان . ثم حذّرهم الحق تعالى ممن ثبّطهم عن اللحوق بالكفار ، وهو ركب عبد القيس ، تشبيهًا لهم بالشيطان ، فقال : ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ** ﴾ يخوف أولياءه من المشركين ، أو ﴿ **يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ** ﴾ القاعدين من المنافقين ، ﴿ **فَلَا تَخَافُوهُمْ** ﴾ فإن أمرهم بيدي ، ﴿ **وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ فإن الإيمان يقتضي إيثار خوف الله على خوف الناس . . .

الإشارة : أهل القوة من المريدين إذا قيل لهم : إن الناس قد جمعوا لكم ليردوكم أو يؤذوكم فاخشوهم ، زادهم ذلك إيمانًا وإيقانًا ، وتحققوا أنهم على الجادة ، لسلوكهم على منهاج من قبلهم ﴿ **أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا** ﴾ (العنكبوت:٢) الآية ، واكتفوا بعلم الله ونظره وبرعايته ونصره ، فانقلبوا بنعمة الشهود ، وفضل الترقي في عظمة الملك الودود ، لم يمسسهم فى باطنهم سوء ولا نقصان ، واستوجبوا من الله الرضى والرضوان ، وإنما ذلكم شيطان يردهم عن مقام الشهود والعيان ، فلا ينبغي لهم أن يخافوا ومطلبهم مقام الإحسان ، الذي تُبذل في طلبه الأرواح والأبدان . وبالله التوفيق[١].

---

(١) تفسير البحر المديد ١/٤٠٢ ، ٤٠٣ .

ودليل الرجاء قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ١١٠) [(١)]

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قُلْ ﴾ لهم : ﴿ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ يتناهى كلامي، وينقضي أجلي ، وإنما خُصصت عنكم بالوحي والرسالة ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ من تلك الكلمات : ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ لا شريك له في الخلق ، ولا فى سائر أحكام الألوهية ، ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾ : يتوقعه وينتظره ، أو يخافه ، فالرجاء : توقع وصول الخير في المستقبل ، فمن جعل الرجاء على بابه ، فالمعنى : يرجو حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضى وقبول . ومن حمله على معنى الخوف ، فالمعنى : يخاف سوء لقائه . قال القشيري : حَملُه على ظاهره أَولى لأن المؤمنين قاطبةً يرجون لقاء الله ، فالعارفون بالله يرجون لقاءه والنظر إليه ، والمؤمنون يرجون لقاءه وكرامته بالنعيم المقيم . اهـ . بالمعنى . والتعبير بالمضارع في ﴿ يَرْجُواْ ﴾ للدلالة على أن اللائق بحال المؤمنين : الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء ، أي : فمن استمر على رجاء لقاء كرامة اللّه ورضوانه ﴿ فَلْيَعْمَلْ ﴾ لتحصيل تلك الطلبة العزيزة ﴿ عَمَلاً صَٰلِحًا ﴾ ، وهو الذي توفرت شروط صحته وقبوله ، ومدارها على الإتقان ظاهرًا ، والإخلاص باطنًا . وقال سهل : العمل الصالح : المقيد بالسُّنّة ، وقيل : هو اعتقاد جواز الرؤية وانتظار وقتها . ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ إشراكًا جليًّا ، كما فعل الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا حيث كفروا بآيات ربهم ولقائه ، أو إشراكًا خفيًّا ، كما يفعله أهل الرياء ، ومن يطلب به عوضًا أو ثناءً حسنًا . قال شهر ابن حَوشب : جاء رجل إلى عبادة بن الصامت ، فقال : أرأيت رجلاً يُصلى

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ١١٠).

يبتغى وجه الله ، ويحب أن يُحمد عليه ، ويتصدق يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد عليه ، ويحج كذلك؟ قال عبادة : ليس له شيء ، إن الله تعالى يقول : (أنا خيرُ شريك ، فمن كان له شريك فهو له)[1] . وروى أن جندب بن زهير قال لرسول الله ﷺ : إنّى لأعمل العمل لله تعالى ، فإذا اطّلع عليه سرّنى ، فقال له عليه الصلاة والسلام : (لك أجران : أجر السّرّ ، وأجر العلانية)[2] وذلك إذا قصد أن يُقتدى به ، وكان مُخلصًا في عمله . وعنه ﷺ أنه قال : (اتقوا الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر؟ قال : الرياء)[3]. وقال ﷺ ـ لما نزلت هذه الآية ـ :(إن أخوف ما أخاف على أمتى الشرك الخفي ، وإياكم وشرك السرائر ، فإنّ الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء) ، فشق ذلك على القوم ، فقال النبي ﷺ : (ألا أدلكم على ما يذهب الله عنكم صغير الشرك وكبيره؟ قالوا : بلى ، قال : قولوا : (اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك من كل ما لا أعلم) [4]. وعنه ﷺ أنه قال : (من قرأ آخر سورة الكهف ـ يعنى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إلى آخره ـ كانت له نورا من قرنه إلى قدمه ، ومن قرأها كلّها كانت له نورا من الأرض إلى السّماء) [5]. وعنه ﷺ : (من قرأ عند مضجعه : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ إلخ ، كان له من مضجعه نورا يتلألأ إلى مكّة ، حشو ذلك النّور ملائكة يصلّون حتّى يقوم ، وإن كان بمكة كان له نوراً إلى البيت المعمور) . قلت : ومما جرّب أن من قرأ هذه

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٢٧٦٤) .

(٢) سنن الترمذي (٢٣٨٤) وقال : حسن غريب . قال الألباني : ضعيف .

(٣) قال ﷺ : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا : يا رسول الله وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء . إن الله تبارك وتعالى يقول يوم يجازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء». مسند الإمام أحمد (٢٣٦٨١) . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده حسن .

(٤) الأحاديث المختارة للضياء المقدسي (٦٢) قال محققه عبد الملك بن عبد الله ابن دهيش : إسناده ضعيف .

(٥) مسند الإمام أحمد (١٥٦٦٤) . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إلخ ، ونوى أن يقوم في أي ساعة شاء ، فإن الله تعالى يوقظه بقدرته . وانظر الثعلبي .

الإشارة : . . . قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ وحي إلهام ، ويلقى في روعي أنما إلهكم إله واحد ، لا ثاني له في ذاته ولا في أفعاله ، فمن كان يرجو لقاء ربه في الدنيا لقاء الشهود والعيان ، ولقاء الوصول إلى صريح العرفان فليعمل عملاً صالحًا ، الذي لا حظ فيه للنفس عاجلاً ولا آجلاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا ، فلا يقصد بعبادته إلا تعظيم الربوبية ، والقيام بوظائف العبودية ، والله تعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليمًا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم[1].

ودليل التوكل قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [2]

(المائدة:٢٣)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله حاكيًا عن موسى ـ عليه السّلام ـ : ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ أرض بيت المقدس ، قدسها الله ، حيث جعلها قرار أنبيائه ومسكن المؤمنين . وفي مدحها أحاديث كثيرة . وقيل : الطور وما حوله ، أو دمشق وفلسطين ، أو الشام ، ﴿ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ أي : التي كتب الله في

(١) تفسير البحر المديد ٤/٢٠٤-٢٠٦ .

(٢) قال الله عزوجل : ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (المائدة:٢١-٢٣) .

اللوح المحفوظ ، أنها لكم مسكنًا إن جاهدتم وأطعتم نبيكم ، ﴿ **وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ** ﴾ أي : لا ترجعوا مدبرين هاربين خوفًا من الجبابرة ، أو : لا ترتدوا عن دينكم بالعصيان ، وعدم الوثوق بالله ، ﴿ **فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ** ﴾ الدنيا والآخرة . رُوي أنهم لما سمعوا حالهم من النقباء بكوا ، وقالوا : ليتنا متنا بمصر ، تعالوا نجعل علينا رأسًا ينصرف بنا إلى مصر ، ثم ﴿ **قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ** ﴾ أقوياء متغالبين ، لا طاقة لنا بمقاومتهم ، وهم قوم من العمالقة ، من بقية قوم عاد ، ﴿ **وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا** ﴾ بأمر سماوي ، أو يُسلط عليهم من يخرجهم من غيرنا ، ﴿ **فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ** ﴾ فيها . ﴿ **قَالَ رَجُلَانِ** ﴾ كالب بن يوقنّا ، ويوشع بن نون ـ ابن أخت موسى وخادمه ـ ﴿ **مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ** ﴾ ، أو رجلان من الجبابرة أسلما وصارا إلى موسى ، وعليه قراءة « يُخافان » بضم الياء ، ﴿ **أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا** ﴾ بالإسلام والتثبت ، قالا : ﴿ **ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ** ﴾ أي : باب المدينة ، أي : باغتوهم بالقتال ، ﴿ **فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ** ﴾ أي : ظاهرون عليهم ، فإنهم أجسام لا قلوب فيها . يحتمل أن يكون علمهما بذلك من قبل موسى ، أو من قوله تعالى : ﴿ **ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ** ﴾ ، أو من عادته سبحانه في نصر رسله وأوليائه ، وما عهدا من صنيعه تعالى مع موسى من قهر أعدائه . ثم قال : ﴿ **وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ** ﴾ به ، ومصدقين لوعده .[1]

وقوله : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾ (الطلاق:٣)[2]

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/١٦٣ .

(٢) قال الله عزوجل : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا** ﴾ (الطلاق: ٢، ٣).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ** ﴾ بأن طلّق للسُّنَّة ، ولم يُضار بالمعتدّة ، ولم يُخرجها من مسكنها ، واحتاط في الإشهاد ، وغير ذلك ، ﴿ **يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا** ﴾ مما عسى يقع في شأن الأزواج من الغموم والمضائق ، ويُفرِّج عنه ما يعتريه من الكروب . رُوي عن ابن عباس أنه قال لمَن طَلّق ثلاثًا : إنك لم تتق الله ، فبانت منك امرأتك . والمختار : أنّ الآية عامة ، أي : ومَن يتق الله في أقواله وأفعاله وأحواله يجعل له مخرجًا من كرب الدنيا والآخرة . وعن النبي ﷺ أنه قرأها ، فقال : مخرجًا من شُبهات الدنيا ، ومن غمرات الموت ، ومن شدائد يوم القيامة ، قال ابن جزي : وهذا ـ أي العموم ـ أرجح من خمسة أوجه ، الأول : حمل اللفظ على عمومه ، فيدخل فيه الطلاق وغيره . والثاني : رُوي : أنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي ، وذلك أنه أُسر ولده ، وضُيّق عليه رزقه ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأمره بالتقوى ، وقال له : أَكْثِرْ من : لاحَول ولا قوة إلاّ بالله . فلم يلبث إلاَّ يسيرًا ، وانطلق ولده ، ووسع عليه زرقه . والثالث : أنه رُوي عنه ﷺ أنه قال : (إني لأَعْلمُ آية لو أخذ الناسُ بها لكفتهُم ﴿ **وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا** ﴾ [1] فما زال يكررها ، انظر بقيته . ﴿ **وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** ﴾ أي : من وجوه لاتخطر بباله ولا بحسبه ، ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ** ﴾ أي : يكل أمرَه إليه من غير تعلُّق بغير ، ولا تدبير نفس ، ﴿ **فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ** ﴾ ؛ كافيه في جميع أموره ، ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ** ﴾ ، بالإضافة في قراءة حفص ، أي : منفذًا أمره ، وبالتنوين والنصب عند غيره ، أي : مبلغ ما يريد ، لا يفوته مُراد ، ولا يعجزه مطلوب . ﴿ **قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا** ﴾ ؛ تقديرًا ، أو توقيتًا ، أو مقدارًا معلومًا ووقتًا محدودًا ، لا يتقدمه ولا يتأخر عنه ، وهذا حث على التوكل وترغيب فيه ، لأنّ العبد إذا عَلِمَ أنّ الأمور كلها بيد الله ،

---

(١) سنن ابن ماجه (٤٢١٠) قال الألباني : ضعيف .

من الرزق وغيره وأنّ لها وقتًا محدودًا لا يُجاوزه ، توكل عليه ، وانجمع بكليته عليه ، ولم يبقَ له إلاّ التسليم للقدَر السابق . قال ابن عطية : في الآية حض على التوكل ، أي : لا بد من نفوذ أمر الله تعالى ، توكلتَ أيها المرء أم لم تتوكل ، فإنْ توكلتَ على الله كفاك ، وتعجّلت الراحة والبركة ، وإن لم تتوكل وَكَلَك إلى جحدك وتسخُّطك ، وأمره نافذ في الوجهين . اهـ .

الإشارة : ومَن يتق الله التقوى الكاملة ، يجعل له من كل مُشْكل وشُبهة ومتشابه مَخرجًا ، فيَنحلّ له كل ما أشكل على الناس في أمر الدين والدنيا ، ويرزقه من العلوم والأسرار والمعارف ، ما لا يخطر على بال ، من حيث لا يحتسب ، من غير تعلُّم ولا مدارسة ، وقال القشيري : إذا صَدَقَ العبدُ في تقواه أخرجه من أشغاله ، كالشعرة من العجين ، لا يتعلق بها شيء ، يضرب على المتقِي سرادقات عنايته ، ويُدخله في كنف الإيواء ويصرف الأشغال عن قلبه ، ويُخرجه عن تدبيره ، ويُجرده عن كل شغل ، ويكفيه كل أمر ، وينقله إلى شهود قضاء تقديره . اهـ . وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في هذه التقوى : أن تكون ظاهرة وباطنة ، ظاهرة من المعاصي ، وباطنة من المساوئ والدعاوى ، أمّا مَن طهّر ظاهره من المعاصي ، وسَدّ الأُفق بالدعاوى وإضافة التدبير والاختيار لنفسه ، فلا يقوم خيره بِشَرِّه ، أي : فلا يدخل في الآية . ثم قال : إلاّ مَن وَطَّن نفسه على الأرياح إلى أيّ وجهة تقلب ، أي : دار مع رياح الأقدار حيث دارت ، ولم يسكن إلى شيء ، وكان ممن قال اللهُ فيه : ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ** ﴾ (السجدة:١٦) ، أتراه منع جنوبَهم من مضاجع النوم ، وترك قلوبهم مطضجعة وساكنة لغيره ، بل رفع قلوبهم عن كل شيء ، ولا يضاجِعُون أسرارهم شيئًا ، فافهم هذا المعنى ، تتجافى جُنوبهم عن مضاجعة الاختيار ومنازعة الأقدار ، يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ، فالخوف قَطَعَهم عن غيره ، وبالشوق إليه أطمعهم فيه ، ومما رزقناهم ينفقون . اهـ . مختصرًا . وقوله تعالى : ﴿ **وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ** ﴾ قال في الحاشية

الفاسية : أي : يرزقه المقدّر في الأزل من حيث لا مشقة عليه في وصوله إليه ، فيأكل ويلبس من غير انتظار ، ولا استشراف نفس ، ولا تعب ، فيخرج له من الغيب بالبديهة ما يكفيه عن السؤال ، ومَن عَرَف اللهَ عَرَفه بكمال قدرته وإحاطة علمه بكل ذرة ، فيلقي زمام الاختيار إليه ، فيكفيه كل مؤنة في الدنيا والآخرة ، وهو السميع العليم ، وقد قال سهل : التقوى : التبري من الحول والقوة . اهـ .

﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ** ﴾ الآية قال القشيري : فالله حاسبه ، أي : كافيه . ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ** ﴾ ، إذا سَبَقَ له شيءٌ من التقدير ، فلا محالةَ يكون ، وفي التوكل لا يتغير المقدور ولا يتأخر ، ولكنّ المتوكل تكون ثقته بقلبه ، غير كارهٍ لما يرد عليه ، وهذا من أجَلِّ النعم . ثم قال في موضع آخر : التوكل : شهود نَفْسِك خارجًا من المِنّة ، جاريًا عليك أحكام التقدير من غير تدبيرٍ منك ولا اطلاع لك على حُكمه ، فسبيلُ العبد : الخمودُ والرضا دونَ استعلام الأمر . وفي الخبر : (أعوذ بالله من علم لا ينفع) [1] ومن جملته : أن يكون قد وقع لك شُغْلٌ ، واستقبلك مُهِمٌّ ، وقد اشتبه عليك وجهُ التدبير فيه ، وتكون مُطالبًا بالسُّكون ، فيطلبك العلم ، وتتمنى أن تعرف متى يصلح هذا الأمر ، وبأي سببٍ ؟ وعلى أي وجهٍ ؟ وعلى يد مَن ؟ فهذا كله تخليطٌ ، وغير مُسلَّم شيءٌ من ذلك للأكابر ، وهو مِن العلم الذي يجب التعوُّذ منه ، فيجب عليك السكون والرضا ، فإذا جاء وقتُ الكَشْف ، فسترى صورة الحال وتعرفه ، وربما ينظر العبدُ في هذه الحالة تعريفًا في المنام ، أو ينظر في فال من الجامع ـ أي : ككتاب وشَبهه ـ أو يرجو بيان حاله ، بأن يجري على لسان مستنطق في الوقت ، كلُّ هذا تركٌ للأدب ، واللهُ لا يَرْضى بذلك من أوليائه ، بل الواجبُ السكون . اهـ . وقال في القوت : والحسب إلى الحسيب يجعلُه ما شاء كيف شاء ، فقد قيل : ﴿ **فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ** ﴾ أي : التوكل حَسْبُه من سائر المقامات . ثم

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٢٢) .

قال معربًا باللطافة ، مسليًا للجماعة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ ﴾ أي : منفذ حكمه فيمن توكل ، ومَن لا يتوكل ، إلاّ أنّ مَن توكّل عليه يكون الله ـ عزّ وجل ـ حَسبه ، أي : يكفيه أيضًا مُهِم الدنيا والآخرة ، ولا يزيد مَن لم يتوكل عليه جناح بعوضة في قسْمه ، كما لا ينقص عليه ذرة من رزقه ، لكن يزيد مَن توكل عليه هُدًى إلى هداه ، ويرفعه مقامًا في اليقين قدر تقواه ، ويُعزّه بعزّه ، وينقص مَن لم يتوكل عليه من اليقين ، ويزيده من التعب والهم ، ويُشتت قلبَه ، ويشغل فكرَه ، فالمتوكل عليه يُوجب له تكفير السيئات ، ويُلقي عليه رضاه ومحبته في المقامات ، أمّا الكفاية فقد ضَمِنها تعالى لِمن صدق في توكله عليه ، والوقاية قد وهبها لمَن أحسن تفويضه إليه ، إلاّ أنّ الاختيار وعلم الاستتار إليه في الكفاية والوقاية ، يجعل ذلك ما يشاء كيف شاء ، وأين شاء ، من أمور الدنيا وأمور الآخرة ، من حيث يعلم العبد ، ومن حيث لا يعلم ؛ لأنّ العبد تجري عليه الأحكام في الدارين ، وفقير محتاج إلى الرحمة واللطف في المكانين . اهـ[(١)]

ودليل الرغبة والرهبة والخشوع قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩٠) [(٢)].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَ ﴾ اذكر خبر ﴿ زَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ في طلب الولد ، وقال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا ﴾ وحيدًا بلا ولد يرثني ، ثم ردّ أمره

---

(١) تفسير البحر المديد ٨/٦٨-٧٠ .

(٢) قال الله عزوجل : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٩،٩٠) .

إليه مستسلمًا ، فقال : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ ، فحسبي أنت ، وإن لم ترزقني وارثًا فلا أبالي فإنك خير وارث ، ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ دعاءه ، ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ ولدا ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ أي : أصلحناها للولادة بعد عُقمها ، أو أصلحناها للمعاشرة بتحسين خلقها . وكانت قبل سيئة الخلق ، ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي : ما تقدم من الأنبياء ، ﴿ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ أي : إنما استحقوا الإجابة إلى مطالبهم ، وأسعفناهم فيما أمّلوا لمبادرتهم أبواب الخير ، ومسارعتهم إلى تحصيلها ، مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير كله ، وهو السر في إتيان : « في » ، دون « إلى » ، المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات ، متوجهين إليها ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (آل عمران:١٣٣) : . ﴿ وَ ﴾ كانوا ﴿ يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ طمعًا وخوفًا ، وهما مصدران في موضع الحال ، أو المفعول له ، أي : راغبين في الثواب أو الإجابة ، وراهبين من العقاب أو الخيبة ، أو للرغبة والرهبة ، ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ متواضعين خائفين ، أي : إنما نالوا هذه المراتب العلية ، واستحقوا هذه الخصوصية لاتصافهم بهذه الأوصاف الحميدة . واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الغالب في وراثة الخصوصية الحقيقية أن تكون لغير ورثة النسب ، وأما الخصوصية المجازية ، التي هي مقام الصلاح أو العلم ، فقد تكون لورثة النسب ، وتكون لغيرهم . والخصوصية الحقيقية هي مقام الفناء والبقاء ، والتأهل للتربية النبوية ، ولا بأس بطلب وارث هذه الخصوصية ، لئلا ينقطع النفع بها . وقد قيل ، في قول الشيخ ابن مشيش رضى اللّه عنه : اسمع ندائي بما سمعت به نداء عبدك زكريا ، إنه أشار إلى طلب الوارث الروحاني . واللّه تعالى أعلم . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ ، فيه إشارة إلى بيان سبب حصول الخصوصية لأن بابها هو المسارعة إلى عمل الخيرات وأنواع الطاعات ، وأوكدها ثلاثة : دوام ذكر اللّه ، وحسن الظن باللّه ، وبعباد

اللّه . وفي الحديث : (خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير : حسن الظن باللّه ، وحسن الظن بعباد اللّه) . وقوله : ﴿ **وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗا** ﴾ ، هذه حالة الطالبين المسترشدين المتعطشين إلى اللّه ، يدعونه رغبًا في الوصول ، ورهبًا من الانقطاع والرجوع ، وقد تكون للواصلين رغبًا في زيادة الترقي ، ورهبًا من الوقوف أو الإبعاد . وقال بعضهم : الرغب والرهب حاصلتان لكل مؤمن ، إذ لو لم تكن رغبة لكان قنوطًا ، وهو كفر ، ولو لم تكن رهبة لكان أمنًا ، والأمن كفر . واللّه تعالى أعلم .[1]

ودليل الخشية قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي ﴾ (البقرة:١٥٠)[2].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : وإنما أمرتكم بالتوجه إلى الكعبة دون الصخرة لندفع حجج الناس ، فإن اليهود ربما قالوا : المنعوت في التوراة قبلته الكعبة ، وهذا يستقبل الصخرة ، أو إن محمدًا يخالف ديننا ويستقبل قبلتنا . والمشركون ربما قالوا : يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته ، فأمرتكم باستقبال القبلة دفعًا لحجج الناس ، إلا المعاندين منهم فلا ينقطع شغبهم ، فإنهم يقولون : ما تحول إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه ، وحبًّا لبلده ، أو بَدا له فرجع إلى قبلة آبائه ، ويوشك أن يرجع إلى دينهم . فلا تخافوهم ولا تلتفتوا إلى مَطاعنهم ، فإنها لا تضركم ، ﴿ **وَٱخۡشَوۡنِي** ﴾ أكفكم شرهم ، فإن مَن خافني خاف منه كل شيء ، ومن لم يخشني خاف من كل شيء ، وأمرتكم أيضًا بالتوجه إلى قبلة جدكم ﴿ **وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ** ﴾ بإقرار عين نبيكم ، وإرادة

---

(١) تفسير البحر المديد ٣٧٧/٤ ، ٣٧٨ .

(٢) قال الله عزوجل : ﴿ **وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ** ﴾ (البقرة:١٥٠)

اهتدائكم ، فاشكروا ما أوليتكم ، واذكروا ما به أنعمت عليكم أزدكم من فضلي وإحساني ، وأسبغ عليكم إنعامي وامتناني .

الإشارة : من حكمة المدبر الحكيم أن دبر ملكه العظيم ، ووجه كل فرقة بوجهة من مصالح عباده ، أقامهم فيها وولاهم إياها . فقوم اختصهم لمحبته واصطفاهم لحضرته وهم العارفون ، وقوم أقامهم لخدمته وأفناهم في عبادته وهم العباد والزهاد ، وقوم أقامهم لحمل شريعته وتمهيد دينه وهم العلماء العاملون ، وقوم أقامهم لحفظ كتابه رسمًا وتلاوةً وتفهمًا وهم القراء والمفسرون ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ** ﴾ (الحجر:٩)، وقوم أقامهم لتسكين الفتن ودفع المظالم والمحن وهم الحكام ومن يستعان بهم في تلك الوجهة ، وقوم أقامهم لحفظ نظام الحكمة وهم القائمون بالأسباب الشرعية على اختلاف أنواعها وتعدد فروعها ، وقوم أعدهم لظهور حلمه وعفوه فيهم وهم أهل المعاصي والذنوب ، وقوم أعدهم للانتقام وظهور اسمه القهار وهم أنواع الكفار . فكل وجهة من هؤلاء توجهت لحق شرعي أقامتها القدرة فيه ، وحَكم بها القضاء والقدر ، إلا أن القسمين الأخيرين لا تقررهما الشريعة . فلو حسنت المقاصد لكان الكل عُمالاً للّه ، فيقال لهم : ﴿ **فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ** ﴾ بتحسين المقاصد والنيات ، وبادروا إلى الطاعات قبل هجوم هادم اللذات ، أينما تكونوا يجمعكم للحساب ، وتُعاينوا جزاء ما أسلفتم من عذاب أو ثواب ، ومن حيث خرجت أيها العارف فولّ وجهتك وكليتك لمسجد الحضرة باستعمال الفكرة والنظرة ، فإنها حق وما سواها باطل ، كما قال الشاعر :

ألا كلّ شيء ما خلا اللّه باطلُ وكلّ نَعيمٍ لا مَحالة زائلُ .

وحيثما كنتم أيها العارفون فولوا وجوهكم إلى قبلة تلك الحضرة ، واعبدوا ربكم بعبادة الفكرة ، فإنها صلاة القلوب ، ومفتاح ميادين الغيوب ، وفي ذلك يقول القائل :

يـــــا قِـــــبلتي في صَـــــلاتي إذا وقَفـــــــتُ أصـــــــلّي .
جَمــــالكم نُصـــب عـــــيني إليـــــه وجّهـــــتُ كلّـــــي .

فإذا تحققتم بهذه الحضرة ، وتحصنتم بحصن الشهود والنظرة ، انقطع عنكم حجج خصيم النفس والجنس ، وتنزهتم في رياض القرب والأنس ، إلا الخواطر التي تحوم على القلوب ، فلا تقدح في مشاهدة الغيوب ، فلا تخافوا غيري ، ولا تتوجه همتكم إلا لإحساني وبرّى فإني أتم عليكم نعمتي ، وأرشدكم إلى كمال معرفتي ، وأتحفكم بنصري ومعونتي .[1]

ودليل الإنابة قوله تعالى : ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾ (الزمر:٥٤)[2]

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **قُلۡ** ﴾ يا محمد ﴿ **يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ** ﴾ أي : أفرطوا في الجناية عليها ، بالإسراف في المعاصي ، والغلو فيها ، ﴿ **لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ** ﴾ : لا تيأسوا من مغفرته أولاً ، وتفضُّله بالرحمة ثانيًا ، ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا** ﴾ ، بالعفو عنها ، إلا الشرك . وفي قراءة النبي ﷺ : (يغفِر الذنوب جَميعًا ولا يُبالي)[3] لكنها لم تتواتر عنه . والمغفرة تصدق بعد التعذيب وقبله ، وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر ، كيف ، وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ** ﴾ (النساء:٤٨) ظاهر في الإطلاق مما عدا الشرك ؟ ولِمَا يدل عليه التعليل بقوله : ﴿ **إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ على المبالغة ، وإفادة الحصر ، والوعد بالرحمة

---

(١) تفسير البحر المديد ١/١٥٥ ، ١٥٦ .

(٢) قال الله عزوجل : ﴿ **قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ** ﴾ (الزمر:٥٣،٥٤) .

(٣) سنن الترمذي (٣٢٣٧) وقال : حسن غريب . قال الألباني : ضعيف الإسناد .

بعد المغفرة . وما في ﴿ عِبَادِى ﴾ من الدلالة على الذلة والاختصاص ، المقتضيين للترحُّم . ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ﴾ يستر عظام الذنوب ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ يكشف فظائع الكروب . والآية ، وإن نزلت في «وحشي» ، قاتل «حمزة» ، أو في غيره ، لا تقتضي التخصيص بهم ، فإن أسباب النزول لا تخصص . وعن النبي ﷺ : (ما أحبُ أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية) [(١)]. ولما نزلت في شأن وحشي ، وأسلم ، قال المسلمون : هذه له خاصة ، أو للمسلمين عامة ؟ فقال النبى ﷺ : (بل هي للمسلمين عامة) [(٢)]. وقال قتادة : إن ناسًا أصابوا ذنوبًا عظامًا ، فلما جاء الإسلام أشفقوا ألا يتاب عليهم ، فدعاهم الله تعالى بهذه الآية[(٣)]. وقال ابن عمر : نزلت هذه الآيات في عياش بن أبى ربيعة ، والوليد ابن الوليد ، ونفرا كانوا قد أسلموا ثم فُتنوا ، فكنا نقول : لا يقبل الله منهم صرفًا ولا عدلاً ، فنزلت الآية ، وكان عمر بن الخطاب كاتبًا ، فكتبها بيده ، ثم بعث بها إلى عياش بن أبى ربيعة والوليد ، وإلى أولئك النفر ، فأسلموا ، وهاجروا . قال على رضي الله عنه : ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية . فما يُقنط الناس ويشدد عليهم بعد هذه الآية إلا جهول ، أو جامد . قال زيد بن أسلم : إنَّ رجلاً كان في الأمم الماضية مجتهدًا في العبادة ، فيشدد على نفسه ، ويقنط الناس من رحمة الله ، فمات ، فقال : أىّ ربّ مالي عندك؟ فقال : النار . فقال : يا رب أين عبادتى؟ فقال : إنك كنت تُقنط النّاس من رحمتي في الدنيا ، فاليوم أقنطك من رحمتي . وعن علي ـ كرم الله وجهه ـ قال : الفقيه كل الفقيه الذي لا يقنط الناس من رحمة الله ، ولا يؤمنهم من عذاب الله ، ولا يرخص لهم في معاصي الله . اهـ . ثم حضَّ على التوبة لتتحقق المغفرة ، فقال : ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أي : ارجعوا إليه بالتوبة والإخلاص . فالإنابة أخص من التوبة لأن التوبة : مطلق

(١) مسند الإمام أحمد (٢٢٤١٦) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .
(٢) الدر المنثور للسيوطي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .
(٣) صحيح البخاري (٤٥٣٢) .

الندم على الزلة ، والإنابة : تحقيق التوبة والنّهوض إلى اللّه بإخلاص التوجه . قال ﷺ :(من السَعادة أن يطول عُمر الرجل ويرزقُه الله الإنابة)[1] قال القشيري : وقيل الفرق بين الإنابة والتوبة : أن التائب يرجع خوفًا من العقوبة ، والمنيب يرجع حياءً منه تعالى . اهـ . والأمر بالتوبة لا يدل على تقييد المغفرة في الآية بها ، كما تقدم إذ ليس المدعَى : أن الآية تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبق تعذيب ، حتى يغنى عن الأمر بها ، وإنما المراد : الإخبار بسعة غفرانه ، سواء كان مع التوبة أم لا . قال ابن عرفة : واعلم أن التوبة من الكفر مقطوع بها ، ومن المعاصي ، قيل : مظنونة ، وقيل : مقطوع بها ، هذا في الجملة ، وأما في التعيين ، كتوبة زيد بن عمرو ، فلا خلاف أنها مظنونة . اهـ . قلت : قد اقترن بتوبة زيد من الأخبار ما يقطع بصحتها . ثم قال : وأما العاصي إذا لم يتب فهو في المشيئة ، مع تغليب جانب الخوف والعقوبة ، واعتقاد أن العذاب أرجح ، وأما العصيان بالقتل ، ففيه خلاف بين أهل السُّنة ، فقيل : يخلد في النار ، وقيل : في المشيئة . اهـ . وقال أبو الحجاج الضرير رحمه الله :

وتوبةُ الكافرِ تمحُو إثْمَه … لا خلاف فيه بين الأُمَّه .
وتوبةُ العاصي على الإرجاءِ … وقيل كالأول بالسواءِ .
إذ لا يكونُ دونه في الحالِ … وهو عندي أحسنُ الأقوالِ .
دليلُه : تتابعُ الظواهر … شاملةٌ مسلمٌ وكافر .أهـ .

﴿ **وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ** ﴾ أي : اخضعوا له ، وانقادوا لأمره . قال القشيري : أي : أَخلصوا في طاعتكم ، والإسلامُ ـ الذي هو الإخلاص بعد الإنابة ـ : هو أن يعلم نجاته بفضلِه ، لا بإنابته فبفضله يصل إلى إثابته ، لا بإنابته يصل إلى فضله . اهـ . ﴿ **مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ** ﴾ في الدنيا ، أو في الآخرة ، إن لم تتوبوا قبل

---

(١) المستدرك على الصحيحين (٧٦٠٢) قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

نزول العقاب . قال القشيري : العذاب هنا ، قيل : الفراق ، وقيل : هو أن يفوتَه وقت الرجوعِ بسوء الإياس . اهـ . ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ : لا تُمنعون منه أبدًا .

الإشارة : لا يعظم عندك الذنب عظمة تصدك عن حسن الظن بالله ، فإن مَن استحضر عظمة ربه صغر في عينه كل شيء . وتذكر قضية الرجل الذي قتل تسعاَ وتسعين نفسًا ، ثم سأل راهبًا : هل له توبة ؟ فقال : لا ، فكمل به المائة ، ثم سأل عارفًا ، فقال له : ومن يحول بينك وبينها ؟ لكن اخرج من القرية التي كنت تعصي فيها ، واذهب إلى قوم يعبدون الله في مكان ، فذهب ، فأدركه الموت في الطريق ، فلما أحسّ بالموت انحاز بصدره إلى القرية التي قصدها ، ثم مات ، فاختصمت فيه ملائكة العذاب وملائكة الرحمة ، فقال لهم الحق تعالى : قيسوا من القرية التي خرج منها ، إلى القرية التي قصدها ، فإلى أيهما هو أقرب هو منها ؟ فوجدوه أقرب إلى القرية التي قصدها بشبر ، فأخذته ملائكة الرحمة[1] . إلى غير ذلك من الحكايات التي لا تحصى في هذا المعنى . وتأمل قضية الشاب الذي أتى النبي ﷺ يبكى ، فقال : ما يبكيك؟ قال : ذنوبي . فقال له عليه السّلام : إن اللّه يغفر ذنوبك ، ولو كانت مثل السماوات السبع ، والأرضين السبع ، والجبال الرّواسى ، فقال : يا رسول الله ، ذنب من ذنوبي أعظم من السماوات السبع والأرضين السبع ، فقال له : ذنوبك أعظم أو العرش؟ قال : ذنوبي ، فقال له : ذنوبك أعظم أو الكرسي؟ قال : ذنوبي ، فقال : ذنوبك أعظم أو إلهك ؟ فقال : الله أعظم ، فقال : فأخبرني عن ذنبك . قال : إني أستحيي ، فقال : فأخبرني ، فقال : إني كنت نّباشًا أنبش القبور منذ سبع سنين ، حتى ماتت جارية من بنات الأنصار ، فنبشتها ، وأخرجتها من كفنها ، فمضيت ، ثم غلبني الشيطان ، فرجعت ، فجامعتها ، فقامت الجارية ، وقالت : الويل لك يا شاب من دَيّان يوم الدين ، يوم يضع كرسيه للقضاء ، يأخذ من الظالم للمظلوم ، تركتني عريانة في عساكر الموتى ، وأوقفتني جُنبًا بين يدي الله ،

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٨٢) ، صحيح مسلم (٢٧٦٦) .

فقام النبي ﷺ وهو يضرب في قفاه ، وهو يقول : يا فاسق ، اخرج ، ما أقربك من النار ، فخرج الشاب تائبًا إلى الله تعالى ، حتى أتى عليه ما شاء الله ، ثم قال : يا إله محمد وآدم وحواء ، إن كنت غفرت لي فأَعلِم محمدا وأصحابه ، وإلا فأرسل عليَّ نارًا من السماء فأحرقني بها ، ونجِّني من عذاب الآخرة ، فجاء جبريل ، فقال : السلام يقرئك السلام ، فقال : هو السلام وإليه يعود السلام ، قال : يقول : أأنت خلقت خلقي ؟ قال : بل هو الذي خلقهم . قال : يقول : ترزقهم ؟ قال : بل هو الذي يرزقهم ، قال : يقول : أأنت تتوب عليهم ؟ قال : بل هو الذي يتوب عليهم . قال : فتب على عبدي ، فإني تبتُ عليه ، فدعا النبي ﷺ الشاب ، وتاب عليه ، وقال : إن الله هو التواب الرحيم . اهـ . ذكره السمرقندي والثعلبي(١).

ودليل الاستعانة قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

(الفاتحة:٥)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

قلت : ﴿ إِيَّاكَ ﴾ مفعول ﴿ نَعْبُدُ ﴾ ، وقُدّم للتعظيم والاهتمام به ، والدلالِ على الحصر ، ولذلك قال ابن عباس : (نعبُدك ولا نعبد معك غيرك) ، ولتقديم ما هو مقدّمٌ في الوجود وهو الملك المعبود ، وللتنبيه على أن العابدَ ينبغي أن يكون نظرُه إلى المعبود أولاً بالذات ، ومنه إلى العبادة ، لا من حيث إنها عبادةٌ صدَرت عنه ، بل من حيث إنها نسبةٌ شريفة إليه ، ووُصلةٌ بينه وبين الحق ، فإن العارف إنما يَحِقّ وصوله إذا استغرق في ملاحظة جناب القدس ، وغاب عما عداه ، حتى إنه لا يلاحظ نفسَه ولا حالاً من أحوالها إلا من حيث إنها تَجلّ من تجلياته ومظهرٌ لربوبيته ، ولذلك فُضل ما حكى اللّه عن حبيبه حين قال :

---

(١) تفسير البحر المديد ٦/٢٧٢-٢٧٥ .

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة:٤٠) ، على ما حكاه عن كليمه حيث قال : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء:٦٢) أي : حيث صرّح بمطلوبه ، و﴿ وَإِيَّاكَ ﴾ مفعول ﴿ نَسْتَعِينُ ﴾ وقدّم أيضًا للاختصاص والاهتمام ، كما تقدم في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ . وكرّر الضمير ولم يقل : إياك نعبد ونستعين لأن إظهارَه أبلغ في إظهار الاعتماد على اللّه ، وأقطعُ في إحضار التعلق باللّه والإقبال على اللّه وأمدحُ ، ألا ترى أن قولك : بك أنتصر وبك أحتمي وبك أنال مطالبي ـ أبلغ وأمدح من قولك : بك أنتصر وأحتمى . . . إلخ؟ . وقَدمَ العبادة على الاستعانة ليتوافقَ رؤوسُ الآي ، وليُعلم منه أن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى إلى الإجابة ، فإن مَن تَلبّس بخدمة الملك وشرع فيها بحسب وُسعَه ، ثم طلب منه الإعانة عليها أجيب إلى مطلبه ، بخلاف من كلّفه الملكُ بخدمته ، فقال : أعطني ما يعينُني عليها ، فهو سوء أدب ، وأيضًا : من استحضر الأوصاف العِظام ما أمكنه إلا المسارعةُ إلى الخضوع والعبادة ، وأيضًا : لما نسب المتكلمُ العبادة إلى نفسه أوهَم ذلك تبجحًا واعتدادًا منه بما يصدُر عنه فعقبه بقوله : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، دفعا لذلك التوهم .

والعبادة : أقصى غاية الخضوع والتذلل ، ومنه طريق مُعبّد ، أي : مُذلل ، والاستعانة : طلب المعونة ، والمراد طلب المعونة في المُهمات كلّها ، أو في أداء العبادات . والضمير المستتر في الفعلين للقارئ ومن معه من الحفظة وحاضري صلاة الجماعة ، أو له ولسائر الموجودين . أدرجَ عبادته في تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته بحاجتهم لعلها تُقبل ببركتها ويُجاب إليها ، ولهذا شرعت الجماعة . قاله البيضاوي : يقول الحق جل جلاله ، تتميمًا لتعليم عباده : فإذا أثنيتُم عليَّ ومجدتموني وعظمتموني فأقِروا لي بالربوبية ، وأظهروا من أنفسكم العبودية ، واطلبوا مني العون في كل وقت وقولوا : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وكأنه ـ جل جلاله ـ لمّا ذكر أنه مستحق للمحامد كلها قديمها وحديثها لأنه رب العوالِم وقيومها ، أصل الأصول وفروعها ، أنعم عليها

أولاً بالإيجاد ، وثانيا بتوالي الإمداد ، فهو مالكها على الإطلاق ، ذكر أنه لا يستحق أن يُعبد سواه إذ لا مُنعم على الحقيقة إلا اللّه ، فهو أحقّ أن يُعبد ، وأولى أن يفرد بالوجهة والقصد ، لأنه مُستبِدٌّ وغير مُستَمدّ ، والمادة من عينِ الجود ، فإذا انقطعت المادة انعدم الوجود . قال البيضاوي : ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد ، ووصف بصفات عظام تميّز بها عن سائر الذوات ، وتعلّق العلمُ بمعلوم معين ، خوطب بذلك ، أي : يا من هذا شأنه نخصّك بالعبادة والاستعانة ، ليكون أدل على الاختصاص ، وللترقي من الغَيبة إلى الشهود ، وكأن المعلوم صار عيانًا ، والمفعولَ مُشاهَدًا ، والغيبة حضوراً . بَنى أول الكلام على ما هو مبادئ حالِ العارفِ من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه ، والنظر في آلائه ، والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه وباهر سلطانه ، ثم قفى بما هو منتهى أمرِه ، وهو أن يخوض لُجةَ الوصول ، ويصير من أهل المشاهدة ، فيراه عيانًا ويناجيه شِفاهًا . اللهم اجعلنا من الواصلين إلى العين دون التابعين للأثر .

ومن عادة العرب التفنن في الكلام والعدول عن أسلوب إلى آخر ، تَطرِيةً وتنشيطًا للسامع ، فَتَعدِل من الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى التكلم ، كقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ ﴾ (يونس:٢٢) ولم يقل (بكم) وقوله : ﴿ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ ﴾ (فاطر:٩) . . . انظر تمام كلامه . والالتفات هذا في قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ ولم يقل : إياه نعبد لأن الظاهر من قبل الغيبة ، وحسنه أن الموصوف تعيّن وصار حاضراً . قال الأقليشى : فهذه الآية هي التي قال فيها النبي ﷺ : (فإذا قال العبد : إياك نعبد وإياك نستعين ، يقول اللّه تعالى : هذه بيني وبين عبدي ولعبدي ما سَأل) [1] . معناه : أي عبد توجّه إليَّ بالعبادة وسألني العون عليها فعبادته متقبلة ، والعون مني له عليها حاصل حتى يُوقعها على وجهها ، فالعبادة وصف العبد ، والعون من اللّه تعالى للعبد ، فلهذا قال : (فهذه بيني وبين عبدي) . قال ابن جزي : أي

---

(١) صحيح مسلم (٣٩٥) .

نطلب العون منك على العبادة وعلى جميع أمورنا ، وفى هذا دليل على بطلان قول القدَرية والجبرية ، وأنّ الحق بين ذلك .

الإشارة : لمّا تجلى الحق جل جلاله من عالم الجبروت إلى عالم الملكوت ، وحَمد نفسه بنفسه ، تجلى أيضًا وتنزّل من عالم الملكوت إلى عالم المُلك بقدرته وحكمته لإظهار آثار أسمائه وصفاته ، فأظهر العبودية وأخفى الربوبية ، أظهر الحكمة وأبطن القدرة ، فجعل عالم الحكمة يخاطبُ عالم القدرة ، ويخضع له ، ويتعبد ويستمد ، منه الإعانة والهداية ، ويتحرز من طريق الضلالة والغواية . فعالمُ الحكمة محل التكليف ، وعالم القدرة محل التصريف ، عالم الحكمة عالم الأشباح ، وعالم القدرة عالم الأرواح ، فإياك نعبد لأهل عالم الحكمة ، وإياك نستعين لأهل عالم القدرة . ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي اللّه عنه : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ شريعة ، و﴿ **إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ حقيقة ، ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ إسلامًا ، ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ إحسانًا ، ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ عبادة ، و ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ عبودية ، ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ فرقٌ ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ جمعٌ . اهـ . وإن شئت قلت : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ لأهل العمل لله وهم المخلصون ، ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ لأهل العمل بالله وهم الموحّدون ، العمل لله يوجب المثوبة ، والعمل بالله يوجب القُربةَ ، العمل لله يوجب تحقيق العبادة ، والعمل بالله يوجب تصحيح الإرادة ، العمل لله نعتُ كلّ عابد ، والعمل بالله نعت كل قاصد ، العمل لله قيامٌ بأحكام الظواهر ، والعمل بالله قيامٌ بإصلاح الضمائر . قاله القشيري . ثم إنّ الناس في شهود القدرة والحكمة على ثلاثة أقسام : قسم حُجبوا بالحكمة عن شهود القدرة ، وهم أهل الحجاب من أهل الغفلة ، وقفوا مع قوله : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ ، وقسم حُجبوا بشهود القدرة عن الحكمة ، وهم أهل الفناء ، وقفوا مع قوله : ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ ، وقسم لم يحجبوا بالحكمة عن القدرة ولا بالقدرة عن الحكمة ،

أعطَوا كلّ ذي حق حقّه وَوفّوا كل ذي قسط قسطه ، وهم أهل الكمال من أهل البقاء ، جمعوا بين قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، وباللّه التوفيق[1] .

وفي الحديث : (إذا استعنت فاستعن بالله) [2]

شرح الحديث :

قال ابن علان[3] :

(وإذا استعنتَ) أي : طَلبت الإعانَة على أمرٍ من أمور الدارين (فاستعِن بـالله) لأنه القادرُ على كل شيء وغيره عاجزٌ عن كل شـيء ، فمـن أعانـهُ تعـالى فهـو المُعان ومن خَذله فهو المَخذول ، ومن ثَمَّ كانت (لاحولَ ولا قوّة إلا بالله) كنزاً من كنوزِ الجنة[4] لتَضمُنها براءةَ النفس من حولها وقُوتهـا ، إلى حولـهِ وقوّتـه . وكتب الحسن إلى عمـر بـن عبـد العزيـز : لا تسـتعن بغـيره تعـالى يَكلـك اللهُ إليه[5].

ودليل الإستعاذة قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ (الفلق: ١) [6].

---

(١) البحر المديد ١/٣٣-٣٦ .

(٢) سنن الترمذي (٢٥١٦) وقال : حسن صحيح . قال الألباني : صحيح .

(٣) هو محمد علي بن محمد علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي (٩٩٦-١٠٥٧هـ ، ١٥٨٨ - ١٦٤٧م) : مفسر ، عالم بالحديث ، من أهل مكة . له مصنفات ورسائل كثيرة ، منها (ضياء السبيل) في التفسير ، و(دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين) ثمانية أجزاء ، في شرح (رياض الصالحين) للنووي ، و (المواهب الفتحية على الطريقة المحمدية) في التصوف ، و(الفتوحات الربانية على الأذكار النووية) . انظر : خير الدين الزركلي «الأعلام» (٦/٢٩٣).

(٤) صحيح مسلم (٢٧٠٤) .

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ١/١٩٧ .

(٦) قال الله عزوجل : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ (الفلق: ١-٥) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد ﴿ **أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ** ﴾ أي : أتحصّن وأستجيرُ برب الفلق . والفلق : الصُبح ، كالفرق ، لأنه يفلق عنه الليل ، فعل بمعنى مفعول . وقيل : هو كل ما يفلقه الله تعالى ، كالأرض عن النبات ، والجبال عن العيون ، والسحاب عن الأمطار ، والحب والنوى عما يخرج منهما ، والبطون والفروج عما يخرج منهما ، وغير ذلك مما يفلق ويخرج منه شيء . وقيل : هو جب في جهنم ، وفي تعليق العياذ بالرب ، المضاف إلى الفلق ، المنبئ عن النور بعد الظلمة ، وعن السعة بعد الضيق ، والفتق بعد الرتَق ، عِدَة كريمة بإعاذة العامة مما يتعوّذ منه ، وإنجائه منه وفَلْق ما عقد له من السحر وانحلاله عنه ، وتقوية رجائه بتذكير بعض نظائره ، ومزيد ترغيب في الاعتناء بقرع باب الالتجاء إلى الله تعالى . ثم ذكر المتعوّذ منه فقال : ﴿ **مِن شَرِّ مَا خَلَقَ** ﴾ من الثقلين وغيرهم ، كائنًا ما كان ، وهذا كما ترى شامل لجميع الشرور الجمادية ، والحيوانية ، والسماوية ، كالصواعق وغيرها . وإضافة الشر إليه ـ أي : إلى كل ما خلق ـ لاختصاصه بعالَم الخلق ، المؤسس على امتزاج المواد المتباينة ، وتفاصيل كيفياتها المتضادة المستتبعة للكون والفساد في عالَم الحكمة ، وأمّا عالَم الأمر فهو منزّه عن العلل والأسباب ، والمراد به : كن فيكون .

وقوله تعالى : ﴿ **وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ** ﴾ تخصيص لبعض الشرور بالذكر ، بعد اندراجه فيما قبله ، لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه ، لكثرة وقوعه ، أي : ومن شر الليل إذا أظلم واشتد ظلامه ، كقوله تعالى : ﴿ **إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ** ﴾ (الإسراء:٧٨) وأصل الغسق : الامتلاء . يقال : غسقت عينيه إذا امتلأت دمعًا ، وغَسَقُ الليل : انضباب ظلامه . وقوله : ﴿ **إِذَا وَقَبَ** ﴾ أي : دخل ظلامه ، وإنما تعوّذ من الليل لأنه صاحب العجائب ، وقيل : الغاسق : القمر ، ووقوبه : دخوله

في الكسوف واسوداده ، لِما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : (أخذ رسولُ الله ﷺ بيدي ، وقال : تعوذي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب) [1] وقيل : وقـوب القمر : محـاقـه فـي آخـر الشهر ، والمنجِّمون يعدونه نحسًا ، ولذلك لا تستعمل السحرةُ السحرَ المُورث للمرض إلاَّ في ذلك الوقت ، قيل : وهو المناسب لسبب النزول ، وقيل : الغاسق : الثريا ، ووقوبها : سقوطها ، لأنها إذا سقطت كثرت الأمراض والطواعين ، وقيل : هو كل شر يعتري الإنسان ، ووقوبه هجومه ، فيدخل فيه الذكَر عند الشهوة المحرمة وغيره . ﴿ **وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ** ﴾ أي : ومن شر النفوس ، أو : النساء النفاثات ، أي : السواحر اللاتي يعقدن عقدًا في خيوط ، وينفثن عليها ، والنفث : النفخ مع ريق ، وقيل : بدون ريق ، وتعريفها إمّا للعهد الذهني ، وهن بنات لَبِيد ، أو : للجنس ، لشمول جميع أفراد السواحر ، وتدخل بنات لَبيد دخولاً أوليًّا . ﴿ **وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ** ﴾ إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه ، بترتيب مقدمات الشر ، ومبادئ الإضرار بالمحسود ، قولاً وفعلاً ، والتقييد بذلك ؛ لأنّ ضرر الحسد قبله إنما يحيق بالحاسد . . .

الإشارة : الفلق هو النور الذي انفلق عنه بحر الجبروت ، وهي القبضة المحمدية ، التي هي بذرة الكائنات ، فأمر الله بالتعوُّذ بربها الذي أبرزها منه ، من شر كل ما يشغل عن الله ، من سائر المخلوقات ، ومن شر ما يهجم على الإنسان ، ويقوم عليه من نفسه وهواه وغضبه وسخطه ، ومن شر ما يكيده من السحرة أو الحُساد . والحسد مذموم عند الخاص والعام ، فالحسود لا يسود . وحقيقة الحسد : الأسف على الخير عند الغير ، وتمني زواله عنه ، وأمّا تمني مثله مع بقائه لصاحبه فهي الغِبطة ، وهي ممدوحة في الكمالات ، كالعلم والعمل ، والذوق والحال . وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله[2] .

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٦٦) وقال : حسن صحيح . قال الألباني : حسن صحيح .
(٢) تفسير البحر المديد ٣٧٥/٨ ، ٣٧٦ .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ (الناس: ١) [(١)]

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ مربّيهم ومُصلحهم ، ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ مالكهم ومدبر أمورهم . وهو عطف بيان جيء به لبيان أنّ تربيته تعالى ليست بطريق تربية سائر المُلاك لِما تحت أيديهم من ممالكهم ، بل بطريق المُلك الكامل ، والتصرُّف التام ، والسلطان القاهر . وكذا قوله تعالى : ﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ فإنه لبيان أنّ مُلكه تعالى ليس بمجرد الاستيلاء عليهم ، والقيام بتدبير أمور سياستهم ، والمتولِّي لترتيب مبادئ حِفظهم وحمايتهم ، كما هو قصارى أمر الملوك ، بل هو بطريق العبودية ، المؤسَّسة على الألوهية ، المقتضية للقدرة التامة على التصرُّف الكلي فيهم ، إحياءً وإماتةً ، وإيجادًا وإعدامًا ، وتخصيص الإضافة إلى الناس مع انتظام جميع العالَمين في سلك ربوبيته تعالى وملكوته وألوهيته للإرشاد إلى مناهج الاستعاذة المرضية عنده تعالى ، الحقيقة بالإعاذة ، فإنّ توسل العبد بربه ، وانتسابه إليه تعالى بالمربوبية والملكية والمعبودية ، في ضمن جنسٍ هو فرد من أفراده ، من دواعي الرحمة والرأفة . وأمره تعالى بذلك من دلائل الوعد الكريم بالإعاذة لا محالة ، ولأنّ المستعاذ منه شر الشيطان ، المعروف بعداوتهم ، مع التنصيص على انتظامه في سلك عبوديته تعالى وملكوته ، رمز إلى إنجائهم من ملكة الشيطان وتسلُّطه عليهم ، حسبما ينطق به قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ (الإسراء:٦٥) فمَن جعل مدارَ تخصيص الإضافة مجرد كون الاستعاذة من

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ (الناس: ١-٦) .

المضار المختصة بالنفوس البشرية فقد قصر في توفية المقام حقه ، وتكرير المضاف إليه لمزيد الكشف والتقرير والتشريف . قاله أبو السعود . والآية من باب الترقِّي ، وذلك أنّ الرب قد يُطلق على كثير من الناس ، فتقول : فلان رب الدار ، وشبه ذلك ، فبدأ به لاشتراك معناه ، وأمّا المَلك فلا يُوصف به إلاَّ آحاد من الناس ، وهم الملوك ، ولا شك أنهم أعلى من سائر الناس ، فلذلك جيء به بعد الرب ، وأمّا الإله فهو أعلى من المَلك ، ولذلك لا يَدّعي الملوكُ أنهم آلهة ، وإنما الإله واحد لا شريك له ولا نظير . قاله ابن جزي . ﴿ **مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ** ﴾ أي : الموسوِس ، فالوسواس مصدر ، كالزلزال ، بمعنى اسم الفاعل ، أو سمي به الشيطان مبالغةً ، كأنه نفس الوسوسة ، و ﴿ **ٱلْخَنَّاسِ** ﴾ الذي عادته أن يخنس ، أي : يتأخر عند ذكر الإنسان ربّه ، ﴿ **ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ** ﴾ إذا غفلوا عن ذكر الله ، ولم يقل : في قلوب الناس ؛ لأنّ الشيطان محله الصدور ، ويمدّ منقاره إلى القلب ، وأمّا القلب فهو بيت الرب ، وهو محل الإيمان ، فلا يتمكن منه كل التمكُّن ، وإنما يحوم في الصدر حول القلب ، فلو تمكّن منه لأفسد على الناس كلهم إيمانهم . قال ابن جزي : وسوسة الشيطان بأنواع كثيرة ، منها : فساد الإيمان والتشكيك في العقائد ، فإن لم يقدر على ذلك ثبّطه عن الطاعات ، فإن لم يقدر على ذلك أدخل الرياء في الطاعات ليُحبطها ، فإن سَلِمَ من ذلك أدخل عليه العجب بنفسه ، واستكثار عمله ، ومن ذلك : أنه يُوقد في القلب نار الحسد والحقد والغضب ، حتى يقود الإنسان إلى سوء الأعمال وأقبح الأحوال ، وعلاج وسوسته بثلاثة أشياء ، وهي : الإكثار من ذكر الله ، والإكثار من الاستعاذة منه ، ومن أنفع شيءٍ في ذلك : قراءة سورة الناس . اهـ . قلت : لا يقلع الوسوسة من القلب بالكلية إلاّ صُحبة العارفين ، أهل التربية ، حتى يُدخلوه مقامَ الفناء ، وإلاَّ فالخواطر لا تنقطع عن العبد ، ثم بَيّن الموسوِس بقوله : ﴿ **مِنَ ٱلْجِنَّةِ** ﴾ أي : الجن ﴿ **وَٱلنَّاسِ** ﴾ ووسواس الناس أعظم ؛ لأنّ وسواس الجن يذهب بالتعوُّذ ، بخلاف وسوسة

الناس ، والمراد بوسوسة الناس : ما يُدخلون عليك من الشُّبه في الدين ، وخوض في الباطن ، أو سوء اعتقاد في الناس ، أو غير ذلك . قال ابن جزي : فإن قلت : لِمَ ختم القرآن بالمعوذتين ، وما الحكمة في ذلك ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه ، الأول : قال شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير : لمَّا كان القرآنُ من أعظم نِعم الله على عباده ، والنعمة مظنة الحسد ، ختم بما يُطفئ الحسد ، من الاستعاذة بالله . الثاني : يَظهر لي أنّ المعوذتين ختم بهما لأنّ رسول الله ﷺ قال فيهما : (أنزلت علي آيات لم يُر مثلهن قط) [1] كما قال في فاتحة الكتاب : (لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها) [2] فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها ، واختتم بسورتين لم يرَ مثلهما ، للجمع بين حسن الافتتاح والاختتام . ألا ترى أن الخُطب والرسائل والقصائد ، وغير ذلك من أنواع الكلام ، يُنظر فيها إلى حسن افتتاحها واختتامها .والوجه الثالث : أنه لمّا أمر القارئ أن يفتح قراءته بالتعوُّذ من الشيطان الرجيم ، ختم القرآن بالمعوذتين ليحصل الاستعاذة بالله عند أول القراءة وعند آخر ما يقرأ من القرآن ، فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء ، فيكون القارئ محفوظًا بحفظ الله ، الذي استعاذ به مِن أول أمره إلى آخره . اهـ .

الإشارة : لا يُنجي من الوسوسة بالكلية إلاّ التحقُّق بمقام الفناء الكلي ، وتعمير القلب بأنوار التجليات الملكوتية والأسرار الجبروتيه ، حتى يمتلئ القلب بالله فحينئذ تنقلب وسوسته في أسرار التوحيد فكرةً ونظرةً وشهودًا للذات الأقدس ، كما قال الشاعر :

إن كان للنـــاس وســـواس يوسوســـهم فأنـــت والله وسواســـي وخناســـي .

وبالله التوفيق[3].

---

(١) صحيح مسلم (٨١٤) .

(٢) موطأ الإمام مالك (٣٦٦) .

(٣) تفسير البحر المديد ٨/٣٧٧-٣٧٩ .

ودليل الاستغاثة قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ (الأنفال:٩) [1]

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : واذكروا حين كنتم ﴿ **تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ** ﴾ وتدعون بالغوث والنصر ، وذلك أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لمّا علموا ألا محيص لهم عن القتال أخذوا يقولون : ربنا انصرنا على عدوك ، يا غياث المستغيثين أغثنا . وعن عمر : رضي الله عنه (أنه ﷺ نَظر إلى المُشركين وهم ألفٌ ، وإلى أصحابِه وهم ثَلاثمائة ، فاستقبلَ القبلة ومدّ يديه يدعوه : اللهم أنجِز لى ما وعدتني ، اللهمّ إن تهلِك هذه العصابة لن تُعبد في الأرض ، فما زال كذلك حتى سقط رداؤُه ، فقال أبو بكر : يا نبيّ اللّه ، كفاكَ مُناشَدتك ربّك ، فإنه سينجزُ لك ما وعَدك) [2]. وقد تقدم أن الأنبياء وكبراء الأولياء لا يقفون مع ظاهر الوعد والوعيد ، لسعة دائرة علمهم ، بل لا يزول اضطرارهم ، ولا يكون مع غير الله قرارهم ، ولعل ذلك الوعد يكون متوقفًا على شروط أخفاها الحق تعالى لتظهر قهريته وانفراده بالعلم المحيط . ولما استغاثوا بالله وأظهروا الحاجة إليه أجابهم فقال : ﴿ **فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم** ﴾ مقويكم ومكثركم ﴿ **بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴾ يتبع بعضهم بعضًا ، ويتبع المؤمنين ، فكانوا خلفهم ردءًا لهم ، فمن قرأ بفتح الدال فهو اسم مفعول ، ومن قرأه بالكسر فاسم فاعل ، وصح معنى القراءتين ، لأن الملائكة المنزلين يتبع

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (الأنفال:٩،١٠) .

(٢) صحيح مسلم (١٧٦٣) .

بعضهم بعضًا ، فمنهم تابعون ومتبوعون ، ومن قرأ بالفتح فالمراد مردفين بالمؤمنين ، فكانوا مقدمة الجيش ، ومن قرأ بالكسر فالمراد مردفين للمؤمنين تابعين لهم ، فكانوا ساقة للجيش . ثم ذكر حكمة الإمداد بقوله : ﴿ **وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ** ﴾ أي : الإمداد ، ﴿ **إِلَّا بُشْرَىٰ** ﴾ أي : بشارة بالنصر ، ﴿ **وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ** ﴾ فيزول ما بها من الوجل لقلتكم ، ﴿ **وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ** ﴾ لا يتوقف على سبب ، ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ** ﴾ لا يغلب ، ﴿ **حَكِيمٌ** ﴾ في تدبير الأسباب وترتيبها رداء للقدرة الأزلية ، فإمداد الملائكة ، وكثرة العدد ، والتأهب ، وسائط ، لا تأثير لها ، فلا تحسبوا النصر منها ، ولا تيأسوا منه بفقدها ، فحُكم الأزل جلّ أن يضاف إلى العلل .

الإشارة : إظهار الفاقة والابتهال لا يقدح في صحة التوكل على الكبير المتعال ، بل هو شرف للإنسان ، وتقريب من الكريم المنان ، بل من شأن العارف الكامل الرجوع إلى اللّه في كل شيء ، والتعلق به في كل حال ، ولو وعده بالنصر أو الإجابة ، لا يقطع عنه السؤال ، عبوديةً وتملقًا بين يدى الحبيب . وقد اختلف الصوفية : أي الحالين أشرف : هل الدعاء والتضرع ؟ أو السكوت والرضى تحت مجارى الأقدار؟ وقال بعضهم : يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه ، صاحب رضى بقلبه ، ليجمع بين الأمرين . قال القشيري : والأَولى أن يُقال : إن الأوقات مختلفة ، ففي بعض الأحوال الدعاء أفضل ، وفي بعض الأحوال السكوت أفضل ، وإنما يُعرف ذلك في الوقت لأن علم الوقت يحصل في الوقت ، فإذا وجد في قلبه إشارة إلى الدعاء فالدعاء منه أولى ، وإذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت أتم . اهـ . . . وبالله التوفيق(١) .

---

(١) تفسير البحر المديد ٣/٩ ، ١٠ .

ودليل الذبح قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ (الأنعام:١٦٢،١٦٣)[(١)]

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم يا محمد : ﴿ **إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي** ﴾ أي : عبادتي كلها ، وقرباتي أو حجي ، ﴿ **وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي** ﴾ أي : وعملي في حياتي ، وعند موتي من الإيمان والطاعة ، أو الحياة والممات أنفسهما ، ﴿ **لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ** ﴾ أي : هي خالصة لله لا أشرك فيها غيره ، ﴿ **وَبِذَٰلِكَ** ﴾ أي : بذلك القول والإخلاص ، أمرني ربي ، ﴿ **وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ ؛ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته . ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم : ﴿ **أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا** ﴾ فأشرك مع اللّه ، ﴿ **وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ لأن كل شيء مربوب لا يصلح للربوبية . وهو جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم . ﴿ **وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ** ﴾ من شرك أو غيره ﴿ **إِلَّا عَلَيْهَا** ﴾ وزره ، فلا ينفعني ضمانكم وكفالتكم من عقاب ربي ، وهو رد على الكفار حيث قالوا له : اعبد آلهتنا ونحن نتكفل لك بكل تباعة تتوقعها في دنياك وأخراك ، ثم أوضح ذلك بقوله : ﴿ **وَلَا تَزِرُ** ﴾ أي : تحمل نفس ﴿ **وَازِرَةٌ** ﴾ أي : آثمة ﴿ **وِزْرَ** ﴾ نفس ﴿ **أُخْرَىٰ** ﴾ أي : لا يحمل أحد ذنوب أحد ، ﴿ **ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ** ﴾ بالبعث والحساب ، ﴿ **فَيُنَبِّئُكُمْ** ﴾ ، أي : يُخبركم ﴿ **بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ من أمر الدين ، فيبين الرشد من الغي ، والمحق من المبطل .

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٤) .

الإشارة : الإخلاص سر من أسرار الله ، يُودعه قلب من أحب من عباده ، وهو إخلاص العبودية لله وحده ، ولا يتحقق ذلك للعبد إلا بعد تحرره من رق الهوى وخروجه من سجن وجود نفسه ، وهذا شيء عزيز . ولذا قيل لسهيل ابن عبد الله رضي الله عنه : أي شيء أشد على النفس ؟ قال : الإخلاص ، لأنه ليس لها فيه نصيب . وقال يوسف بن الحسين رضي الله عنه : أعز شيء في الدنيا الإخلاص ، وقد اجتهدت في إسقاط الرياء من قلبي ، فكأنه ينبت على لون آخر . وقال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه : الإخلاص عند المخلصين : إخراج الخلق من معاملة الخالق ، وأول الخلق : النفس ، والإخلاص عند المحبين : ألا يعمل عملاً لأجل النفس ، وألا يدخل عليه مطالعة العوض ، أو تشوف إلى حظ طبع ، والإخلاص عند الموحدين : خروج الخلق من النظر إليهم ، أي : لا يرون مع الله غيره في الأفعال ، وترك السكون إليهم ، والاستراحة إليهم في الأحوال . اهـ[(١)] .

ومن السنة : (لعَن الله من ذَبح لغيرِ الله)[(٢)]

الشرح :

قال المناوي[(٣)] :

(لعَن الله من ذَبح) وفي رواية لمسلم بدله « من أهل » وهو بِمعناه (لغير الله)

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/٣٣٢ .

(٢) صحيح مسلم (١٩٧٨) .

(٣) هو محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (٩٥٢هـ-١٠٣١،١٥٤٥-١٦٢٢م) : من كبار العلماء بالدين والفنون . انزوى للبحث والتصنيف ، وكان قليل الطعام كثير السهر ، فمرض وضعفت أطرافه ، فجعل ولده تاج الدين محمد يستملي منه تآليفه . له نحو ثمانين مصنفا ، منها الكبير والصغير والتام والناقص . عاش في القاهرة ، وتوفي بها . من كتبه (كنوز الحقائق) في الحديث ، و (التيسير) في شرح الجامع الصغير ، مجلدان ، اختصره من شرحه الكبير(فيض القدير) و(شرح الشمائل للترمذي) و(الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية) .انظر : خير الدين الزركلي« الأعلام» (٦/٢٠٤).

بأن يَذبح باسم غيرِ الله كصنمٍ أو صليبٍ أو لموسى أو عيسى أو الكَعبة فكله حرام ولا تَحل ذبيحتهُ ، بل إن قصَد به تعظيم المَذبوح له وعبادتهِ كفر . قال ابن العربي : وفيه أن آكد ما في الأضحية إخلاصُ النية لله العظيم بها[1] .

ودليل النذر قوله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴾ (الإنسان:٧)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ** ﴾ بما أَوجبوا على أنفسهم من الطاعات ، وهو استئناف مسوق لبيان ما لأجله رُزقوا ما ذكر من النعيم ، كأنه قيل : ماذا كانوا يفعلون حتى نالوا تلك الرتبة العالية ؟ فقال : يُوفون بما أوجبوا على أنفسهم ، فكيف بما أوجبه اللهُ عليهم ؟ ﴿ **وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ** ﴾ ؛ شدائده أو عذابه ﴿ **مُسۡتَطِيرٗا** ﴾ ؛ منتشراً فاشيًا في أقطار الأرض غاية الانتشار ، من : استطار الفجر : انتشر[2] .

(الأصل الثاني) : معرفة دين الإسلام بالأدلة .

وهو الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والبراءة من الشرك وأهله ، وهو ثلاث مراتب : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، وكل مرتبة لها أركان .

فأركان الإسلام خمسة : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج بيت الله الحرام .

فدليل الشهادة قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (آل عمران:١٨)

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣٥١/٥ .

(٢) تفسير البحر المديد ١٩٦/٨ .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ** ﴾ أي : بيّن وحدانيتَه بنصب الدلائل الدالة عليها ، وإنزال الآيات الناطقة بها ، أو بتدبيره العجيب وصنعته المتقنة وأموره المحكمة ، وفي ذلك يقول القائل :

يـا عجبًـا كيـف يُعصـى الإلـه — أم كيـف يجحـدُه الجاحـد؟! .

وللّـه في كـل تحريكـة — وتسـكينةٍ أبـدًا شـاهد .

وفي كـلّ شـيءٍ لـه آيـةٌ — تـدلّ علـى أنّـه واحـد .

وقيل لبعض العرب : ما الدليل على أن للعالم صانعًا ؟ فقال : البعرة تدل على البعير ، وآثار القدم تدل على المسير ، فهيكل علوي بهذه اللطافة ، ومركز سفلي بهذه الكثافة ، أما يدلان على الصانع الخبير؟! (وَ) شهدت ﴿ **وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ** ﴾ أيضًا بالإقرار بالوحدانية والإخبار بها ، ﴿ **وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ** ﴾ وهم : الأنبياء والعلماء باللّه ، بالإيمان بها والاحتجاج عليها ، شبه ذلك في البيان والكشف بشهادة الشاهد . وفيه دليل شرف أهل العلم وفضلهم ، حيث قرن شهادتهم بشهادته لأن العلم صفة اللّه العليا ونعمته العظمى ، والعلماء أعلام الإسلام ، والسابقون إلى دار السلام ، وسرج الأمكنة وحجج الأزمنة . وعن جابر قال : قال النبي ﷺ : (ساعةٌ من عالم يتّكئ على فِراشه ، ينظر في علمه ، خيرٌ من عبادة العابد سبعين عامًا) [(١)]. وعن معاذ قال : قال النبي ﷺ : (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشيةٌ ، ومدارسته تسبيحٌ ، والبحث فيه جهادٌ ، وتعليمه من لا يعلمه صدقةٌ ، وتذكّره في أهله قُربة) . ثم قال في آخر الحديث في فضل أهل العلم : (وترغبُ الملائكة في خُلّتهم ، وبأجنحتها تمسحُهم ، وفي صلاتها تستغفر لهم ، وكلّ رطب ويابس يستغفر لهم . حتى حيتان البحر وهوامّه ، وسباع الأرضين

---

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٣٩٧٨) : موضوع .

وأنعامها ، والسماء ونجومها ، ألا وإن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ بالعبد منزل الأحرار ومجالسة الملوك ، والفكر فيه يُعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وبه توصل الأرحام ، العلم إمام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء)[1]. حال كون الحق تعالى ﴿ **قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ** ﴾ أي : مُدبِّرا لأمر خلقه بالعدل ، فيما حكم وأبرم ، (لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ) ، كرر الشهادة للتأكيد ، ومزيد الاعتبار بأمر التوحيد ، والحكم به ، بعد إقامته الدليل عليه وقال جعفر الصادق : (الأولى وصف وتوحيد ، والثانية رسم وتعليم) . أي : قولوا : ﴿ **لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ** ﴾ ، أو ليرتب عليه قوله : ﴿ **ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ ، فيعلم أنه الموصوف بهما ، وقدّم (العزيز) ليتقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته[2].

ومعناها : لا معبود بحق إلا الله وحده ﴿ لَآ إِلَٰهَ ﴾ نافيًا ما يعبد من دون الله . (إلا الله) مثبتًا العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته ، كما أنه ليس له شريك في ملكه . وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الزخرف:٢٦-٢٨) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ** ﴾ أي : واذكر وقت قوله عليه السلام ﴿ **لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ** ﴾ المُنكّبين على التقليد ، كيف تبرأ مما هم فيه بقوله : ﴿ **إِنَّنِى بَرَآءٌ** ﴾ أي : بريء ﴿ **مِّمَّا تَعْبُدُونَ** ﴾ ، وتمسك بالبرهان ، وذكر قصته ليسلكوا مسلكه في الاستدلال ، أو : ليقلدوه ، إن لم يكن لهم بُد من التقليد ؛ فإنه أشرف آبائهم .

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٥٢٩٣) : موضوع .

(٢) تفسير البحر المديد ٢٩٩/١ ، ٣٠٠ .

و ﴿ بَرَآءٌ﴾ : مصدر ، يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع ، والمذكر والمؤنث ، كرجل عدل ، وامرأة عدل ، وقوم عدل . و(ما) : إما مصدرية ، أو : موصولة ، أي : بريء من عبادتكم ومن معبودكم ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ ؛ استثناء متصل ، أو : منقطع ، على أن (ما) تعم أُولي العلم وغيرهم ، وأنهم كانوا يعبدون الله تعالى والأصنام ، أو : صفة ، على أن (ما) موصوفة ، أي : إنني براء من آلهة تعبدونها غير الذي (فطرني) ؛ خلقني ﴿ فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ ؛ يثبتني على الهداية ، أو : سيهدين إلى ما وراء الذي هداني إليه الآن . والأوجه : أن السين للتأكيد دون التسويف ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار .

﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ أي : وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد التي تكلّم بها ، وهي قوله : ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ ، ﴿ كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ أي : في ذريته ، حيث وصَّاهم بها ، كما نطق بها قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ ﴾ (البقرة:١٣٢) ، فلا يزال فيهم مَن يوحّد الله تعالى ، ويدعوهم إلى توحيده . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي : جعلها باقية في ذريته رجاء أن يرجع إليها مَن أشرك منهم بدعاء الموحّد .

الإشارة : كان إبراهيم عليه السلام إمام أهل التوحيد ، لقوله تعالى : ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ، وجعل الدعوة إليه في عقبه إلى يوم القيامة ، وهو على قسمين : توحيد البرهان ، وتوحيد العيان . وقد جاءت بعده الرسل بالأمرين معًا ، وقام بها خلفاؤهم بعدهم ، فقام بالأول العلماء ، وقام بالثاني خواص الأولياء ، أهل التربية الحقيقية ، ولا ينال من توحيد العيان شيئًا مَن علق قلبه بالشهوات الجسمانية ، والحظوظ الفانية ، كما قال الششتري رضي الله عنه :

تَركنا حُظوظًا من حضيض لُحُوظنا   مع المقصد الأقصى إلى المطلب الأسنى .

وكل مَن تمتع بذلك ، وانهمك فيه حُرِم بركة صحبة العارفين إذ يمنعه ذلك من حط رأسه ، ودفع فلسه ، فينخرط في سلك قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ (الزخرف:٢٩) الآية . وكلّ زمان له رسول ، خليفةٌ عن الرسول ﷺ يدعو إلى الحق ومعرفته . وباللّه التوفيق[١].

وقوله : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:٦٤)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد : ﴿ **يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ** ﴾ اليهود والنصارى ، ﴿ **تَعَالَوْاْ** ﴾ : هلموا ﴿ **إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ** ﴾ أي : عدل مستوية ، ﴿ **بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ** ﴾ لا يختلف فيها الرسل والكتب والأمم ، هي ﴿ **أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ** ﴾ أي : نوحده بالعبادة ، ونقر له بالوحدانية ، ﴿ **وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا** ﴾ أي : لا نجعل غيره شريكًا له في استحقاق العبادة ، ﴿ **وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ أي : لا نقول عزير ابن اللّه ، ولا المسيح ابن اللّه ، ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل ، لأنهم بشر مثلنا . ولمّا نزل قوله تعالى : ﴿ **ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ (التوبة:٣١) قال عدي بن حاتم : ما كنّا نعبدهم يا رسول اللّه ، قال : (أليس كانوا يُحلّون لكم ويُحرّمون ، فتأخُذون بقولِهم؟ قال : بلى ، قال : هُو ذاك)[٢]، ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْاْ** ﴾

---

(١) تفسير البحر المديد ١١/٧-١٣ .

(٢) سنن الترمذي (٣٠٩٥) وفيه : حدثنا الحسين بن يزيد الكوفي حدثنا عبد السلام ابن حرب عن غطيف بن أعين عن مصعب بن سعد عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال : يا عدي اطرح عنك ==

وأعرضوا عن التوحيد ﴿ **فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ ، فقد لزمتكم الحجة ، فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم ، وأنتم كافرون بما نطقت به الكتبُ وتواطأت عليه الرسل .

تنبيه : انظر ما في هذه الآية من المبالغة وحسن التدرج في الاحتجاج ، بيّن أولاً أحوال عيسى[1] وما تطاور عليه من الأطوار المنافية للألوهية ، ثـم ذكـر ما يحل عقدتهم ويزيح شبهتهم ، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز ، ثم لمّا أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد ، عاد عليهم بالإرشاد ، وسلك طريقًا أسهل وألزم ، بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى وسائر الأنبياء والكتب ، ثم لمّا لم يُجد ذلك فيهم شيئًا ، وعلم أن الآيات والنذر لا تغني عنهم شيئا أعرض عنهم ، وقال : ﴿ **فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ . قاله البيضاوي .

الإشارة : الطرق كثيرة والمقصد واحد ، وهو التوحيد الخاص ، أعني مقام الفناء والبقاء . فالداعُون إلى اللّه كلهم متفقون على الدعوة إلى هذا المقصد ، فكل طريق لا توصل إلى هذا المقصد لا عبرة بها ، وكل داع لا يبلغ إلى هذا الجمال فهو دجال ، فإن رضي بتعظيم الناس ، ولم يَبن طريقه على الأساس ، فليس لصاحبه إلا الإفلاس ، وكل من أطاع المخلوق في معصية اللّه فقد اتخذه ربًّا من دون اللّه ، وكل من تولى عن طريق الإرشاد فقد استوجب لنفسه الطردَ

==هذا الوثن ، وسمعته يقرأ في سورة براءة «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» ، قال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حـرمـوا عليهم شيئا حـرمـوه . قال أبـو عيسى : هـذا حـديـث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث . قال الألباني : حديث حسن .

(١) في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ (آل عمران:٥٩) .

والبعاد ، فيقول له الواصلون أو السائرون : ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ . وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق[1] .

ودليل شهادة أن محمداً رسول الله قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة:١٢٨)

يقول الحق جل جلاله : مخاطبًا العرب ، أو قريش ، أو جميع بـنـي آدم : ﴿ **لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ** ﴾ محمدٌ ﷺ ، أي : من قبيلتكم ، بحيث تعرفون حسبه وصدقه وأمانته ، وتفهمون خطابه ، أو من جنسكم من البشر . وقرأ ابن نشيط : بفتح الفاء ، أي من أشرافكم . قال ﷺ : (إِن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشًا مِن كنانةَ ، واصطفى بني هاشم مـن قريشٍ ، واصطفاني من بـنـي هاشم ، فأنا مصطفى من مُصطَفين)[2] ﴿ **عَزِيزٌ عَلَيْهِ** ﴾ ، أي : شديد شاق عليه ﴿ **مَا عَنِتُّمْ** ﴾ أي : عنتكم ومشقتكم ولقاؤكم المكروه في دينكم ودنياكم . ﴿ **حَرِيصٌ عَلَيْكُم** ﴾ أي : على إيمانكم وسعادتكم وصلاح شأنكم ، ﴿ **بِٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ منكم ومن غيركم ﴿ **رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ أي : شفيق بهم ، قدّم الأبلغ منهما لأن الرأفة شدة الرحمة للفاصلة ، وسمى رسوله هنا باسمين من أسمائه تعالى .[3]

ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله : طاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، واجتناب ما نهى عنه وزجر ، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع .

ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعـالـى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ (البينة:٥)

---

(١) تفسير البحر المديد ١/٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٢) صحيح مسلم (٢٢٧٦) .

(٣) تفسير البحر المديد ٣/١٣٥ ، ١٣٦ .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

﴿ **وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ** ﴾ أي : ما أُمروا في التوراة والإنجيل إلاّ لأجل أن يعبدوا الله وحده من غير شرك ولا نفاق ، ولكنهم حرّفوا وبدّلوا . وقيل : اللام بمعنى « أن » أي : إلاّ بأن يعبدوا الله ﴿ **مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ** ﴾ أي : جاعلين دينَهم خالصًا له تعالى ، أو : جاعلين أنفسهم خالصة له في الدين . قال ابن جُزي : استدل المالكية بهذا على وجوب النية في الوضوء ، وهو بعيد ؛ لأنّ الإخلاص هنا يُراد به التوحيد وترك الشرك ، أو ترك الرياء . انظر كلامه ، وسيأتي بعضه في الإشارة . ﴿ **حُنَفَآءَ** ﴾ مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام ، ﴿ **وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ** ﴾ إن أريد بهما ما في شريعتهم من الصلاة والزكاة ، فالأمر ظاهر ، وإن أريد ما في شريعتنا فمعنى أمرهم بهما في الكتابين أمرهم بالدخول في شريعتنا ، ﴿ **وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ** ﴾ أي : الملة المستقيمة . والإشارة إلى ما ذكر من عبادة الله وحده وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وما فيه من معنى البُعد للإشعار بعُلو رتبته وبُعد منزلته .

الإشارة : لم يكن الذين جحدوا وجودَ أهل الخصوصية من العلماء والجهّال منفكين عن ذلك حتى جاءتهم الحُجة القائمة عليهم ، وهو ظهور شيخ التربية خليفة الرسول ، يتلو كتابَ الله العزيز على ما ينبغي ، وما تَفَرّقوا في التصديق إلاّ بعد ظهوره . وما أُمروا إلاّ بالإخلاص وتطهير سرائرهم ، وهو لا يتأتى إلاّ بصُحبته . وتكلم ابنُ جزي هنا على الإخلاص ، فقال : اعلم أنّ الأعمال على ثلاثة أنواع : مأمورات ومنهيات ومباحات ؛ فأمّا المأمورات فالإخلاص فيها عبارة عن : خلوص النية لوجه الله ، بحيث لا يشوبها أُخرى ، فإن كانت كذلك فالعمل خالص ، وإن كانت لغير وجه الله من طلب منفعة دنيوية أو مدح أو غير ذلك ، فالعمل رياء محض مردود ، وإن كانت النية مشتركة ؛ ففي ذلك تفصيل ، فيه نظر واحتمال . قلت : وقد تقدّم كلام الغزالي

في سورة البقرة عند قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (البقرة:١٩٨) ، وحاصله : أنَّ الحكم للغالب وقوة الباعث . انظر لفظه . ثم قال ابن جزي : وأمَّا المنهيات فإنْ تَركها دون نية خرج عن عهدتها ولم يكن له أجر في تركها ، وإن تركها بنية وجه الله خرج عن عهدتها وأُجر . وأمَّا المباحات ، كالأكل والشرب ، والنوم والجماع وغير ذلك ، فإن فَعَلَها بغير نية لم يكن له فيها أجر ، وإن فَعَلَها بنية وجه الله فله فيها أجر ، فإنَّ كُلَّ مباح يمكن أن يصير قُربة إذا قصد به وجه الله ، مثل أن يقصد بالأكل القوة على العبادة ، ويقصد بالجِمَاع التعفُّف عن الحرام ، وشبه ذلك . اهـ . ودرجات الإخلاص ثلاث : الأولى : أن يعبد الله لطلب غرض دنيوي أو أخروي من غير ملاحظة أحد من الخلق ، والثانية : أن يعبد الله لطلب الآخرة فقط ، والثالثة : أن يعبد الله عبودية ومحبة[١] .

ودليل الصيام قوله تعالى : ﴿ يَآأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ يَآأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فُرض عليكم ﴿ ٱلصِّيَامُ ﴾ كما فرض ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ من الأنبياء وأمَمِهم من لدن آدم ، فلكم فيهم أسوة ، فلا يشق عليكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ المعاصي ، فإن الصوم يكسر الشهوة . ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : (من استَطاع منكم الباءَة فليتَزوّج ، ومن لم يستطع فعليه بالصّوم ، فإنّه له وِجاء)[٢] [٣] .

---

(١) تفسير البحر المديد ٣٣٥/٨ ، ٣٣٦ .

(٢) صحيح البخاري (٤٧٧٨) .

(٣) تفسير البحر المديد ١٨٤/١ .

ودليل الحج قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران:٩٧) [١]

التفسير :

قال ابن عجيبة :

﴿ **فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ** ﴾ واضحات ، منها : الحجر الذي هو ﴿ **مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ** ﴾ ، وهو الذي قام عليه حين رفع القواعد من البيت ، فكان كلما طال البناء ارتفع به الحجر في الهواء ، حتى أكمل البناء ، وغرقت فيه قدمه كأنه طين ، ومنها : أن الطير لا تعلوه ، ومنها : إهلاك أهل الفيل وردّ الجبابرة عنه ، ونبع زمزم لهاجر بهمز جبريل عليه السّلام ، وحفر عبد المطلب لها بعد دُثورها ، وأن ماءها ينفع لما شُرب له ، ﴿ **وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا** ﴾ من العقاب في الدارين لدعاء الخليل : ﴿ **رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا** ﴾ (إبراهيم:٣٥) ، فكان في الجاهلية كل من فعل جريمةً ، ثم لجأ إليه لا يُهاج[٢] ولا يعاقب مادام به ، وأما في الإسلام فإن الحرم لا يمنع من الحدود ولا من القصاص . وقال أبو حنيفة : الحكم باق ، وإن من وجب عليه حد أو قصاص فدخل الحرم لا يهاج ، ، لكن يُضيّق عليه ، فلا يطعم ولا يباع له حتى يخرج . قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : (من مات في أحد الحرمين بعثه اللّه من الآمنين)[٣] وقال أيضا : (من حجّ هذا البيت ـ فلم يرفث ، ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه)[٤]. ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ** ﴾ فرض عين على ﴿ **مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** ﴾ بالقدرة على الوصول

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ (آل عمران:٩٧) .

(٢) قال محققه : لا يُهاج : أي لا يقاتل .

(٣) سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (٦/٣١٩-٣٢٣) .

(٤) صحيح البخاري (١٧٢٣)(١٧٢٤) ، صحيح مسلم (١٣٥٠) .

بصحة البدن ، راجلاً أو راكبًا مع الزاد المُبلّغ ، والأمن على النفس والمال والدين . وقيل : الاستطاعة : الزاد والراحلة . ﴿ وَمَن ﴾ تركه ، و﴿ كَفَرَ ﴾ به ، كاليهود والنصارى ، وكل من جحده ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ ﴾ عنه ، و﴿ عَنِ ﴾ حجه ، وعن جميع ﴿ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ، أو عبر بالكفر عن الترك ، تغليظًا كقوله : (من ترك الصّلاة فقد كفر) [1] روى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما نزل صدر الآية ـ جمع أرباب الملل ، فخطبهم ، وقال : (إن الله كتب عليكم الحج فحجوا) [2]، فآمنت به ملة واحدة ، وكفرت به خمس ملل ، ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ إلخ [3].

المرتبة الثانية : الإيمان : وهو بضع وسبعون شعبة ، فأعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان .

وأركانه ستة : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر خيره شره .

والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (البقرة:١٧٧) [4]

---

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (٢٥٠٨) .

(٢) صحيح مسلم (١٣٣٧) وفيه : حدثني زهير بن حرب حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا الربيع بن مسلم القرشي عن محمد بن زياد عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله ﷺ : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ، ثم قال : ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه ».

(٣) تفسير البحر المديد ٣٤٩/١ ، ٣٥٠ .

(٤) تمام الآية : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٧٧) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

قلت : لمّا ذكر الحق تعالى التوحيد وبراهينه الذي هو رأس الدين ، وحذّرَ من الشرك وفروعه ، ذكر هنا بقية أركان الدين ، وهي الإيمان والإسلام ، فذكر في هذه الآية قواعد الإيمان وبعض قواعد الإسلام وهي الصلاة والزكاة ، ثم ذكر بعد ذلك الصيام وأحكامه ، ثم ذكر الحج وأركانه ، ثم ذكر الجهاد والنكاح والطلاق والعدّة ، ثم ذكر البيوع وما يتعلق بها من الربا ، ثم الشهادات والرهان ، وبها ختم السورة . لكن الحديث ذو شُجون ، والكلام يجرّ بعضه بعضًا ، فقوله : ﴿ **لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ** ﴾ : اسم ليس وخبرها ، وكلاهما مُعرّفتان ، الأول بأل والثاني بالإضافة ، إذا التقدير : توليةُ وجوهكم ، فمن رجّح تعريف الألف واللام ، جعل ﴿ **ٱلْبِرَّ** ﴾ اسمها ، و﴿ **أَن تُوَلُّواْ** ﴾ خبرها ، وبه قرأ الأكثر ، ومن رجح الإضافة جعل ﴿ **ٱلْبِرَّ** ﴾ خبرها مقدمًا ، والمصدر اسمها مؤخرًا ، وبه قرأ حمزة وحفص . وقوله : ﴿ **وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ** ﴾ مَن خفّفَ جعلها عاطفة الجملة ، و﴿ **ٱلْبِرَّ** ﴾ مبتدأ ، و﴿ **مَنْ ءَامَنَ** ﴾ خبر على حذف مضاف ، أي : بِر من آمن إذ لا يُخبَر بالذات عن المعنى ، أو قصد المبالغة ، ومن شدّد نصب بها ، لوقوعها بين جملتين ، وهي استدراكية ، ﴿ **عَلَىٰ حُبِّهِۦ** ﴾ حال من المال ، ﴿ **وَٱلصَّٰبِرِينَ** ﴾ نصب على المدح ، ولم يعطفه بالرفع لفضل الصبر وشرفه .

يقول الحق جل جلاله : في الرد على أهل الكتاب : ﴿ **لَّيْسَ ٱلْبِرَّ** ﴾ محصورًا في شأن القبلة ، ﴿ **وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ** ﴾ الذي ينبغى أن يُعتنى بشأنه هو الإيمان باللّه ، وما يجب له من الكمالات ، وباليوم الآخر وما بعده ، وبالملائكة وما يجب أن يعتقد في شأنهم ، والكتاب المنزل من السماء كالقرآن وغيره ، ﴿ **وَٱلنَّبِيِّۦنَ** ﴾ وما يجب لهم وما يستحيل في حقهم . فالبر هو بر من اعتقد في قلبه هذه الأشياء ، وأظهر على جوارحه ما يصدق صحة اعتقادها ، وذلك كالاتصاف بالسخاء والكرم ، فأعطى المال على محبته له ، أي : مع حبه ، فقد

سئل ـ عليه الصلاة والسلام ـ : (أي الصّدَقةِ أفضل؟ فقال : أن تَتصدّق وأنت صحيحٌ شحيحٌ ، تأمُل الغنى وتخشى الفقر) [1]. ﴿ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ ﴾ على حب الله ، لا جزاء ولا شكوراً ، فأعطى ذلك المال ذوي قرابته المحاويج ، وقدّمهم لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : (صدقتُك على المساكين صدقةٌ ، وعلى ذوي القُربى اثنتان صدقةٌ وصلةٌ) [2]. وأعطى ﴿ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ ﴾ لإهمالهم ، وأعطى ﴿ وَٱلۡمَسَٰكِينَ ﴾ الذين أسكنهم الفقر في بيوتهم ، ﴿ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وهو المسافر الغريب ، كأن الطريق ولَدته ، أو الضيف ﴿ وَٱلسَّآئِلِينَ ﴾ ألجأتهم الحاجة إلى السؤال . وفي الحديث : (أعطِ السائل ولو على فَرسه) [3]. وقال أيضا ﷺ : (هدية اللّه إلى المؤمن السائل على بابه) [4]. وأعطى في فَكّ ﴿ ٱلرِّقَابِ ﴾ من الرق أو الأسر . ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ المفروضة ، ﴿ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ المعلومة . ومن أهل البر أيضا : ﴿ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ ﴾ فيما بينهم وبين اللّه ، وفيما بينهم وبين الناس ﴿ إِذَا عَٰهَدُواْ ﴾ اللّه أو عبادَه ، فإذا وعدوا أنجزوا ، وإذا حلفوا أو نذروا أوفوا ، وإذا قالوا صدقوا ، وإذا ائتمنوا أدّوا ، وأخُصّ من أهل البر ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ ﴾ كالفقر والذل وإذاية الخلق ، ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ كالمرض والزّمانة[5]، أو ﴿ ٱلۡبَأۡسَآءِ ﴾ : الأهوال ، و﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ فى الأنفس ، والصابرين ﴿ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ ﴾ أي : الحرب والجهاد ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾ في طلب الحق ، ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ لكل ما يقطع عن الحق ، أو يشغل عنه . فقد اشتملت هذه الآية على كمالات الإنسان بأسرها لاشتمالها على ما يَزين البواطن من الاعتقادات وما يزين الظواهر من

---

(١) صحيح مسلم (١٠٣٢) ، سنن النسائي (٢٥٤٢) قال الألباني : صحيح .
(٢) سنن النسائي (٢٥٨٢) قال الألباني : صحيح .
(٣) سنن أبي داود (١٦٦٥) قال الألباني : ضعيف .
(٤) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٥٩٤) : موضوع .
(٥) قال محققه : الزمانة : مرض يدوم .

المعاملات ، وما يُزكّى النفوس من الرذائل والرعونات ويُحَليها بالمحاسن والكمالات . ولذلك وُصف المتصف بها بالصدق والتقى ، اللذين هما أساسُ الطريقة ومبنى أسرار التحقيق ، وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق .

الإشارة : ليس المطلوب من العبد أن يَتوجّه إلى الحق بجهةٍ مخصوصة ، كما إذا توجه إليه بالظاهر وأهملَ الباطن ، أو توجه بالباطن وأهمل الظاهر ، ولكن المطلوب منه أن يزين باطنه بأنوار الإيمان واليقين ، ويزين ظاهره بسائر وظائف الدين ، ويزكى نفسه من الرذائل كالشح والبخل والغش والخيانة والكذب والخوف والجزع ، ويحليها بأنواع الفضائل كالسخاء والكرم والوفاء بالعهد والأمانة ، والصبر والشجاعة ، والعفة والقناعة ، وسائر أنواع الفضائل ، فإذا تخلى عن الرذائل وتحلى بأضدادها من الفضائل استحق الدخول مع الأبرار ، وكان من العارفين الكبار ، أولئك الذين ظفروا بصدق الطلب فنالوا الغاية من كل مطلب ، وأولئك هم المتقون حق التقاة ، فنالوا أعلى الدرجات ، منحنا اللّه من ذلك الحظ الوافر بمنّه وكرمه[1].

ودليل القدر قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴾ (القمر:٤٩)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : **﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴾** أي : بتقدير سابق في اللوح قبل وقوعه ، قد علمنا حالَه وزمانه قبل ظهوره ، أو : خلقناه كلّ شيء مقدّرًا محكمًا مرتبًا على حسب ما اقتضته الحكمة ، و**﴿ كُلَّ ﴾** : منصوب بفعل يُفسره الظاهر . وقرئ بالرفع شاذًّا ، والنصب أولى لأنه لو رفع لأمكن أن يكون **﴿ خَلَقۡنَٰهُ ﴾** صفة لشيء ، ويكون الخبر مقدرًا ، أي : إنا كل شيء مخلوق لنا حاصل بقدر ، فيكون حجة للمعتزلة ، باعتبار المفهوم ، وأن أفعال العباد غير

---

(١) تفسير البحر المديد ١/١٧٨-١٨٠ .

مخلوقة للّه. فلم يسبق لها قدر، تعالى اللّه عن قولهم، ويجوز أن يكون الخبر: ﴿ خَلَقۡنَٰهُ ﴾، فلا حجة فيه، ولا يجوز في النّصب أن يكون (خلقنا) صفة لشيء لأنه يفسر الناصب، والصفة لا تعمل في الموصوف، وما لا يعمل لا يفسر عاملاً. قال أبو هريرة: جاء مشركو قريش إلى النّبى ﷺ يُخاصمونه في القدر، فنزلت الآية[1]، وكان عمر يحلف أنها نزلت في القدرية، أي: على طريق الإخبار بالغيب[2].

المرتبة الثالثة: الإحسان: ركن واحد، وهو: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك). والدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ (النحل:١٢٨)[3]

التفسير:

قال ابن عجيبة:

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ** ﴾ من آذاكم ﴿ **فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ** ﴾ أي: إن صنع بكم صنيع سوء فافعلوا مثله، ولا تزيدوا عليه. والعقوبة، في الحقيقة، إنما هي في الثانية. وسميت الأولى عقوبة لمشاكلة اللفظ. وقال الجمهور: إن الآية نزلت فى شأن حمزة بن عبد المطلب، لما بقَر المشركون بطنه يوم أحد، قال النبي ﷺ: (لئن أظفَرني اللّه بهم لأُمثّلنّ بسبعينَ منهم). فنزلت الآية[4]، فكفّر النبي ﷺ عن يمينه، وترك ما أراد من المُثلةِ. ولا خلاف أن المثلة حرام، وقد وردت أحاديث بذلك. ومقتضى هذا: أن

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٥٦).

(٢) تفسير البحر المديد ٧/٢٣٦.

(٣) قال الله عزوجل: ﴿ **وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ** ﴾ (النحل:١٢٦-١٢٨)

(٤) مسند البزار (٩٥٣٠).

الآية مدنية . ويحتمل أن تكون الآية عامة ، ويكون ذكرهم حمزة على وجه المثال . وتكون ، على هذا ، مكية كسائر السورة . واختلف العلماء فيمن ظلمه رجل في مال ، ثم ائتمن عليه ، هل يجوز خيانته ، في القدر الذي ظلمه فيه؟ فأجاز ذلك قوم لظاهر الآية ، ومنعه مالك لقوله ﷺ : (أدّ الأمانة لمن ائتمنك ، ولا تخن من خانك) [1]. قاله ابن جزى . ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ ﴾ ، ولم تعاقبوا من أساء إليكم ، ﴿ لَهُوَ ﴾ أي : الصبر ﴿ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ فإن العقوبة مباحة ، والصبر أفضل من الانتقام ، ويحتمل أن يريد بالصابرين هنا العموم ، أو يريد المخاطبين ، كأنه قال : فهو خير لكم . ثم صرح بالأمر لرسوله به لأنه أولى الناس به لزيادة علمه باللّه ، فقال : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ إلا بتوفيقه وتثبيته . روي أنه ﷺ قال لأصحابه : (أما أنا فأصبر كما أمرت ، فماذا تصنعون؟) قالوا : نصبر كما ندبنا . ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ على الكافرين حيث لم يؤمنوا حرصًا عليهم . أو على المؤمنين لأجل ما فعل بهم . ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي : لا يضيق صدرك بمكرهم ، ولا تهتم بشأنهم ، فأنا ناصرك عليهم . والضيق ـ بفتح الضاد مخفّفًا ـ من ضيّق كميت وميّتٍ . وقرئ بالكسر ، وهو مصدر . ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدرين ، معًا ، لِضاق . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ الكفر والمعاصي ، ﴿ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ في أعمالهم ، فهو معهم بالولاية والنصر والرعاية والحفظ . أو مع الذين اتقوا اللّه بتعظيم أمره . والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه . أو مع الذين اتقوا ما يقطعهم عن الله ، والذين هم محسنون بشهود اللّه كما قال النبي ﷺ : (الإحسان أن تعبد اللّه كأنك تراه) [2]. فهو معهم بالمحبة والوداد (فإذا أحببته كنته) [3]. واللّه تعالى أعلم .

---

(١) سنن أبي داود (٣٥٣٤) قال الألباني : صحيح .

(٢) صحيح البخاري (٥٠) ، صحيح مسلم (٨)(٩) .

(٣) في صحيح البخاري (٦١٣٧) : «فإذا أحببته : كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها».

الإشارة : من شأن الصوفية : الأخذ بالعزائم ، والتمسك بالأحسن في كل شيء ، ممتثلين لقوله تعالى : ﴿ **ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ** ﴾ (الزمر:١٨) . ولذلك قالوا : الصوفي : دمه هدر ، وماله مباح لأنه لا ينتصر لنفسه ، بل يدفع بالتي هي أحسن السيئة . فالصبر دأبهم ، والرضي والتسليم خُلقهم . وحقيقة الصبر هي : حبس القلب على حكم الرب ، من غير جزع ولا شكوى . ومواطنه أربعة : الطاعة ، والمعصية ، والنعمة ، والبلية . فالصبر على الطاعة : بالمبادرة إليها ، وعن المعصية : بتركها ، وعلى النعمة : بشكرها ، وأداء حق اللّه فيها ، وعلى البلية : بالرضى وعدم الشكوى بها . وأقسام الصبر ستة : صبر في الله ، وصبر لله ، وصبر مع الله ، وصبر بالله ، وصبر على الله ، وصبر عن الله . أما الصبر في الله : فهو الصبر في طلب الوصول إلى اللّه ، بارتكاب مشاق المجاهدات والرياضات . وهو صبر الطالبين والسائرين . وأما الصبر للّه : فهو الصبر على مشاق الطاعات وترك المنهيات ونزول البليات ، يكون ذلك ابتغاء مرضاة اللّه ، لا لطلب أجر ولا نيل حظ . وهو صبر المخلصين . وأما الصبر مع اللّه : فهو الصبر على حضور القلب مع اللّه ، على سبيل الدوام مراقبة أو مشاهدة .

فالأول : صبر المحبين ، والثاني : صبر المحبوبين . وأما الصبر بالله : فهو الصبر على ما ينزل به من المقادير ، لكنه باللّه لا بنفسه ، وهو صبر أهل الفناء من العارفين المجذوبين السالكين . وأما الصبر على اللّه : فهو الصبر على كتمان أسرار الربوبية عن غير أهلها ، أو الصبر على دوام شهود اللّه . وأما الصبر عن اللّه : فهو الصبر على الوقوف بالباب عند جفاء الأحباب ، فإذا كان العبد فى مقام القرب واجدا لحلاوة الأنس ، مشاهدا لأسرار المعاني ، ثم فقد ذلك من قلبه ، وأحس بالبعد والطرد ـ والعياذ باللّه ـ فليصبر ، وليلزم الباب حتى يمن الكريم الوهاب ، ولا يتزلزل ، ولا يتضعضع ، ولا يبرح عن مكانه ، مبتهلاً ، داعيًا إلى اللّه ، راجيًا كرم مولاه ، فإذا استعمل هذا فقد استعمل الصبر

قيامًا بأدب العبودية . وهو أشد الصبر وأصعبه ، لا يطيقه إلا العارفون المتمكنون ، الذين كملت عبوديتهم ، فكانوا عبيدًا للّه في جميع الحالات ، قَرّبهم أو أبعدهم .

روي أن رجلاً دخل على الشبلي رضي اللّه عنه ، فقال : أي صبر أشد على الصابر ؟ فقال له الشبلي : الصبر في اللّه ، قال : لا ، قال : الصبر للّه ، قال : لا ، قال : الصبر مع اللّه ، قال : لا ، فقال له : وأي شيء هو؟ فقال : الصبر عن اللّه . فصاح الشبلي صيحة عظيمة ، كادت تتلف فيها روحه .هـ . لأن الحبيب لا يصبر عن حبيبه . لكن إذا جفا الحبيب لا يمكن إلا الصبر والوقوف بالباب ، كما قال الشاعر :

إن شَكوت الهَوى ، فما أنت مِنّا … احمل الصّدَ والجفا ، يا مُعَنا .

وقال رجل لأبي محمد الحريري رضي اللّه عنه : كنت على بساط الأنس ، وفتح عليَّ طريق البسط ، فزللت زلة ، فحجبت عن مقامي ، فكيف السبيل إليه؟ دلني على الوصول إلى ما كنت عليه . فبكى أبو محمد وقال : يا أخي ، الكل في قهر هذه الخطة ، لكني أنشدك أبياتًا لبعضهم ، فأنشأ يقول :

قف بالديار فهذه آثارهم … تبكي الأحبة حسرة وتشوقا .

كم قد وقفتُ بربعها مستخبرًا … عن أهله ، أو سائلاً ، أو مشفقا .

فأجابني داعي الهوى في رسمها … فارقتَ من تهوى فعز الملتقى .

ومن هذا المعنى قضية الرجل الذي بقي في الحرم أربعين سنة يقول : لبيك . فيقول له الهاتف : لا لبيك ولا سعديك ، وحجك مردود عليك . فقيل له في ذلك ، فقال : هذه بابه ، وهل ثَمّ باب أخرى أقصده منها؟ فقبله الحق تعالى ، ولبى دعوته . وكذلك قضية الرجل الذي قيل له ، من قِبَل الوحي : إنك من أهل النار فزاد في العبادة والاجتهاد . فهذا كله يصدق عليه الصبر عن اللّه . لكن لا يفهم كماله إلا من كملت معرفته ، وتحقق بمقام الفناء ، فحينئذ قد يسهل عليه أمره لكمال عبوديته ، كما قال القائل :

وكنتُ قـديمًا أطلـب الوصـلَ منـهم فلمّا أتـاني العلـم وارتفـع الجهـلُ .

تَيقنت أنّ العبـد لا طلـبَ لـه فـإن قربوا : فضلٌ ، وإن بعـدوا : عـدلُ .

وإن أظهَروا لم يُظهِـروا غـير وصـفِهم وإن ستَروا فالسترُ من أجلـهم يحلُـو .

وأما من لم تكمل معرفته ، فقد ينكره ويذمه ، كالعباد والزهاد والعشاق ، فإنهم لا يطيقونه ، فإما أن يختل عقلهم ، أو يرجعون إلى الانهماك في البطالة . واللّه تعالى أعلم .[1]

وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الشعراء:٢١٧-٢٢٠)[2]

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وَأَنذِرْ** ﴾ يا محمد ﴿ **عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ** ﴾ ، إنما خصهم بالذكر لئلا يتكلوا على النسب ، فيَدَعوا ما يجب عليهم ، لأن من الواجبات ما لا يشفع فيها ، بقوله في تارك الزكاة وقد استغاث به : (لا أملك لك من اللّه شيئا) ، وفي الغالّ كذلك . وقيل : إنما خصهم لنفي التهمة إذ الإنسان يساهل قرابته ، وليعلموا أنه لا يغنى عنهم من اللّه شيئا إذ النجاة فى اتباعه ، لا فى قربه منهم . ولما نزلت صعد النبي ﷺ الصّفا ، ونادى الأقربَ فالأقرب ، وقال : (يا بـنـي عـبـد المطلب ، يا بني هاشم ، يا بني عبد مناف ،

---

(١) تفسير البحر المديد ٤/٦٩-٧٢ .

(٢) قال الله عزوجل : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ** ﴾ (الشعراء:٢١٤-٢٢٠) .

يا عباس ـ عم النبي ﷺ ـ يا صفيّةُ ـ عمّة النبي ﷺ لا أملكُ لكم من اللّه شيئًا)[1].

وقال ابن عباس رضي اللّه عنه : (صَعد النبي ﷺ الصّفا ، ونادى : « يا صباحاه » : فاجتمع الناس ، فقال ﷺ : (يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، إن أخبرتكم أن خيلاً بسَفح هذا الجَبَل ، تريد أن تُغير عليكم ، صدقتُموني؟ قالوا : نَعم . قال : فإني نذيرٌ لكم بين يَدي عذابٍ شديدٍ . فقال أبو لهب : تبًّا لك سائر اليوم ، ما جمعتنا إلا لهذا ؟ فنزلت : ﴿ **تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ** ﴾) (المسد:١) [2]. ثم قال : ﴿ **وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ** ﴾ أي : وألن جانبك وتواضع ، وأصله : أن الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه ، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه ، فجعل خفض الجناح مثلاً في التواضع ولين الجانب . ويكون ذلك التواضع ﴿ **لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾ من قرابتك وغيرهم . ﴿ **فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ** ﴾ أي : أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك ، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ، ومن أعمالهم من الشرك وغيره . ﴿ **وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ** ﴾ أي : على الذي يقهر أعداءك بعزته ، وينصرك عليهم برحمته ، فإنه يكفيك شر من يعاديك . ﴿ **ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ** ﴾ للتهجد ، ﴿ **وَ** ﴾ يرى ﴿ **تَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ** ﴾ في المصلين.أتبع كونه رحيمًا برسوله ما هو من أسباب الرحمة، وهو ذكر ما كان يفعله في جوف الليل ، من قيامه للتهجد ، وتقلبه في تصفح أحوال المُتهَجّدين ، ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون . وقيل : معناه : ويراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة ، وتقلبك في الساجدين : تصرفه فيما بينهم ، بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمهم . وعن مقاتل : أنه سأل أبا حنيفة :

---

(١) صحيح البخاري (٤٤٩٣) (٢٦٠٢) ، صحيح مسلم (٢٠٤) (٢٠٥) .
(٢) صحيح البخاري (٤٥٢٣) (٤٦٧٨) (٤٦٨٨) ، صحيح مسلم (٢٠٨) .

هل تجد الصلاة بالجماعة في القرآن؟ فقال : لا يحضرني ، فتلا له هذه الآية . وقيل : تقلبه في أصلاب الرجال . وروي عنه ﷺ في الآية أنه قال : (من نبي إلى نبي حتى أخرجتك نبي) [١].﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ لما تقول ، ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بما تنويه وتعمله . هَوَّنَ عليه مشاقَّ العبادة ، حيث أخبره برؤيته له ، إذ لا مشقَّة على من يعلَم أنه يعمل بمرأى من مولاه ، وهو كقوله في الحديث القدسي : (بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلي) [٢]. واللّه تعالى أعلم .

الإشارة : ينبغي لمن أُهِّل للوعظ والتذكير أن يبدأ بالأقرب فالأقرب ، ولو علم أنه لا ينتفع به إلا النزر القليل .

فمن تبعه على مذهبه فَلْيُلن له جانبه وليتواضع له ، ومن أعرض عنه واشتغل بهواه فليتبرأ من فعله ، ولا ينساه من نصحه ، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ، ولم يقل : «منكم» ، وهذا مذهب الجمهور ، وأن الأخ إذا زلّ إنما يُبغض عمله فقط ، وعن بعض الصحابة ـ وقد قيل له فى أخيه ، فقال : إنما أبغض عمله ، وإلا فهو أخي ، وذكر مثل ذلك عن أبي الدرداء . وأن الأخ في اللّه لا يُبغض لزلته ، ولا يترك لشيء من الأشياء ، وإنما يبغض عمله ، ووافقه على ذلك سلمان ، وتابعهما عمر ، وخالف في ذلك أبو ذر ، فقال : إذا وقعت المخالفة ، وانقلب عما كان عليه ، فأَبغِضُه من حيث أحببتُه . قال صاحب القوت : وأبو ذر صاحب شدائد وعزائم ، وهذا من عزائمه وشدائده . اهـ . وهذا في المؤمن بدليل قول أبي الدرداء : الأخ في اللّه لا يبغض لزلة ، وأما الكافر فصريح آياته : ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (الممتحنة:٤) ، ونحوها . وحديث

---

(١) المعجم الكبير للطبراني(١٢٠٢١) وفيه : حدثنا أبو مسلم الكشي ثنا أبو عاصم أنا شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ قال : من نبي إلى نبي حتى أخرجت نبيًّا .

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني عن وهب بن منبه .

ابن عمر وتبرئه من نفاة القدر ـ كما في مسلم ـ موجب للبراءة ، وليس لكون حكم الأصول أشد من الفروع . وذكر في الإحياء تأكيد الإعراض عمن يتعدى أذاه لغيره بظلم ، أو غصب ، أو غيبة ، أو نميمة ، أو شهادة زور لأن المعصية شديدة فيما يرجع لأذى الخلق . اهـ . من الحاشية . قوله تعالى : ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ** ﴾ ، قيل : التوكل : تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ، ويقدر على نفعه وضره ، وهو اللّه وحده ، والمتوكل من إذا دهمه أمرٌ لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية الله . وقال الجنيد رضي اللّه عنه : التوكل أن تُقبل بالكلية على ربك ، وتُعرض بالكلية عمن دونه فإنّ حاجتك إنما هي إليه في الدارين . اهـ . قال القشيري : ﴿ **وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ** ﴾ من أصحابك ، ويقال : تقلبك فى أصلاب آبائك من المسلمين ، الذين عرفوا اللّه ، فسجدوا له ، دون من لم يعرفه . اهـ . وفي القوت : قيل : وتقلبك في أصلاب الأنبياء ـ عليهم السلام ، يقلبك في صلب نبي بعد نبي ، حتى أخرجك من ذرية إسماعيل ، وروينا معنى ذلك عن رسول اللّه ﷺ ، والحاصل : أنه من ذرية الأنبياء والمؤمنين الساجدين في الجملة ، ولا يقتضى كل فرد من الأفراد . اهـ[1].

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ (يونس: ٦١) [2]

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ** ﴾ أي : أمر من الأمور ،

---

(١) تفسير البحر المديد ٥/١٩٠-١٩٢ .

(٢) تمام الآية : ﴿ **وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ** ﴾ (يونس: ٦١) .

والخطاب للنبي ﷺ والمراد هو وجميع الخلق ، ولذلك قال في آخرها . ﴿ **وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ** ﴾ ، ومعنى الآية : إحاطة علم اللّه تعالى بكل شيء .

﴿ **وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ** ﴾ أي : وما تتلو شيئًا من القرآن ، أو وما تتلو من اللّه من قرآن ، أي : تأخذه عنه . ﴿ **وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ** ﴾ أي عمل كان ، وهو تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم ، ولذلك ذكر الحق تعالى ، حيث خص بالذكر ما فيه فخامة وتعظيم ، وذكر حيث عمم ما يتناول الجليل والحقير ، أي : لا تعملون شيئا ﴿ **إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا** ﴾ : رقباء مطلعين عليه ظاهرًا وباطنًا ، ﴿ **إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ** ﴾ : حين تخوضون فيه وتندفعون إليه ، يقال : أفاض الرجل في الأمر : إذا أخذ فيه بجد واندفع إليه ، ومنه : ﴿ **فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ** ﴾ (البقرة:١٩٨) ، ﴿ **وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ** ﴾ أي : ما يغيب عنه ﴿ **مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ** ﴾ : ما يوازن نملة ، ﴿ **فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ** ﴾ والمراد : لا يغيب عنه شيء في الوجود بأسره ، وخصهما لأن العامة لا تعرف غيرهما . قال في الكشاف : فإن قلت : لم قدّم هنا الأرض بخلاف سورة سبأ ؟ فالجواب : أن السماء قدمت في سبأ لأن حقها التقديم ، وقدمت الأرض هنا لما ذكرت الشهادة على أهل الأرض . اهـ . ﴿ **وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ** ﴾ أي : اللوح المحفوظ ، أو علمه تعالى المحيط ، المُبيّن للأشياء على ما هي عليه .

الإشارة : هذه الآية وأمثالها هي أصل المراقبة عند القوم ، وهي على ثلاثة أقسام : مراقبة الظواهر ، ومراقبة القلوب ، ومراقبة السرائر . فالأولى للعوام ، والثانية للخواص ، والثالثة لخواص الخواص . فأما مراقبة الظواهر : فهي اعتقاد العبد أن اللّه يراه ، ومطلع عليه في كل مكان ، فينتجُ له الحياء من اللّه ، فيستحيى أن يسيئ الأدب معه وهو بين يديه ، وفي بعض الأخبار القدسية : (إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم ، فالخلل في إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى

أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم؟)[1]. وقال عليه الصلاة والسلام: (أفضل الناس إيمانًا من يعلم أن اللّه معه في كل مكان)[2] أو كما قال ﷺ: وروى أن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنه مرّ براعي غنم، فقال له: أعطنا شاة من غنمك، فقال له: ليست لي. فقال له: قل لصاحبها أكلها الذئب، فقال له الراعي: وأين اللّه؟! . وروى أن رجلا خلا بجارية فراودها على المعصية، وقال لها: لا ترانا إلا الكواكب، فقالت له: وأين مُكوكُبها؟ . وأما مراقبة القلوب فهي: تحقيق العبد أن اللّه مطلع على قلبه، فيستحي منه أن يجول فيما لا يعنى، أو يدبر ما لا يفيد ولا يجدى، أو يهم بسوء أدب فإن جال في ذلك استغفر وتاب. وأما مراقبة السرائر فهي: كشف الحجاب عن الروح، حتى ترى اللّه أقرب إليها من كل شيء، فتستحي أن تجول فيما سواه من المحسوسات، فإن فعلت بادرت إلى التوبة والاستغفار، فالتوبة لا تفارق أهل المراقبة مطلقًا، وقد تقدم في أول سورة النساء بعض الكلام على المراقبة، فمن لم يُحكِم أمر المراقبة، لم يذق أسرار المشاهدة[3].

والدليل من السنة: حديث جبريل المشهور عن عمر رضي الله عنه قال: (بينا نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام قال: (أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا). فقال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان قال: (أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله،

---

(١) لا أصل له.
(٢) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢٥٨٩): ضعيف.
(٣) تفسير البحر المديد ٣/١٧١، ١٧٢.

واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره) قال صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان قال : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) . قال فأخبرني عن الساعة قال : (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل). قال : أخبرني عن أماراتها . قال : (أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان) قال : فمضى فلبثنا مليًّا فقال : (يا عمر أتدرون من السائل) قلت : الله ورسوله أعلم . قال : (هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم)[1] .

شرح الحديث :

قال ابن رجب الحنبلي[2] :

تخريج الحديث :

هذا الحديث تفرد مسلم عن البخاري بإخراجه ، فخرّجه من طريق كهمس ، عنْ عبد الله بنِ بريدة ، عن يحيى بن يَعمر ، قال : كان أولَ من قال في القدر بالبصرة معبدٌ الجهني ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحِميري حاجِين أو معتمِرين ، فقلنا : لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر ، فوُفِّق لنا عبد اللهِ بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما

---

(١) صحيح البخاري (٥٠) ، صحيح مسلم (٨) (٩) .

(٢) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب واسمه عبد الرحمن بن الحن بن محمد ابن أبى البركات مسعود البغدادي الدمشقى الحنبلى ، الشيخ المحدث الحافظ زين الدين ، ولد ببغداد فى ربيع الأول سنة ٧٠٦ هـ ، وقدم دمشق مع والده فسمع معه من محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الخباز ومن إبراهيم بن داود العطار وغيرهما ، وبمصر من أبى الفتح الميدومى وأبى الحرم القلانسى وغيرهما ، وأكثر من المسموع ، وأكثر الاشتغال حتى مهر وصنف : شرح الترمذى ، وقطعة من البخارى ، وذيل الطبقات للحنابلة ، واللطائف في وظائف الأيام بطريق الوعظ وفيه فوائد ، والقواعد الفقهية أجتاد فيه ، وقرأ القرآن بالروايات ، وأكثر عن الشيوخ ، وخرج لنفسه مشيخة مفيدة ومات في شهر رجب سنة ٧٩٥ هـ . انظر : الحافظ ابن حجر العسقلاني«الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١٠٨/٣ ، ١٠٩)» .

داخلاً المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبي : أحدنا عن يمينه ، والآخر عن شماله ، فظننتُ أن صاحبي سَيَكِلُ الكلام إليَّ ، فقلتُ : يا أبا عبد الرحمن ! إنّه قد ظهر قِبلَنا ناسٌ يقرءون القُرآن ، ويتقفَّرُونَ العلم ، وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون أن لا قدَر وأن الأمرَ أُنُفٌ؟ فقال : فإذا لقيتَ أولئك ، فأخبرهم أني بريءٌ منهم ، وأنّهم بُرآءُ مني ، والّذي يحلف به عبد الله بن عمر ، لو أن لأحدهم مثل أحدٍ ذهبًا ، فأنفقه ، ما قَبِل الله منه حتى يُؤمنَ بالقَدرِ . ثم قال : حدَّثني أبي عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ، فذكر الحديث بطوله . ثم خرَّجه من طرقٍ أخرى ، بعضُها يرجِعُ إلى عبد الله ابن بريدةَ ، وبعضُها يرجع إلى يحيى بن يعمر ، وذكر أنّ في بعض ألفاظها زيادةً ونقصًا . وقد خرجه ابن حبَّان في صَحيحه[1] من طريق سليمان التَّيمي ، عن يحيى ابن يعمر ، وقد خرَّجه مسلم من هذا الطريق ، إلا أنه لم يذكر لفظَه ، وفيه زياداتٌ منها : في الإسلام ، قال : (وتحج وتعتمر ، وتغتسل من الجنابة ، وأنْ تتم الوضوءَ) وقال : فإذا فعلتُ ذلك ، فأنا مسلم ؟ قال : نعم . وقال في الإيمان : (وتؤمن بالجنة والنار والميزانِ) وقال فيه : (فإذا فعلتُ ذلك فأنا مؤمنٌ ؟ قال : نعم) . وقال في آخره : (هذا جبريل أتاكم ليُعلِّمُكم أمر دينكم ، خذوا عنه ، والذي نفسي بيده ما شُبِّه عليّ منذ أتاني قبل مرَّتي هذه ، وما عرفتُه حتى ولّى!) .

رواية الصحيحين :

وخرّجاه في الصحيحين[2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : (كان النبي ﷺ يومًا بارزًا للناسِ فأتاه رجلٌ ، فقال : ما الإيمان ؟ قال : (الإيمان : أنْ تؤمن بالله وملائكته وكتبه ، وبلقائه ، ورسله ، وتؤمن بالبعثِ الآخرِ) . قال : يا رسول الله ! ما الإسلام ؟ قال : (الإسلام : أن تعبد الله لا تشرك به شيئًا ،

---

(١) صحيح ابن حبان (١٥٩) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .
(٢) تقدم تخريجه صـ ١٤٨ .

وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتُؤَدِّي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان) . قال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : (أن تعبد الله كأنَّك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك) . قال : يا رسول الله ! متى الساعة ؟ قال : (ما المسؤولُ عنها بأعلم من السَّائِلِ ، ولكن سأحدثك عن أشراطِها : إذا ولدت الأَمَةُ ربَّها ، فذاك من أشراطها ، وإذا رأيت الحُفاة العُراة رُؤوسَ الناس فذاك من أشراطِها ، وإذا تطاوَل رعاءُ البَهْم في البُنيان ، فذاك من أشراطها : في خمسٍ لا يَعلمُهُنَّ إلاّ الله) ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ** ﴾ (لقمان:٣٤) . قال : (ثمّ أدبر الرجلُ فقال رسول الله ﷺ : ردوا علي الرَّجُلِ ، فأخذوا ليردّوهُ ، فلم يَروا شيئًا ، فقال رسولُ الله ﷺ : (هذا جبريلُ جاءكم ليعلِّمَ الناس دينهم) . وخرَّجه مسلم[(١)] بسياقٍ أتمَّ من هذا ، وفيه ـ في خصال الإيمان ـ :

(وتؤمِن بالقدر كلّه) وقال في الإحسان : (أنْ تخشى الله كأنَّكَ تراهُ) . وخَرَّجه الإمام أحمد في مسنده[(٢)] من حديث شهر بن حوشب ، عن ابنِ عباس رضي الله عنهما ، ومن حديث شهر بن حوشب أيضًا ، عن ابن عامرٍ ، أو أبي عامرٍ ، أو أبي مالكٍ ، عن النَّبيِّ ﷺ ، وفي حديثه قال : ونسمع رَجْعَ النبي ﷺ ، ولا نرى الذي يكلِّمُهُ ، ولا نسمعُ كلامه ، وهذا يردُّه حديث عمرَ الذي خرَّجه مسلمٌ ، وهو أصحُّ . وقد رُوي الحديث عن النبي ﷺ من حديث أنس بن مالك ، وجرير بن عبد الله البجليِّ ، وغيرهما . وهو حديثٌ عظيمٌ جدًّا ، يشتملُ على شرح الدِّين كله ، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ في آخره : (هذا جبريل أتاكم يعلِّمكم دينَكُم) . بعد أنْ شرحَ درجةَ الإسلام ، ودرجةَ الإيمان ، ودرجة الإحسّان ، فجعل ذلك كُلَّه دينًا .

---

(١) تقدم تخريجه صـ ١٤٨ .

(٢) مسند الإمام أحمد (٢٩٢٦) قال شعيب الأرناؤوط : حديث حسن .

المقارنة بين الروايات :

واختلفتِ الرِّواية في تقديم الإسلام على الإيمان وعكسه ، ففي حديث عمرَ الذي خرَّجه مسلمٌ : أنّـه بدأ بالسؤال عن الإسلام ، وفي الترمذي وغيره : أنَّـه بدأ بالسؤال عن الإيمان ، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وجاء في

معنى الإسلام :

فأمَّا الإسلامُ ، فقد فسَّره النبي ﷺ بأعمالِ الجوارح الظَّاهرة مِنَ القول والعملِ ، وأوّلُ ذلك شهادةُ أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمدًا رسول الله ، وهو عملُ اللسان ، ثمّ إقامُ الصلاة ، وإيتاءُ الزكاة ، وصوم رمضان ، وحجُّ البيت من استطاع إليه سبيلاً . وهي منقسمةٌ إلى عمل بدني : كالصَّلاة والصومِ ، وإلى عمل ماليٍّ : وهو إيتاءُ الزكاةِ ، بعض روايات حديثِ عمرَ أنَّـه سألَه عن الإحسّان بين الإسلام والإيمان .

وإلى ما هو مركبٌ منهما : كالحج بالنسبة إلى البعيد عن مكة . وفي رواية ابنِ حبَّان[1] أضاف إلى ذلك الاعتمارَ ، والغُسْل من الجنابة ، وإتمام الوُضوء . وفي هذا تنبيهٌ على أن جميع الواجبات الظاهرة داخلةٌ في مسمى الإسلام . وإنَّما ذكر هاهنا أصول أعمال الإسلام التي ينبني الإسلام عليها كما سيأتي شرح ذلك في حديث ابن عمر رضي الله عنهما : (بُنيَ الإسلامُ على خمسٍ) [2] في موضعه إن شاء الله تعالى . وقوله في بعض الرِّوايات : فإذا فعلتُ فأنا مسلم؟ قال : (نعم) ، يدل على أن من أكمَلَ الإتيان بمباني الإسلام الخمس صار مسلمًا حقًّا ، مع أن من أقر بالشهادتين ، صار مسلمًا حُكمًا ، فإذا دخل في الإسلام بذلك ، أُلزم بالقيام ببقية خصال الإسلام ، ومن ترك الشهادتين ، خرج من الإسلام . وفي خروجه من الإسلام بترك الصلاة خلافٌ مشهورٌ بين

---

(١) تقدم تخريجه صـ ١٤٩ .

(٢) صحيح البخاري (٨) ، صحيح مسلم(١٦) .

العُلماء . وكذلك في ترك بقيَّة مباني الإسلام الخمس كما سنذكره في موضعه إن شاء الله تعالى .

أدلة شمول الإسلام للأعمال الظاهرة :

ومما يدل على أن جميع الأعمال الظاهرة تدخل في مسمى الإسلام قول النبي ﷺ : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) [١] . وفي الصحيحين [٢] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي ﷺ : أي الإسلامِ خير؟ قال : (أنْ تُطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومَنْ لم تعرف) . وفي صحيح الحاكم [٣] عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : (إنَّ للإسلام ضوءًا ومنارًا كمنارِ الطَّريق ، من ذلك : أنْ تعبد الله ولا تشركَ به شيئًا ، وتقيم الصلاة ، وتُؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتسليمك على بني آدم إذا لقيتهم وتسليمك على أهلِ بيتك إذا دخلتَ عليهم ، فمن انتقص منهنَّ شيئًا ، فهو سهمٌ من الإسلامِ يدعه ، ومن تركهن فقد نبذ الإسلام وراء ظهره) . وخَرَّجه ابن مردويه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (للإسلام ضياءٌ وعلاماتٌ كمنار الطريق ، فرأسها وجماعها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإتمامُ الوضوء ، والحكم بكتاب الله وسُنة نبيه ﷺ ، وطاعةُ وُلاة الأمر ، وتسليمُكم على أنفُسِكم ، وتسليمُكم على أهليكم إذا دخلتُم بيوتَكم ، وتسليمكم على بني آدم إذا لقيتُموهُم) . وفي إسناده ضعفٌ ، ولعله موقوف . وصحَّ من حديث أبي إسحاق ، عن صلةَ بن زُفَر ، عن حذيفةَ رضي الله عنه قال : الإسلام ثمانية أسهمٍ : الإسلام سهمٌ ، والصلاة سهمٌ ، والزكاة سهمٌ ، والجهاد سهمٌ ، وحج البيت سهمٌ ، وصوم رمضان سهمٌ ، (ولعل السهم الثامِن الحج) ،

---

(١) صحيح البخاري (١٠) (٦١١٩) ، صحيح مسلم (٤٠) (٤١) .
(٢) صحيح البخاري (٢٨) (٥٨٨٢)، صحيح مسلم (٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو .
(٣) المستدرك على الصحيحين (٥٢) (٥٣) .

والأمر بالمعروف سهمٌ ، والنهي عن المنكر سهمٌ ، وخاب من لا سَهمَ له . وخرجه البزّارُ مرفوعًا ، والموقوف أصح .

معنى أن الإسلام سهم :

ورواه بعضهم عن أبي إسحق ، عن الحارث ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، خرَّجه أبو يعلى الموصلي وغيره ، والموقوف على حذيفة أصح . قاله الدارقطني وغيره . وقوله : الإسلام سهمٌ يعني : الشهادَتين ؛ لأنهما عَلمُ الإسلام ، وبهما يصيرُ الإنسان مسلمًا . وكذلك ترك المحرمات داخلٌ في مسمَّى الإسلام أيضًا . كما رُوي عن النبي ﷺ أنَّه قال : (من حُسْنِ إسلامِ المَرءِ تركهُ ما لا يعنيه) [1] وسيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى . ويدل على هذا أيضًا ما خرَّجه الإمام أحمد ، والترمذي ، والنسائي من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : (ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا ، وعلى جنبتي الصراط سُوران ، فيهما أبوابٌ مفتحَةٌ ، وعلى الأبواب ستورٌ مرخاةٌ ، وعلى باب الصراط داعٍ يقول : يا أيُّها النّاس ! ادخلوا الصراط جميعًا ، ولا تعوجوا ، وداعٍ يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد أحدٌ أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب ، قال : ويحك ! لا تَفتَحْهُ ، فإنك إن تفتحه تَلِجْهُ . والصِّراط : الإسلام . والسُّورانِ : حدودُ اللهِ عزوجل ، والأبواب المُفتحة : محارمُ الله ، وذلك الداعي على رأس الصراط : كتابُ الله . والدّاعي من فوق : واعظُ اللهِ في قلب كل مسلمٍ) [2]. زاد الترمذي[3]

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (يونس:٢٥)

---

(١) سنن الترمذي (٢٣١٧) وقال : حديث غريب . قال الألباني : حديث صحيح .
(٢) مسند الإمام أحمد (١٧٦٧١) قال شعيب الأرناؤوط : حديث صحيح وهذا إسناد حسن .
(٣) سنن الترمذي (٢٨٥٩) وقال : حديث غريب . قال الألباني : حديث صحيح .

الإسلام هو الصراط المستقيم :

ففي هذا المثل الذي ضربه النبي ﷺ أن الإسلام هو الصراط المستقيم الذي أمر الله تعالى بالاستقامة عليه ، ونهى عن مجاوزة حدوده ، وأن من ارتكب شيئًا من المحرمات ، فقد تعدى حدوده .

معنى الإيمان في القرآن والسنة :

وأما الإيمان فقد فسره النبي ﷺ في هذا الحديث بالاعتقادات الباطنة ، فقال : (أن تُؤمِن باللهِ ، وملائكتِه ، وكتبِه ، ورُسلِه ، والبعثِ بعدَ الموتِ ، وتُؤمن بالقدر : خيرِه وشره). وقد ذكر الله في كتابه : الإيمانَ بهذه الأصول الخمسة في مواضع ، كقوله تعالى : ﴿ **ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ** ﴾ (البقرة:٢٨٥). وقال تعالى : ﴿ **وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ** ﴾ (البقرة:١٧٧) ، وقال تعالى : ﴿ **ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ** ﴾ (البقرة:٣،٤) .

لازم الإيمان بالرسل :

والإيمان بالرسل يلزمُ منه الإيمان بجميع ما أخبروا به من الملائكة ، والأنبياء ، والكتاب ، والبعث ، والقدر ، وغير ذلك من تفاصيل ما أخبروا وغير ذلك من صفات الله وصفات اليوم الآخر كالميزان والصراط ، والجنة ، والنار . وقد أدخل في الإيمان : الإيمانُ بالقدرِ : خيره وشره . ولأجل هذه الكلمة روى ابن عمر رضي الله عنهما هذا الحديث محتجًّا به على من أنكر القدر ، وزعم أن الأمر أُنُفٌ : يعني أنه مُستَأنَفٌ لم يسبق به سابق قدر من الله عز وجل ، وقد غلَّظ عبد الله بن عمر عليهم ، وتبرّأ منهم ، وأخبر أنه لا تُقبلُ منهم أعمالهم بدون الإيمان بالقدر .

درجتا الإيمان بالقدر :

والإيمان بالقدر على درجتين : إحداهما : الإيمان بأن الله تعالى سبق في علمه ما يَعمَلُه العبادُ من خيرٍ وشرٍّ وطاعةٍ ومعصيةٍ قبل خلقِهم وإيجادهم ، ومن هو منهم من أهل الجنة ، ومن أهل النار ، وأعد لهم الثوابَ والعقابَ جزاءً لأعمالهم قبل خلقِهم وتكوينهم ، وأنه كتبَ ذلك عندَه وأحصاهُ ، وأن أعمال العباد تجري على ما سبق في علمه وكتابه . والدرجة الثانية : أن الله تعالى خلق أفعال عبادِهِ كلها من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان وشاءها منهم ، فهذه الدرجة يُثبتها أهل السنة والجماعة ، وينكرها القدرية ، والدرجة الأولى أثبتها كثيرٌ من القدريةِ ، ونفاها غُلاتُهم ، كمعبدٍ الجُهنيِّ ، الذي سُئِل ابن عمر عنْ مقالتهِ ، وكعمرو بن عبيدٍ وغيره . وقد قال كثيرٌ من أئمة السلف : ناظِروا القدرية بالعلم ، فإن أقروا به خُصِمُوا ، وإن جَحَدُوه ، فقد كفروا ، يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد ، وأن الله قسمهم قبل خلقهم إلى شقي وسعيد ، وكتب ذلك عنده في كتابٍ حفيظٍ ، فقد كذب بالقُرآن ، فيكفر بذلك ، وإن أقروا بذلك ، وأنكروا أن الله خلق أفعال العباد ، وشاءها ، وأرادها منهم إرادةً كونيةً قدريةً ، فقد خُصِمُوا ؛ لأن ما أقروا به حُجَّةٌ عليهم فيما أنكروه . وفي تكفير هؤلاء نزاعٌ مشهورٌ بين العلماء .

من أنكر العلم :

وأما من أنكر العلم القديم فنص الشافعي وأحمد على تكفيرِهِ ، وكذلك غيرهما من أئمة الإسلام .

بين الإيمان والإسلام :

فإن قيل : فقد فرَّق النبي ﷺ في هذا الحديث بين الإسلام والإيمانِ وجعل الأعمال كلها من الإسلام ، لا من الإيمان ، والمشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان : قولٌ وعملٌ ونيةٌ ، وأن الأعمال كُلَّها داخلةٌ في مُسمَّى الإيمانِ ، وحكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم

ممن أدركهم، وأنكر السلف على من أخرج الأعمال عن الإيمان إنكارًا شديدًا، وممن أنكر ذلك على قائله، وجعله قولاً مُحدَثًا: سعيد بن جبيرٍ، وميمون ابن مهران، وقتادة، وأيوب السَّختياني، وإبراهيم النخعي، والزهريّ، ويحيى ابن أبي كثيرٍ، وغيرهم. وقال الثوري: هو رأيٌ محدثٌ، أدركنا الناسَ على غيره. وقال الأوزاعي: كان من مضى ممن سلف لا يُفرِّقون بين الإيمان والعمل. وكتب عمر بنُ عبد العزيز إلى أهل الأمصارِ: أما بعد، فإن للإيمان فرائض وشرائع وحدودًا وسننًا، فمن استكملها، استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها، لم يستكمل الإيمان. ذكره البخاري في صحيحه. قيل: الأمر على ما ذكره.

دخول الأعمال في الإيمان:

وقد دل على دخول الأعمال في الإيمان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ (الأنفال:٢-٤). وفي الصحيحين[1] عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال لوفد عبدِ القيسِ: (آمُركُم بأربعٍ: الإيمان بالله وحدهُ، وهل تدرون ما الإيمانُ بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصّلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المَغنَمِ الخُمْسَ). وفي الصحيحين[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (الإيمان بِضعٌ وسبعون، أو بضعٌ وستون شُعبةً، فأفضلها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبةٌ من الإيمان). ولفظه لمسلم. وفي الصحيحين[3] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (لا يزني

---

(١) صحيح البخاري (٥٣) (٨٧) (٥٢٣)، صحيح مسلم (١٧).

(٢) صحيح البخاري (٩)، صحيح مسلم (٣٥).

(٣) صحيح البخاري (٢٤٧٥) (٥٥٧٨) (٦٨١٠)، صحيح مسلم (٥٧).

الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمنٌ ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمنٌ) . فلولا أن ترك هذه الكبائر من مُسمى الإيمان لما انتفى اسم الإيمان عن مرتكب شيءٍ منها ؛ لأن الاسم لا ينتفى إلا بانتفاء بعض أركان المسمى ، أو واجباته .

وجه الجمع بين النصوص :

وأما وجه الجمع بين هذه النصوص وبين حديث سؤال جبريل عليه السلام ، عن الإسلام والإيمان ، وتفريق النبي ﷺ بينهما ، وإدخاله الأعمال في مُسمى الإسلام دون مُسمَّى الإيمان ، فإنه يتضح بتقرير أصلٍ ، وهو أن من الأسماء ما يكون شاملاً لمسمياتٍ مُتعددةٍ عند إفراده وإطلاقه . فإذا قُرن ذلك الاسمُ بغيره صار دالاًّ على بعض تلك المسميات . والاسم المقرون به دالاًّ على باقيها ، وهذا كاسم الفقير والمسكين ، فإذا أُفرد أحدهما دخل فيه كل من هو محتاجٌ ، فإذا قُرن أحدهما بالآخر دلّ أحدُ الاسمين على بعض أنواع ذوي الحاجات ، والآخر على باقيها . فهكذا اسم الإسلام والإيمان : إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، ودل بانفراده على ما يدل عليه الآخرُ ، فإذا قُرن بينهما دلّ أحدهما على بعض ما يدلُّ عليه بانفراده ، ودلَّ الآخر على الباقي ، وقد صرح بهذا المعنى جماعةٌ من الأئمة : قال أبو بكر الإسماعيلي في رسالته إلى أهل الجبل : قال كثيرٌ من أهل السنة والجماعة : إن الإيمان قولٌ وعملٌ ، والإسلام فعل ما فرض الله على الإنسان أنْ يفعله ، إذا ذكر كل اسمٍ ـ على حدته ـ مضمومًا إلى الآخر ، فقيل : المؤمنون والمسلمون جميعًا مفردين ، أُريد بأحدهما معنى لم يُرَدْ بالآخر ، وإذا ذُكر أحد الاسمين ، شَمِلَ الكل وعمهم . وقد ذكر هذا المعنى أيضًا الخطابي في كتابه معالم السنن ، وتبعه عليه جماعةٌ من العلماء من بعده ، ويدل على صحة ذلك أن النبي ﷺ فسر الإيمان عند ذكره مفردًا في حديث وفد عبد القيس بما فسّر به الإسلام المقرون بالإيمان في حديث جبريل ، وفسَّر في حديثٍ آخر : الإسلام بما فسّر به الإيمان ، كما في مسند

الإمام أحمد(١) عن عمرو بن عَبسة ، قال : جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : (أن يُسلم قلبُكَ لله ، وأن يسلمَ المسلمون من لسانك ويدك ، قال : فأي الإسلام أفضل ؟ قال : الإيمان . قال : وما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت . قال : فأي الإيمان أفضل ؟ قال : الهجرة . قال : فما الهجرة ؟ قال : أن تهجر السُّوء ، قال : فأي الهجرة أفضل ؟ قال : الجهاد) . فجعل النبي ﷺ الإيمان أفضل الإسلام ، وأدخل فيه الأعمال .

بين الإيمان والإسلام :

وبهذا التفصيل يظهر تحقيق القول في مسألة الإسلام والإيمان : هل هما واحدٌ ، أو هما مختلفان فإن أهل السنة والحديث مختلفون في ذلك ، وصنفوا في ذلك تصانيف متعددةً ، فمنهم من يدعي أن جمهور أهل السنة على أنهما شيءٌ واحدٌ منهم محمد بن نصرٍ المروزي ، وابن عبد البر ، وقد روي هذا القول عن سفيان الثوري من رواية أيوب بن سويد الرملي عنه ، وأيوب فيه ضعف ، ومنهم من يحكي عن أهل السنة التفريق بينهما ، كأبي بكر بن السمعاني وغيره ، وقد نقل التفريق بينهما عن كثيرٍ من السلف ، منهم : قتادة ، وداود بن أبي هند ، وأبو جعفر الباقر ، والزهري ، وحماد بن زيد ، وابن مهدي ، وشريك ، وابن أبي ذئب ، وأحمد بن حنبل ، وأبو خيثمة ، ويحيى بن معين ، وغيرهم ، على اختلافٍ بينهم في صفة التفريق بينهما ، وكان الحسن وابن سيرين يقولان : مسلمٌ ، ويهابان مؤمنٌ . وبهذا التفصيل الذي ذكرناه يزول الاختلاف ، فيقال : إذا أُفرد كل من الإسلام والإيمان بالذكر فلا فرق بينهما حينئذٍ ، وإن قُرِنَ بين الاسمين ، كان بينهما فرقٌ .

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٧٠٦٨) قال شعيب الأرناؤوط : حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين .

التحقيق في الفرق بين الإيمان والإسلام :

والتحقيق في الفرق بينهما : أن الإيمان هو تصديق القلب ، وإقراره ، ومعرفته . والإسلام : هو استسلام العبدِ لله ، وخضوعه ، وانقياده له ، وذلك يكون بالعمل ، وهو الدينُ ، كما سمى الله تعالى في كتابه : الإسلام دينًا ، وفي حديث جبريل سمى النبي ﷺ الإسلام والإيمان والإحسان دينًا ، وهذا أيضًا مما يدل على أن أحد الاسمين إذا أُفردَ دخل فيه الآخرُ ، وإنما يفرَّق بينهما حيث قُرِنَ أحد الاسمين بالآخر ، فيكون حينئذٍ المراد بالإيمان : جنسَ تصديق القلب ، وبالإسلام جنسَ العمل . وفي المسند[1] للإمام أحمد عن أنسٍ رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : (الإسلامُ علانيةٌ ، والإيمانُ في القلب) . وهذا لأن الأعمال تظهر علانيةً ، والتصديقُ في القلب لا يظهر . وكان النبي ﷺ يقول في دعائه إذا صلى على الميت : (اللهم من أحييته منّا فأحيهِ على الإسلام ، ومن تَوفَّيتَهُ منّا فتوفَّه على الإيمان)[2]. لأنَّ الأعمال بالجوارح إنما يُتمكن منه في الحياة ، فأما عند الموت فلا يبقى غيرُ التَّصديق بالقلب .

لماذا قيل : كل مؤمن مسلم :

ومن هنا قال المحققون من العلماء : كل مؤمنٍ مسلمٌ ، فإن من حقق الإيمان ، ورسَخ في قلبه : قام بأعمال الإسلام ، كما قال ﷺ : (ألا وإنَّ في الجسد مُضغةً ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب)[3]، فلا يتحققُ القلبُ بالإيمان إلا وتنبعِثُ الجوارح في أعمالِ الإسلام . وليس كل مسلمٍ مؤمنًا ، فإنه قد يكون الإيمان ضعيفًا ، فلا يتحقق القلب به تحققًا تامًّا مع عمل جوارحه بأعمال الإسلام فيكون مسلمًا ، وليس بمؤمنٍ الإيمان التام ، كما قال تعالى : ﴿ **قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا**

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٢٤٠٤) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

(٢) سنن الترمذي (١٠٢٤) وقال : حسن صحيح . قال الألباني : صحيح .

(٣) صحيح البخاري (٥٢) ، صحيح مسلم (١٥٩٩) .

﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ (الحجرات:١٤) ولم يكونوا منافقين بالكلية على أصح التفسيرين ، وهو قول ابن عباس وغيره ، بل كان إيمانُهم ضعيفًا ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا ﴾ (الحجرات:١٤) ، يعني : لا ينقصُكم من أجورها ، فدل على أن معهم من الإيمان ما تُقبَلُ به أعمالُهم . وكذلك قول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص لما قال له : (لم تعطِ فلانًا وهو مؤمن ؟) فقال النبي ﷺ : (أو مسلم؟) يشير إلى أنه لم يُحقِّق مقام الإيمان وإنما هو في مقام الإسلام الظاهر .

متى ضعُف الإيمان ضعُف العمل :

ولا ريب أنه متى ضعف الإيمان الباطن ، لزم منه ضعف أعمال الجوارح الظاهرة أيضًا ، لكن اسم الإيمان ينفى عمن ترك شيئًا منْ واجباته ، كما في قوله ﷺ : (لا يَزني الزاني حينَ يَزني وهو مؤمنٌ)[1] .

بم يوصف المؤمن حينئذ :

وقد اختلف أهل السنة هل يسمى مؤمنًا ناقص الإيمان ، أو يقال : ليس بمؤمن لكنه مسلم ؟ على قولين ، وهما روايتان عن أحمد . وأما اسم الإسلام ، فلا ينتفي بانتفاء بعض واجباته أو انتهاك بعض محرماته وإنما ينتفى بالإتيان بما ينافيه بالكلية ، ولا يعرف في شيء من السنة الصحيحة نفي الإسلام عمن ترك شيئًا من واجباته كما ينفى الإيمان عمن ترك شيئًا من واجباته ، وإن كان قد ورد إطلاق الكفر على فعل بعض المحرمات ، وإطلاق النفاق أيضًا . واختلف العلماء : هل يُسمى مرتكبُ الكبائر كافرًا كفرًا أصغرًا أو منافقًا النفاق الأصغر ، ولا أعلم أن أحدًا منهم أجاز إطلاق نفي اسم الإسلام عنه ، إلا أنه روي عن ابن مسعودٍ أنه قال : ما تاركُ الزكاةِ بمسلم . ويحتمل أنه كان يراه

---

(١) تقدم تخريجه صـ ١٥٦ .

كافراً بذلك خارجًا عن الإسلام . وكذلك روي عن عمر رضي الله عنه فيمن تمكن من الحج ولم يحج أنهم ليسوا بمسلمين. والظاهر أنه كان يعتقد كفرهم، ولهذا أراد أن يضرب عليهم الجزية . يقول : لم يدخلوا في الإسلام بعد ، فهم مستمرون على كتابيتِهم .

متى يجوز نفي وصف الإسلام :

وإذا تبين أن اسم الإسلام لا ينتفي إلا بوجود ما ينافيه ويخرج عن الملة بالكلية ، فاسم الإسلام إذا أطلق أو اقترن به المدح ، دخل فيه الإيمان كله من التصديق وغيره كما سبق في حديث عمرو بن عبسة .

الإسلام المطلق ومتى يصير المسلم مؤمنًا :

وخرّج النسائي[1] من حديث عقبة بن مالك أن النبي ﷺ بعث سريةً ، فأغارت على قومٍ ، فقال رجلٌ منهم : إني مسلمٌ ؟ فقتلهُ رجلٌ من السَّرية ، فنُمي الحديث إلى رسول الله ﷺ ، فقال فيه قولاً شديدًا فقال الرجل : إنما قالها تَعوُّذًا من القتل ؟ فقال النبي ﷺ : (إنَّ الله أبى عليَّ من قَتَل مؤمِنًا). ثلاث مرات. فلولا أن الإسلام المطلق يدخل فيه الإيمان والتصديق بالأصول الخمسة، لم يَصِرْ من قال أنا مسلمٌ مؤمنًا بمجرَّد هذا القول . وقد أخبر الله عن ملكة سبأ أنها دخلت في الإسلام بهذه الكلمة وقالت : ﴿ **رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (النمل:٤٤) ، وأخبر عن يوسف عليه السلام : أنه دعا بأن يموت على الإسلام . وهذا كله يدل على أن الإسلام المطلق يدخل فيه ما يدخل في الإيمان من التصديق .

---

(١) في السنن الكبرى (٨٥٣٩) .

من الأدلة الأخرى على هذا :

وفـي سنن ابن ماجه[1] عن عدي بن حاتمٍ ، قال : قال لي رسـول الله ﷺ : (يا عَديُّ ! أسلم تَسلم) قلتُ : وما الإسلام ؟ قال : (تشهد أن لا إله إلا الله ، وتشهد أني رسول الله ، وتؤمن بالأقدار كلها ، خيرها وشرها ، حلوِها ومرِّها) . وهذا نصٌّ في أن الإيمان بالقدر من الإسلام ، ثم إن الشهادتين من خصال الإسلام بغير نزاعٍ ، وليسَ المراد الإتيان بلفظهما دون التصديق بهما ، فعُلِمَ أن التصديق بهـما داخلٌ في الإسـلام . وقد فسرَ الإسلام المذكور في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران:١٩) بالتوحيد والتصديق طائفةٌ من السلف منهم محمد بن جعفر بن الزبير .

إيمان الصديقين :

وماذا إذا نفي الإيمان وأثبت الإسلام ؟ :

وأما إذا نُفي الإيمان عن أحدٍ وأُثبت له الإسـلام كـالأعراب الـذين أخـبر الله عنهم ، فإنه ينتفي عنهم رسـوخ الإيمـان في القلـب ، وتثبُـت لهـم المشـاركة في أعمال الإسلام الظاهرة مع نوع إيمانٍ يُصحح لهـم العمـل ، إذ لـولا هـذا القـدر من الإيمان لم يكونوا مسلمين ، وإنماً نفي عنهم الإيمان ؛ لانتفاء ذوق حقائقه ، ونقص بعض واجباته ، وهذا مبني على أن التصديق القـائم بـالقلوب يتفاضـل ، وهذا هو الصحيح ، وهو أصح الروايتين عن أبـي عبـد الله : أحمـد بـن حنبـل ، فإن إيمان الصِّدِّيقين الذين يتجلَّى الغيبُ لقلوبهم حتى يصير كأنه شهادةٌ بحيـث لا يقبل التشكيك ولا الارتياب ، ليس كإيمان غيرهم ممن لم يبلغ هذه الدرجة ، بحيث لو شُكك لدخله الشك ، ولهذا جعل النَّبيُّ ﷺ مرتبـة الإحسـان أن يعبـد العبدُ ربه كأنه يراه ، وهذا لا يحصل لعموم المؤمنين . ومن هنـا قـال بعضـهم : ما سبقكم أبو بكر رضي الله عنه بكثرة صومٍ ولا صلاةٍ ، ولكـن بشـيءٍ وقـرَ في

---

(١) سنن ابن ماجه (٨٤) قال الألباني : ضعيف جداً .

صدره . وسئل ابن عمر رضي الله عنهما : هل كانت الصحابة رضي الله عنهم يضحكون ؟ فقال : نعم ! وإن الإيمان في قلوبهم أمثال الجبال . فأين هذا ممن الإيمان في قلبه يزنُ ذرةً أو شعيرةً كالذين يخرجون من أهل التوحيد من النار ، فهؤلاء يصح أن يقال في حقهم لم يدخل الإيمان في قلوبهم لضعفه عندهم .

خطورة قضايا الإيمان والكفر :

وهذه المسائل ـ أعني مسائل الإسلام والإيمان والكفر والنِّفاق ـ مسائل عظيمةٌ جدًّا ، فإن الله علق بهذه الأسماء : السعادة ، والشقاوة ، واستحقاق الجنة والنار .

الخلاف فيها كان أول خلاف :

والاختلاف في مسمياتها أول اختلافٍ وقع في هذه الأمة ، وهو خلاف الخوارجِ للصحابة ، حيث أخرجوا عُصاة الموحِّدين من الإسلام بالكُلية ، وأدخلوهم في دائرة الكفر ، وعاملوهم معاملة الكفار ، واستحلُّوا بذلك دماء المسلمين وأموالهم ، ثم حدث بعدهم خلافُ المعتزلة وقولهم بالمنْزلة بين المنْزلتين ، ثم حدث خلافُ المرجئة ، وقولهم : إن الفاسق مؤمنٌ كاملُ الإيمان . وقد صنف العلماء قديمًا وحديثًا في هذه المسائل تصانيف متعددةً ، وممن صنف في الإيمان من أئمة السلف : الإمام أحمد ، وأبو عبيد القاسم بن سلامٍ ، وأبو بكر بن أبي شيبة ، ومحمد بن أسلم الطوسي . وكثُرت فيه التصانيف بعدهم من جميع الطوائف . وقد ذكرنا هاهنا نكتًا جامعةً لأصولٍ كثيرةٍ من هذه المسائل والاختلاف فيها ، وفيه إن شاء الله كفايةٌ .

فصل

فيما يدخل في مسمى الإسلام والإيمان :

قد تقدم أن الأعمال تدخل في مسمى الإسلام ومسمى الإيمان أيضًا ، وذكرنا ما يدخل في ذلك من أعمال الجوارح الظاهرة ، ويدخل في مسماها

أيضًا أعمال الجوارح الباطنة ، فيدخل في أعمال الإسلام إخلاصُ الدِّين لله ، والنصح له ولعباده ، وسلامة القلب لهم من الغش والحسد والحقد ، وتوابع ذلك من أنواع الأذى ، ويدخل في مسمى الإيمان وجَلُ القلوب من ذكر الله ، وخشوعها عند سماع ذكره وكتابه ، وزيادة الإيمان بذلك ، وتحقيق التوكل على الله ، وخوف الله سرًّا وعلانيةً ، والرضا بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمدٍ ﷺ رسولاً ، واختيارُ تلف النفوس ـ بأعظم أنواع الآلام ـ على الكفر ، واستشعارُ قربِ الله من العبد ، ودوام استحضاره ، وإيثارُ محبة الله ورسوله على محبة ما سواهما ، والحب في الله والبغض في الله ، والعطاء له ، والمنع له ، وأن يكون جميع الحركات والسكنات له، وسماحة النُّفوس بالطاعة المالية والبدنية، والاستبشارُ بعمل الحسنات ، والفرحُ بها ، والمَساءةُ بعمل السيئات والحزن عليها ، وإيثار المؤمنين لرسول الله ﷺ على أنفسهم وأموالهم ، وكثرةُ الحياء ، وحسنُ الخلق ، ومحبةُ ما يحبه لنفسه ـ لإخوانه المؤمنين ، ومواساةُ المؤمنين ـ خصوصًا الجيران ، ومعاضدةُ المؤمنين ، ومناصرتهم ، والحزنُ بما يحزنُهم .

أدلة ما تقدم :

ولنذكر بعض النصوص الواردة بذلك .

دخول العمل في مسمى الإسلام :

فأما ما ورد في دخوله في اسم الإسلام ، ففي مسند الإمام أحمد(١)، والنسائي(٢) عن معاوية بن حيدة ، قال : قلت : يا رسول الله ! بالذي بعثك بالحق ، ما الذي بعثك به ؟ قال : (الإسلام) ، قلت : وما الإسلام ؟ قال : (أنْ تُسلم قلبك لله ، وأن توجه وجهك إلى الله ، وتُصلِّي الصلاة المكتوبة ، وتُؤدِّيَ الزكاة المفروضة)، وفي رواية له : قلت : وما آيةُ الإسلام ؟ قال : (أنْ تقول :

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢٠٠٣٦) قال شعيب الأرناؤوط : حديث صحيح لغيره وهذا إسناد حسن من أجل حكيم بن معاوية .

(٢) سنن النسائي (٢٥٦٨) قال الألباني : حسن .

أسلمتُ وجهي لله ، وتخليت ، وتقيم الصلاة ، وتُؤتي الزكاة ، وكلُّ مسلمٍ على مسلمٍ حرامٌ). وفي السنن[1] عن جبير بن مطعم ، عن النبي ﷺ أنه قال في خُطبته بالخَيْفِ من مِنى : (ثلاثٌ لا يُغل عليهن قلبُ مسلم : إخلاصُ العمل لله ، ومُناصحةُ ولاةِ الأمورِ ، ولزوم جماعة المسلمين ، فإن دعوتهم تُحيطُ من ورائهم). فأخبر أن هذه الثلاث الخصال تنفي الغِلَّ عن قلب المسلم . وفي الصَّحيحين[2] عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه سُئل أيُّ المسلمين أفضلُ؟ قال : (من سلم المسلمون من لسانه ويده) . وفي صحيح مسلم[3] عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : (المسلم أخو المسلم ، فلا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرامٌ : دمه وماله وعرضه).

دخول العمل في اسم الإيمان :

وأما ما ورد في دخوله في اسم الإيمان ، فمثل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** ﴾ (الأنفال:٢-٤)وقوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ** ﴾ (الحديد:١٦) . وقوله : ﴿ **وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾ (إبراهيم:١١) ، وقوله : ﴿ **وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (المائدة:٢٣) ، وقوله : ﴿ **وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (آل عمران:١٧٥) . وفي صحيح مسلم[4]

---

(١) سنن الترمذي (٢٦٥٨) ، سنن ابن ماجه (٣٠٤٧) قال الألباني : صحيح .

(٢) تقدم تخريجه صـ ١٥٨ .

(٣) صحيح مسلم (٢٥٦٤) .

(٤) المصدر السابق (٣٤) .

عن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ قال : (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمدٍ رسولاً) .

معنى الرضا بالله ربًّا :

والرضا بربوبية الله يتضمن الرضا بعبادته وحده لا شريك له ، والرضا بتدبيره للعبد واختياره له ، والرضا بالإسلام دينًا يتضمن اختياره على سائر الأديان ، والرضا بمحمدٍ رسولاً يتضمن الرضا بجميع ما جاء به من عند الله ، وقبول ذلك بالتسليم والانشراح كما قال تعالى : ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا** ﴾ (النساء:٦٥) . وفي الصحيحين[١] عن أنسٍ عن النبي ﷺ قال : (ثلاثٌ من كُن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرءَ لا يحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكرهُ أن يُلقى في النار) . وفي رواية[٢] : (وجد بهنّ طعم الإيمان) ، وفي بعض الرِوايات[٣] : (طعم الإيمان وحلاوته) . وفي الصحيحين[٤] عن أنس عن النبي ﷺ قال : (لا يؤمن أحدُكم حتى أكونَ أحب إليه من ولدِهِ ، ووالدِهِ ، والناس أجمعين) وفي رواية : (من أهله ، وماله ، والناس أجمعين). وفي مسند الإمام أحمد[٥] عن أبي رزين العُقيليّ قال : قلتُ : يا رسول الله ، ما الإيمان؟ قال : (أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما ، وأن تحترق في النار أحب إليك من أن تشرك بالله شيئًا ، وأن تُحب غير ذي نسبٍ لا تُحبه إلا لله عزوجل ، فإذا كنتَ كذلك ، فقد دخل حب الإيمان في

(١،٢) البخاري (١٦) (٢١) (٦٠٤١) (٦٩٤١) ، صحيح مسلم (٤٣) .

(٣) سنن النسائي (٤٩٨٧) قال الألباني : صحيح .

(٤) صحيح البخاري (١٥) ، صحيح مسلم (٤٤) .

(٥) مسند الإمام أحمد (١٦٢٣٩) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

قلبك كما دخل حُب الماء للظمآنِ في اليومِ القائظِ). قلت : يا رسول الله ، كيف لي بأن أعلم أنـِّي مؤمنٌ ؟ قال : ما من أمَّتي أو هذه الأُمَّة عبدٌ يعملُ حسنةً ، ويعلم أنـَّها حسنةٌ ، وأنَّ الله عزوجل جازيه بها خيرًا ، ولا يعمل سيئةً ، فيعلم أنها سيئةٌ ، ويستغفرُ الله منها ، ويعلمُ أنه لا يغفرها إلا هو ، إلا وهو مؤمنٌ).

من الإيمان أن تسرك حسناتك :

وفي المسند[1] وغيره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : (من سرته حسنته ، وساءته سيئته فهو مؤمنٌ) . وفي مسند بقي بن مخلدٍ عن رجلٍ سمع رسول الله ﷺ قال : (صريحُ الإيمان إذا أسأت ، أو ظلمت أحدًا : عبدك ، أو أَمَتك ، أو أحدًا من الناس ، صُمت أو تصدقت ، وإذا أحسنت استبشرت).

من صور الإيمان :

وفي مسند الإمام أحمد[2] عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : (المؤمنون في الدنيا على ثلاثةِ أجزاء : الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذي يأمُنُه الناس على أموالهم وأنفسهم ، ثم الذي إذا أشرف على طمعٍ تركه لله عزوجل) .

من تعريفات الرسول ﷺ للإيمان والإسلام وأفضل التطبيقات لهما :

وفيه أيضًا عن عمرو بن عبسة ، قال : قلت : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : (طيبُ الكلام ، وإطعامُ الطعام) فقلت : ما الإيمانُ ؟ قال : (الصبر والسَّماحة) قلت : أيُّ الإسلام أفضل ؟ قال : (من سلم المسلمون من لسانه

---

(١) المصدر السابق (١١٤) قال شعيب الأرناؤوط : اسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين .
(٢) المصدر السابق (١١٠٦٥) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

ويده) قلت : أي الإيمان أفضل ؟ قال : (خُلُقٌ حسنٌ)[1]. وقد فسر الحسن البصري الصبر والسماحة ، فقال : هو الصبر عن محارم الله عزوجل ، والسَّماحةُ بأداء فرائض الله عزوجل .

أكمل المؤمنين إيمانًا :

وفي الترمذي[2] وغيره عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : (أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا) ، وخرَّجه أبو داود[3] وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

من الإيمان التوحيد وإيتاء الزكاة والعلم بمعية الله :

وخرّج البزار في مسنده من حديث عبد الله بن معاوية الغاضري عن النبي ﷺ قال : (ثلاثٌ من فعلهُن ، فقد طَعِمَ طعْمَ الإيمان : من عبد الله وحده بأنه لا إله إلا الله ، وأعطى زكاة ماله طيبةً بها نفسه في كل عام) وذكر الحديث ، وفي آخره : فقال رجلٌ : وما تزكية المرء نفسه يا رسول الله ؟ قال : (أن يعلمَ أن الله معه حيث كان) . وخرج أبو داود[4] أول الحديث دون آخره . وخرج الطبراني[5] من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : (إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث كنت) .

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٩٤٥٤) قال شعيب الأرناؤوط : صحيح لغيره وهذا إسناد فيه ضعف وانقطاع .

(٢) سنن الترمذي (١١٦٢) وقال : حسن صحيح . قال الألباني : حسن صحيح .

(٣) سنن أبي داود (٤٦٨٢) قال الألباني : حسن صحيح .

(٤) المصدر السابق (١٥٨٢) قال الألباني : ضعيف .

(٥) معجم الطبراني الأوسط (٨٧٦٩) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢٥٨٩) : ضعيف .

ومن الإيمان الحياء من الله عزوجل :

وفي الصحيحين[1] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (الحياء شُعبة من الإيمان).

سهولة انقياد المؤمن لأمر الله ورسوله :

وخرج الإمام أحمد[2]، وابن ماجه[3] من حديث العرباض بن سارية عن النبي ﷺ قال : (إنما المؤمن كالجمل الأَنِفِ ، حيثما قِيدَ انقاد) . وقال الله عزوجل : ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ (الحجرات: ١٠) .

الإيمان وترابط أفراد المجتمع :

وفي الصحيحين[4] عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (مثلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم وتراحمهم مَثَل الجسدِ ، إذا اشتكى منهُ عضوٌ ، تداعى له سائرُ الجسدِ بالحُمَّى والسَّهر). وفي روايةٍ لمسلم : (المؤمنونَ كرجُلٍ واحدٍ) . وفي روايةٍ له أيضًا : (المسلمونَ كرجلٍ واحد إذا اشتكى عينُه ، اشتكى كلُّهُ ، وإن اشتكى رأسُه ، اشتكى كُلُّهُ). وفي الصحيحين[5] عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : (المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنيان يَشُدُّ بعضُه بعضًا) وشبَّك بين أَصابعه . وفي مسند الإمام أحمد[6] عن سهل ابن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس).

---

(١) صحيح البخاري (٢٤) (٥٧٦٧) ، صحيح مسلم (٣٦) .
(٢) مسند الإمام أحمد (١٧١٨٢) قال شعيب الأرناؤوط : حديث صحيح بطرقه وشواهده وهذا إسناد حسن .
(٣) سنن ابن ماجة (٤٣) قال الألباني : صحيح .
(٤) صحيح البخاري (٤٧٦) (١٣٦٥) (٢٣١٤) ، صحيح مسلم (٢٥٨٦) .
(٥) صحيح البخاري (٤٧٦) (١٣٦٥) (٢٣١٤) ، صحيح مسلم (٢٥٨٦) .
(٦) مسند الإمام أحمد (٢٢٩٢٨) قال شعيب الأرناؤوط : صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف .

الأخوة بين المؤمنين :

وفي سنن أبي داود[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : (المؤمنُ مرآةُ المؤمن ، المؤمن أخو المؤمن ، يكُفُّ عنه ضيعته ، ويحوطُه من ورائه). وفي الصحيحين[2] عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (لا يُؤْمِنُ أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبُّ لنفسه).

نفي الإيمان عمن لا يُؤمَن أذاه :

وفي صحيح البخاري[3] عن أبي شريح الكعبي عن النبي ﷺ قال : (والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن) قالوا : من ذاك يا رسول الله ؟! قال : (من لا يأمنُ جارهُ بوائِقَهُ) .

نفي الإيمان عمن يشبع وجاره جائع :

وخرّج الحاكم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (ليس بمؤمنٍ من يَشبعُ وجارهُ جائع) [4].

من شعب الإيمان أن تعطي لله وتمنع لله وتحب لله وتبغض لله :

وخرَّج الإمام أحمد[5] والترمذي[6] من حديث سهل بن معاذ الجهني عن النبي ﷺ قال (من أعطى لله ، ومنع لله ، وأحب لله ، وأبغض ـ زاد الإمام أحمد ـ وأنكحَ لله فقد استكمل إيمانه).

---

(١) سنن أبي داود (٤٩١٨) قال الألباني : حسن .

(٢) صحيح البخاري (١٣) ، صحيح مسلم(٤٥) .

(٣) صحيح البخاري (٥٦٧٠) .

(٤) المستدرك على الصحيحين (٧٣٠٧) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (١٤٩) .

(٥) مسند الإمام أحمد (١٥٦٥٥) قال شعيب الأرناؤوط : حديث صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف .

(٦) سنن الترمذي (٢٥٢١) وقال : حديث حسن . قال الألباني : حسن .

وتعمل لسانك في ذكر الله وتحب للناس ما تحب لنفسك :

وفي رواية للإمام أحمد[1] : أنه سأل النبي ﷺ عن أفضل الإيمان فقال : (أن تُحب لله ، وتُبغض لله ، وتُعمِل لسانك في ذكر الله) فقال : وماذا؟ يا رسول الله! قال : (أن تُحب للناس ما تُحب لنفسك ، وتكره لهمْ ما تكرهُ لنفسك).

وأن تقول خيراً أو تصمت :

وفي رواية[2] له : (وأنْ تقول خيرًا أو تصمت) . وفي هذا الحديث : أن كثرة ذكر الله من أفضل الإيمان .

الحب في الله سفير الولاية مع الله :

وخرج أيضًا من حديث عمرو بن الجموح : أنه سمع النبي ﷺ يقول : (لا يستحق العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله ، فإذا أحبَّ لله وأبغض لله ، فقد استحق الولاية من الله تعالى)[3]. وخرج أيضًا من حديث البراء بن عازبٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن أوثق عُرى الإيمان أن تُحب في الله ، وتبغض في الله)[4]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أحِب في الله ، وأبغِض في الله ، ووال في الله ، وعاد في الله ، فإنما تُنال ولايةُ الله بذلك ، ولن يَجِدَ عبدٌ طعم الإيمان وإن كثُرت صلاتُه وصومُه حتى يكون كذلك وقد صارت عامَّةُ مُؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يُجدي على أهله شيئًا . خرجه محمد بن جريرٍ الطبري ومحمد بن نصرٍ المروزي .

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢٢١٨٣) قال شعيب الأرناؤوط : صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف .

(٢) المصدر السابق (٢٢١٨٥) قال شعيب الأرناؤوط : صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف .

(٣) المصدر السابق (١٥٥٨٨) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

(٤) المصدر السابق (١٨٥٤٧) قال شعيب الأرناؤوط : حديث حسن بشواهده وهذا إسناد ضعيف .

فصل

عن الإحسان وكيف ورد في القرآن والسنة ؟ :

وأما الإحسان فقد جاء ذكره في القرآن في مواضع : تارةً مقرونًا بالإيمان ، وتارةً مقرونًا بالإسلام ، وتارةً مقرونًا بالتقوى ، أو بالعمل .

الإحسان مقرونًا بالإيمان :

فالمقرونُ بالإيمان : كقوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ (المائدة:٩٣) ، وكقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً** ﴾ (الكهف:٣٠) .

وبالإسلام :

والمقرونُ بالإسلام كقوله تعالى : ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ (البقرة:١١٢) وكقوله تعالى : ﴿ **وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ** ﴾ (لقمان:٢٢).

وبالتقوى :

والمقرونُ بالتقوى كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ (النحل:١٢٨) وقد يذكر مفردًا كقوله تعالى : ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ** ﴾ (يونس:٢٦) ، وقد ثبت في صحيح مسلم[1] عن النبي ﷺ تفسيرُ الزِّيادةِ بالنّظر إلى وجه الله عزوجل في الجنة ، وهذا مناسبٌ لجعله جزاءً لأهل الإحسان ؛ لأن الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربّه في الدنيا على وجه

---

(١) صحيح مسلم (١٨١) .

الحضور والمراقبة ، كأنه يراه بقلبه وينظر إليه في حال عبادته ، فكان جزاء ذلك : النَّظرَ إلى وجه الله عيانًا في الآخرة . وعكس هذا ما أخبر الله تعالى به عن جزاء الكُفار في الآخرة : ﴿ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ (المطففين:١٥) . وجعل ذلك جزاءً لحالهم في الدنيا ، وهو تراكم الرَّان على قلوبهم ، حتى حُجِبَتْ عن معرفته ومراقبته في الدنيا ، فكان جزاؤهم على ذلك أن حُجِبوا عن رُؤيته في الآخرة .

تفسير النبي ﷺ للإحسان :

فقوله ﷺ في تفسير الإحسان : (أنْ تعبد الله كأنّكَ تراهُ ...) إلخ مشيرًا إلى أن العبد يعبُد الله تعالى على هذه الصِّفة ، وهو استحضارُ قُربه ، وأنه بين يديه كأنه يراهُ ، وذلك يُوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم ، كما جاء في رواية أبي هريرة رضي الله عنه : (أن تخشى الله كأنَّك تراهُ) . ويوجب أيضًا : النُّصحَ في العبادة ، وبذل الجَهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها .

كيف وصى النبي ﷺ بالإحسان؟ :

وصيته لأبي ذر :

وقد وصى النبي ﷺ جماعةً من أصحابه بهذه الوصية كما روى إبراهيم الهجري ، عن أبي الأحوص ، عن أبي ذر ، رضي الله عنه قال : (أوصاني خليلي ﷺ أن أخشى الله كأني أراهُ ، فإن لم أكن أراه ، فإنه يراني) [١] .

ولابن عمر :

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (أخذَ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال : اعبُدِ الله كأنَّكَ تراهُ) خرجه النسائي[٢] .

---

(١) الأربعين على مذهب المتحققين من الصوفية لأبي نعيم (١٢) .
(٢) سنن النسائي الكبرى(١١٨٠٣) .

ولزيد بن أرقم :

ويروى من حديث زيد بن أرقم مرفوعًا وموقوفًا : كن كأنَّكَ ترى الله ، فإنْ لم تكن تراه ، فإنهُ يراكَ .

ولأنس :

وخرَّج الطبراني[1] من حديث أنس رضي الله عنه : أن رجلاً قال : يا رسول الله ! حدثني بحديثٍ واجعله موجزًا ؟ فقال : (صلِّ صلاة مودعٍ ؛ فإنَّك إن كنت لا تراه ، فإنه يراك).

ولحارثة :

وفي حديث حارثة المشهور وقد روي من وجوهٍ مرسلةٍ ، وروي متصلاً ، والمرسل أصح أن النبي ﷺ قال له : (كيف أصبحت يا حارثة؟) قال : أصبحتُ مؤمنًا حقًّا ، قال : (انظر ما تقولُ ، فإن لكل قول حقيقةً) ، قال : يا رسول الله ، عزفَتْ نفسي عن الدنيا ، فأسهرتُ ليلي ، وأظمأتُ نهاري ، وكأني أنظرُ إلى عرش ربي بارزًا ! وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة كيف يتزاورون فيها ! وكأني أنظرُ إلى أهل النار كيف يتعاووْنَ فيها . قال : (أبصرتَ فالزم عبدٌ نوَّرَ الله الإيمان في قلبه)[2].

ولأبي أمامة :

وروى من حديث أبي أمامة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ وصى رجلاً فقال له:(استحي من الله استحياءك من رجلين من صالحي عشيرتك لا يفارقانك)[3].

ويروى من وجهٍ آخرَ مرسلاً .

---

(١) معجم الطبراني الأوسط (٤٤٢٧) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٢) مسند البزار (٦٩٤٨) .

(٣) سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (١٥٠٠) .

ولمعاذ :

ويروى عن معاذ أن النبي ﷺ وصاه لما بعثه إلى اليمن فقال : (استحي من الله كما تستحي رجلاً ذا هيبةٍ من أهلك) [١]. وسئل النبي ﷺ عن كشف العورة خاليًا فقال : (الله أحقُّ أن يُستحيا منه) [٢].

من وصايا السلف في الإحسان وآثارهم فيه

ووصى أبو الدرداء رضي الله عنه رجلاً فقال له : اعبد الله كأنك تراه . وخطب عروة بن الزبير إلى ابن عمر ابنته وهما في الطواف ، فلم يُجبه ، ثم لقيه بعد ذلك فاعتذر إليه وقال : كنَّا في الطَّواف نتخايلُ الله بين أعيننا . أخرجه أبو نعيم وغيره .

تفسير الجملة الثانية في الوصية بالإحسان :

وقوله ﷺ : (فإن لم تكن تراه فإنه يراك) . قيل : إنه تعليلٌ للأول ، فإن العبد إذا أُمر بمراقبة الله في العبادة ، واستحضارِ قُربه من عبده حتى كأن العبد يراه فإنه قد يَشُق ذلك عليه ، فيستعين على ذلك بإيمانه بأن الله عز وجل يراه ويطَّلعُ على سره وعلانيته ، وباطنه وظاهره ، ولا يَخفى عليه شيءٌ من أمره . فإذا تحقَّق هذا المقامَ ، سهُل عليه الانتقال إلى المقام الثاني ، وهو دوام التحديق بالبصيرة إلى قُرب الله من عبده ، ومعيته ، حتى كأنه يراه . وقيل : بل هو إشارةٌ إلى أن من شقَّ عليه أن يعبد الله كأنه يراه ، فليعبُدِ الله على أن الله يراه ويطلع عليه ، فليستحي من نظره إليه كما قال بعضُ العارفين : اتق الله أن يكون أهونَ الناظرين إليك . وقال بعضهم : خَفِ الله على قدر قُدرته عليك ، واستحي من الله على قدر قُربه منك .

---

(١) ورد بلفظ : أوصيك أن تستحي من الله عز وجل كما تستحي رجلاً من صالحي قومك . سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٧٤١) .

(٢) سنن الترمذي (٢٧٦٩) وقال : حديث حسن . قال الألباني : حسن .

مقاما الإخلاص والمشاهدة :

وقال بعض العارفات من السلف : من عملَ لله على المُشاهدة فهو عارفٌ ، ومن عمل على مشاهدة الله إياهُ فهو مخلص . فأشارت إلى المقامين اللذين تقدم ذكرهما : أحدهما : مقام الإخلاص ، وهو أن يعمل العبد على استحضار مُشاهدة الله إياه ، واطلاعه عليه ، وقربه منه ، فإذا استحضر العبد هذا في عمله ، وعمل عليه ، فهو مخلصٌ لله ؛ لأن استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلى غير الله وإرادته بالعمل . والثاني : مقام المشاهدة وهو أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته لله تعالى بقلبه ، وهو أن يتنوَّرَ القلبُ بالإيمان ، وتنفُذَ البصيرةُ في العرفان ، حتى يصير الغيبُ كالعيان . وهذا هو حقيقة مقام الإحسان المشار إليه في حديث جبريل عليه السلام ، ويتفاوت أهل هذه المقامات فيه بحسب قوَّة نفوذ البصائر . وقد فسر طائفةٌ من العلماء المثل الأعلى المذكور في قوله عز وجل: ﴿ **وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ (الروم:٢٧) ، بهذا المعنى . ومثلُهُ

قوله تعالى : ﴿ **ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ** ﴾ (النور:٣٥) ، والمراد : مثلُ نورِهِ في قلبِ المؤمن كذا قاله أبي بن كعب وغيره من السلف .

الإحسان أفضل الإيمان :

وقد سبق حديث : (أفضل الإيمان : أن تعلم أن الله معك حيث كنت) وحديث : ما تزكية المرء نفسه ؟ قال : (أن يعلم أن الله معه حيث كان). وخرج الطبراني من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : (ثلاثةٌ في ظل الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله : رجلٌ حيث توجه عَلِمَ أن الله معه ...) ، وذكر الحديث .

أدلة قرب الله من العبد ومعيته له وشهوده عليه :

وقد دل القرآن على هذا المعنى في مواضع متعددةٍ ، كقوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ (البقرة:١٨٦)

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (الحديد:٤) وقوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (المجادلة:٧) وقوله : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (يونس:٦١) ، وقوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (ق:١٦) وقوله : ﴿ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ (النساء:١٠٨).

دعوة السنة إلى استحضار قرب الله عزوجل :

وقد وردت الأحاديث الصحيحة بالندب إلى استحضار هذا القُرب في حال العبادات كقوله ﷺ : (إن أحدَكم إذا قام يصلي ، فإنما يُناجي ربه ، أو ربه بينه وبين القبلة) [١] وقوله : (إن الله قِبَلَ وجهه إذا صلى) [٢] وقوله : (إنّ الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفِت) [٣]. وقوله للذين رفعوا أصواتهم بالذِّكرِ : (إنَّكم لا تَدعُونَ أصمَّ ولا غائبًا ، إنكم تدعون سميعًا قريبًا) [٤] وفي رواية : (وهو أقربُ إلى أحدكم من عُنُقِ راحلتِهِ) [٥] وفي رواية : (هو أقربُ إلى أحدكم من حبل الوريد) [٦]. وقوله : (يقول الله عزوجل : أنا مع عبدي إذا ذكرني ، وتحرَّكت بي شفتاه) [٧]. وقوله : (يقول الله عزوجل : أنا مع ظنِّ عبدي

---

(١) المستدرك على الصحيحين(٨٦١) .

(٢) سنن ابن ماجه (٦١٧) قال الألباني : صحيح .

(٣) المستدرك على الصحيحين(٨٦٢) .

(٤) صحيح البخاري (٦٠٢١) (٦٢٣٦) (٦٩٥٢) ، صحيح مسلم (٢٧٠٤) .

(٥) مسند الإمام أحمد (١٩٦٤١) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

(٦) أمالي ابن سمعون الواعظ (٢٧١) .

(٧) مسند الإمام أحمد (١٠٩٨١) قال شعيب الأرناؤوط : صحيح وهذا إسناد حسن .

بي ، وأنا معه حيث ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرتهُ في نفسي ، وإنْ ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأ خيرٍ منهم ، وإنْ تقرّب منِّي شبرًا تقرَّبتُ منه ذراعًا ، وإن تقرَّبَ منِّي ذراعًا تقرَّبتُ منه باعًا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً)[(١)].

معنى قرب الله عزوجل :

ومن فهم من شيء من هذه النصوص تشبيهًا أو حلولاً أو اتحادًا فإنّما أُتِيَ من جهله وسوء فهمه عن الله عزوجل وعن رسوله ، والله ورسوله بريئان من ذلك كله ـ فسُبحان مَن ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

تفسير بكر المزني :

قال بكر المزني : من مثلُك يا ابن آدم : خُلِّي بينك وبين المحراب والماء ؟! كلما شئت دخلت على الله عزوجل؟! وليس بينك وبينه ترجُمان.

متى يستأنس العبد بالله :

ومن وصل إلى استحضار هذا في حال ذكره الله وعبادته استأنس بالله واستوحش من خلقه ضرورةً .

من الآثار في ذلك :

قال ثور بن يزيد : قرأت في بعض الكتب : أن عيسى عليه السلام قال : يا معشر الحواريِّين ، كلموا الله كثيرًا ، وكلِّموا الناسَ قليلاً ، قالوا : كيف نكلِّمُ الله كثيرًا ؟ قال : اخلوا بمناجاته ! اخلوا بدُعائه . خرَّجه أبو نعيم . وخرَّج أيضًا بإسناده عن رياح ، قال : كان عندنا رجلٌ يصلي كل يومٍ وليلةٍ ألف ركعة حتى أُقعِدَ من رجليه فكان يصلي جالسًا كل ليلة ألف ركعة ، فإذا صلى العصر ، احتبى واستقبل القبلة ويقول : عجبتُ للخليقة كيف أَنِسَتْ بسواك ؟ بل عجبتُ

---

(١) صحيح البخاري (٦٩٧٠) ، صحيح مسلم (٢٦٧٥) .

للخليقة كيف استنارت قُلوبها بذكر سواكَ ؟ . وقال أبو أسامة : دخلت على محمد بن النضر الحارثي فرأيته كأنه ينقبض فقلت : كأنك تكره أن تُؤتى ؟ قال : أجل ! فقلت : أوَما تستوحش ؟ قال : كيف أستوحشُ وهو يقول أنا جليس من ذكرني . وقيل لمالك بن مِغْول ــ وهو جالس في بيته وحده : ألا تستوحش ؟ قال : أو يستوحش مع الله أحد ؟ وكان حبيب : أبو محمد يخلو في بيته ، ويقول : من لم تَقَرَّ عينُه بك فلا قرَّت عينُه ، ومن لم يأنس بك فلا أنِسَ . وقال غزوان : إني أصبت راحة قلبي في مُجالسة من لديه حاجتي . وقال مسلم بن يسار : ما تلذَّذ المتلذِّذون بمثل الخلوةِ بمناجاةِ الله عزوجل . وقال مسلم بن عابد : لولا الجماعة ما خرجتُ من بابي أبدًا حتى أموت . وقال : ما يجدُ المطيعونَ لله لذةً في الدنيا أحلى من الخلوة بمناجاة سيِّدهم ولا أحسب لهم في الآخرة من عظيم الثواب أكبر في صدورهم وألذَّ في قلوبهم من النظر إليه . ثم غُشي عليه . وعن إبراهيم بن أدهم، قال : أعلى الدرجات أن تنقطعَ إلى ربك ، وتستأنِس إليه بقلبك وعقلك وجميع جوارحك ، حتى لا ترجُو إلا ربك ، ولا تخاف إلا ذنبك ، وترسخ محبته في قلبك ، حتى لا تؤثِرَ عليها شيئًا ، فإذا كنت كذلك لم تبالِ في بَرٍّ كنت أو في بحرٍ أو في سهلٍ أو في جبلٍ ، وكان شوقُك إلى لقاء الحبيب شوق الظمآن إلى الماء البارد ، وشوق الجائع إلى الطعام الطيب ، ويكون ذكر الله عندك أحلى من العسل ، وأحلى من الماء العذب الصافي عند العطشان في اليوم الصائف . وقال الفضيل : طوبى لمن استوحش من الناس وكان الله جليسَه . وقال أبو سليمان : لا آنسني الله إلا به أبدًا . وقال معروف لرجلٍ : توكَّل على الله حتّى يكونَ جليسَك وأنيسَك وموضعَ شكواكَ . وقال ذو النون : من علامات المحبِّين لله أن لا يأنَسُوا بسواه ولا يستوحشوا معه . ثم قال : إذا سكن القلبَ حبُّ الله تعالى أنِسَ بالله ؛ لأن الله أجلُّ في صدور العارفين أن يُحبوا سواه .

تعقيب :

وكلامُ القوم في هذا الباب يطول ذكره جدًّا ، وفيما ذكرنا كفايةٌ إن شاء الله تعالى .

بيان أن علوم الفقه والأخلاق والعقيدة والتصوف لاتخرج عن هذا الحديث :

فمن تأمل ما أشرنا إليه مما دلَّ عليه هذا الحديث العظيم علم أن جميع العلوم والمعارف ترجعُ إلى هذا الحديث ، وتدخل تحته ، وأن جميع العلماء من فِرَقِ هذه الأمة لا تخرج علومهم التي يتكلمون فيها عن هذا الحديث وما دلَّ عليه مجملاً ومفصلاً ، فإنَّ الفقهاء إنما يتكلمون في العبادات التي هي من جملة خصال الإسلام ويضيفون إلى ذلك : الكلامَ في أحكام الأموال والأبضاع والدِّماء ، وكل ذلك من علم الإسلام كما سبق التنبيه عليه . ويبقى كثيرٌ من علم الإسلام من الآداب والأخلاق وغير ذلك لا يتكلم عليه إلا القليل منهم ولا يتكلمون على معنى الشهادتين وهما أصل الإسلام كله . والذين يتكلمون في أصول الديانات يتكلمون على الشهادتين وعلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر . والذين يتكلمون على علم المعارف والمعاملات يتكلمون على مقام الإحسان وعلى الأعمال الباطنة التي تدخل في الإيمان أيضًا ، كالخشية والمحبة والتوكل والرضا والصبر ونحو ذلك . فانحصرت العلوم الشرعية التي يتكلم عليها فرق المسلمين في هذا الحديث ورجعت كلها إليه . ففي هذا الحديث وحده كفايةٌ ولله الحمد والمنة .

الساعة وأمارتها واستئثار الله بعلمها :

وبقي الكلام على ذكر الساعة من الحديث ، فقول جبريل عليه السلام : أخبرني عن السَّاعة ، فقال النبي ﷺ : (ما المسئول عنها بأعلم من السَّائل) يعني أن علم الخلق كلّهم في وقت الساعة سواءٌ ، وهذه إشارةٌ إلى أن الله تعالى

استأثر بعلمها ، ولهذا جاء أن العالم إذا سئل عن شيء لا يعلمه أن يقول : لا أعلمه ، وأن ذا لا ينقصه شيئا بل هو من ورعه ودينه لأن فوق كل ذي علم عليم .

أدلة استئثار الله بعلم الساعة :

١- من القرآن :

وفي حديث[١] أبي هريرة رضي الله عنه : قال النبي ﷺ : (في خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى ثم تلا : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ** ﴾ (لقمان:٣٤) . وقال الله عز وجل : ﴿ **يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗ** ﴾ (الأعراف:١٨٧).

٢- ومن السنة :

وفي صحيح البخاري[٢] عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (مفاتيحُ الغيبِ خمسٌ لا يعلمها إلاّ الله) ثم قرأ هذه الآية : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ** ﴾ . وخرجه الإمام أحمد[٣] ولفظه : أن النبي ﷺ قال : (أوتيتُ مفاتيحَ كل شيءٍ إلاّ الخمس : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ** ﴾ (لقمان:٣٤) . وخرَّج[٤] أيضًا بإسناده عن ابن مسعود ، قال : أوتي نبيُّكم ﷺ مفاتيح كل شيءٍ غير خمسٍ : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ** ﴾ (لقمان:٣٤).

---

(١) صحيح البخاري (٥٠) .

(٢) صحيح البخاري (٤٤٢٠) (٤٥٠٠) (٦٩٤٤) .

(٣) مسند الإمام أحمد (٥٥٧٩) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

(٤) المصدر السابق (٣٦٥٩) قال شعيب الأرناؤوط : صحيح لغيره وهذا إسناد يحتمل التحسين وحسنه ابن كثير في التفسير .

أمارات الساعة :

وقوله : (فأخبرني عن أماراتها) يعني : عن علاماتها التي تدل على اقترابها . وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (سأُحَدِّثك عن أشراطها) . وهي علاماتها أيضًا . وقد ذكر النبي ﷺ للساعة علامتين :

الأولى : أن تلد الأمة ربتها :

الأولى : (أنْ تلد الأمة ربَّتها) والمراد بربَّتها سيدتُها ومالكتها وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه : (ربها) . وهذه إشارةٌ إلى فتح البلاد ، وكثرة جلب الرقيق حتى تكثُر السراري وتكثر أولادهن فتكون الأمة رقيقةً لسيِّدها وأولاده منها بمنْزلته ، فإن ولد السيدة بمنْزلة السيد فيصير ولدُ الأمة بمنْزلة ربها وسَيدها .

استنتاجات الفقهاء من ذلك :

وذكر الخطابي أنه استُدل بذلك من يقول إن أم الولد إنما تعتق على ولدها من نصيبه من ميراث والده ، وأنها تنتقل إلى أولادها بالميراث فتعتق عليهم ، وأنها قبل موت سيدها تُباع . قال : وفي هذا الاستدلال نظر . قلت : قد استدل به بعضُهم على عكس ذلك ، و أن أمَّ الولد لا تُباع ، وأنها تعتق بموت سيِّدها بكل حال ؛ لأنه جعل ولد الأمَة ربها ، فكأن ولدها هو الذي عتقها ، فصار عتقها منسوبًا إليه ؛ لأنه سببُ عتقها ، فصار كأنَّه مولاها . وهذا كما روي عن النبي ﷺ أنه قال في أمِّ ولده ماريَّة لما ولدت إبراهيمَ عليه السلام : (أعتَقَها ولدُها) [1] . وقد استدلّ بهذا الإمام أحمد ، فإنَّه قال في رواية محمد بن الحكم عنه : تلد الأمةُ ربتها : تكثُر أمَّهاتُ الأولاد ، يقول : إذا ولدت ، فقد عتقت لولدها ، وقال : فيه حجة أنَّ أمهات الأولاد لا يُبَعْنَ . وقد فسر قوله : (تلدُ الأمةُ ربَّتها) بأنه يكثرُ جلبُ الرَّقيق حتى تجلب البنت فتعتق ثم تجلب الأم

---

(١) سنن ابن ماجه (٢٥٠٧) قال الألباني : ضعيف .

فتشتريها البنت وتستخدمها وهي جاهلة بأنها أمها . وقد وقع هذا في الإسلام . وقيل : معناه أن الإماء يَلِدنَ الملوكَ . وقال وكيع : معناه تلدُ العجمُ العربَ ، والعرب ملوك العجم وأربابٌ لهم .

الأمارة الثانية :

والعلامة الثانية : (أن ترى الحُفاة العُراة العالَة)والمراد بالعالة : الفقراء كقوله تعالى : ﴿ **وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ** ﴾ (الضحى:٨) وقوله : (رعاءَ الشاءِ يتَطاولونَ في البُنيان) هكذا في حديث عمر رضي الله عنه . والمراد أن أسافلَ الناس يصيرون رؤساءهم وتكثر أموالهم حتى يتباهون بطول البنيان ، وزخرفته ، وإتقانه .

أمارات أخرى :

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه ذكر ثلاث علامات منها : (أن تكون الحُفاة العراةُ رؤوسَ الناس ومنها : أن يتطاول رُعاة البَهم في البنيان) . وروى هذا الحديث عبد الله بن عطاء عن عبد الله بن بُريدة فقال فيه : (وأنْ تَرى الصمَّ البُكمَ العُمي الحفاةَ رعاءَ الشاء يتطاولون في البنيان ملوك الناس) قال : فقام رجلٌ ، فانطلق ، فقلنا : يا رسول الله ! من هؤلاء الذين نعتَّ ؟ قال : (هم العُريب). وكذا روى هذا الحديث بهذه اللفظة الأخيرة عليٌّ بن زيد ، عن يحيى ابن يعمر ، عن ابن عمر . وأما الألفاظ الأُول فهي في الصحيح من حديث أبي هريرة بمعناها . وقوله : (الصمّ البُكم العُمي) إشارة إلى جهلهم ، وعدم علمهم وفهمهم . وفي هذا المعنى أحاديث متعددة . . فخرَّج الإمام أحمد[١] والترمذي[٢] من حديث حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لا تقومُ الساعة حتى يكون أسعدُ الناسِ بالدنيا لكع بن لكع). وفي صحيح ابن حبان[٣]

---

(١) مسند الإمام أحمد(٢٣٣٥١)قال شعيب الأرناؤوط:حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف.
(٢) سنن الترمذي (٢٢٠٩) وقال : حسن غريب . قال الألباني : صحيح .
(٣) صحيح ابن حبان (٦٧٢١) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح .

عن أنس عن النبي ﷺ قال : (لا تنقضي الدنيا حتّى تكونَ عندَ لكع بن لكعٍ) . وخرّج الطبراني[1] من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لا تقوم الساعةُ حتى يغلبَ على الدنيا لكع بن لكع) . وخرّج الإمام أحمد[2] والطبراني[3] من حديث أنس عن النبي ﷺ قال:(بين يدي الساعةِ سنُونَ خدَّاعةٌ يُتَّهمُ فيها الأمينُ، ويؤْتَمنُ فيها المتَّهمُ ، وينطق فيها الرُّويبضةُ) قالوا : وما الرويبضَةُ ؟ قال : (السَّفيه ينطق في أمرِ العامَّة). وفي رواية : (الفاسقُ يتكلَّمُ في أمر العامة) . وفي رواية الإمام أحمد[4] : (إنَّ بين يدي الدجال سنونَ خداعةٌ يُصدّقُ فيها الكاذبُ ، ويكذّبُ فيها الصادقُ ، ويخوَّن فيها الأمينُ ، ويؤتمنُ فيها الخائنُ) وذكر باقيه .

مضمون ما ذكر :

ومضمون ما ذكر من أشراط الساعة في هذا الحديث يَرجِعُ إلى أن الأمور تُوَسَّدُ إلى غير أهلها ، كما قال النبي ﷺ لمن سأله عن الساعة : (إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)[5].

وأدلة ذلك :

فإنه إذا صار الحفاةُ العراةُ رعاءُ الشاءِ ، وهم أهل الجهل والجفاء رؤوس الناس وأصحابَ الثروة والأموال حتى يتطاولوا في البنيان فإنه يفسد بذلك نظامُ الدين والدنيا ، فإنه إذا رَأَسَ الناس من كان فقيرًا عائلاً فصار ملكًا على الناس سواء كان مُلكُه عامًّا أو خاصًّا في بعض الأشياء ، فإنه لا يكادُ يعطي الناس حقوقهم بل يستأثر عليهم بما استولى عليهم من المال ، فقد قال بعض السلف :

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني (٣٠٧٦) .
(٢) مسند الإمام أحمد (٨٤٤٠) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده حسن ، (١٣٣٢٢) قال شعيب الأرناؤوط : حديث حسن وهذا إسناد ضعيف .
(٣) المعجم الأوسط للطبراني (٣٢٥٨) .
(٤) مسند الإمام أحمد (٧٨٩٩) قال شعيب الأرناؤوط : حسن وهذا إسناد ضعيف .
(٥) صحيح البخاري (٥٩) .

لأنْ تمد يَدك إلى فم التِّنين فيقْضِمَها خيرٌ لك من أن تمُدَّها إلى يد غنيٍّ قد عالج الفقرَ. وإذا كان مع هذا جاهلاً جافيًا فسد بذلك الدين ؛ لأنه لا يكون له همة في إصلاح دين الناس ولا تعليمهم ، بل هِمته في جباية المال واكتنازه ولا يُبالي بما فسد من دين الناس ، ولا بمن ضاع من أهل حاجاتهم .

وفي حديثٍ آخر :

(لا تقوم الساعةُ حتى يسودَ كُلَّ قبيلةٍ منافقوها)[1]. وإذا صار ملوكُ الناس ورؤوسُهم على هذه الحال انعكست سائر الأحوال فصُدِّقَ الكاذبُ ، وكُذِّبَ الصادقُ ، وائتُمِنَ الخائنُ ، وخُوِّنَ الأمين ، وتكلَّمَ الجاهل ، وسكتَ العالم ، أو عُدِمَ بالكلية . كما صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال : (إن من أشراط الساعة أن يُرفَعَ العلمُ ، ويظهر الجهلُ)[2] وأخبر : (أنه يقبضُ العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوسًا جُهالاً فسُئِلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا)[3]. وقال الشعبي : لا تقومُ الساعة حتى يصير العلم جهلاً والجهلُ علمًا . وهذا كله من انقلاب الحقائق في آخر الزمان وانعكاس الأمور . وفي صحيح الحاكم[4] عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا : (إن من أشراط الساعة أن يُوضع الأخيارُ ، ويُرفع الأشرارُ).

التطاول في البنيان وعلام يدل ؟ :

وفي قوله : (يتطاولون في البنيان) دليلٌ على ذمِّ التباهي والتفاخر ، خصوصًا بالتطاول في البنيان ، ولم يكن إطالة البناء معروفًا في زمن النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بل كان بنيانهم قصيرًا بقدر الحاجة . وروى أبو الزناد عن

---

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١٧١٩) : ضعيف جدًّا .

(٢) صحيح البخاري (٤٩٣٣) (٦٤٢٣) (٨١٨٠) ، صحيح مسلم (٢٧١٦) .

(٣) صحيح البخاري (١٠٠) ، صحيح مسلم(٢٦٧٣) .

(٤) المستدرك على الصحيحين (٨٦٦٠)(٨٦٦١) وقال : هذا حديث صحيح الإسنادين جميعاً ولم يخرجاه .

الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تقومُ الساعةُ ، حتَّى يتطاول الناسُ في البنيان) خرَّجه البخاري[1].

النهي عن التطاول في البنيان وذمه :

وخرَّج أبو داود[2] من حديث أنس : أن النبي ﷺ خرج فرأى قُبَّةً مشرفة عالية فقال : (ما هذه ؟) قالوا : هذه لفلان : رجل من الأنصار فجاء صاحبها فسلّم على رسول الله ﷺ فأعرضَ عنه ، فعل ذلك مرارًا ، فهدمها الرجل . وخرَّجه الطبراني[3] من وجه آخر عن أنس أيضًا وعنده : فقال النبي ﷺ : (كلُّ بناءٍ ـ وأشار بيده هكذا على رأسه ـ أكثر من هذا فهو وبالٌ) . وقال حريث ابن السائب ، عن الحسن : كنتُ أدخلُ بيوت أزواج النبيِّ ﷺ في خلافة عثمان رضي الله عنه ، فأتناولُ سقفَها بيدي . وروي عن عمر رضي الله عنه أنه كتب : لا تُطيلوا بناءكم ، فإنَّه شرُّ أيامكم . وقال يزيد بن أبي زياد : قال حذيفة لسلمان : ألا نبني لك مسكنًا يا أبا عبد الله؟ قال : لِم ؟ لتجعلني ملكًا ؟ قال : لا ! ولكن نبني لك بيتًا من قصب ونسقفه بالبواري إذا قمت كاد أن يصيب رأسك وإذا نمت كاد أن يمس طرفيك قال : كأنَّك كنت في نفسي . وعن عمار ابن أبي عمار قال : إذا رفع الرجل بناءه فوق سبع أذرع نودي : يا أفسق الفاسقين إلى أين؟ خرّجه كلّه ابن أبي الدنيا . وقال يعقوب بن شيبة في مسنده : بلغني عن ابن عائشة ، حدثنا ابن أبي شُميلة قال : نزل المسلمون حول المسجد يعني بالبصرة في أخبية الشعرَ ففشا فيهم السرَق ، فكتبوا إلى عمر ، فأذن لهم في اليراع ، فبَنوا بالقصب فَفشا فيهم الحريق ، فكتبوا إلى عمر رضي الله عنه ، فأذن لهم في المدر ونهى أن يرفع الرجل سَمكهُ أكثر من سبعة أذرع وقال : إذا بنيتم منه بيوتكم فابنوا منه المسجد .

---

(١) صحيح البخاري (٦٧٠٤) .

(٢) سنن أبي داود (٥٢٣٧) قال الألباني : ضعيف .

(٣) المعجم الأوسط للطبراني (٣٠٨١) .

وفي المساجد :

قال ابن أبي عائشة : وكان عتبة بن غزوان بنى مسجد البصرة بالقصب ، قال (وكان يقال) : من صلى فيه وهو من قصب أفضلُ ممن صلى فيه وهو من لبنٍ ، ومن صلى فيه وهو من لبنٍ أفضل ممن صلى فيه وهو من آجُرٍ . وخرَّج ابن ماجه[1] من حديث أنس عن النبي ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناسُ في المساجد). ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (أراكم ستُشرِّفون مساجدكم بَعْدي كما شرَّفت اليهودُ كنائسها وكما شرَّفتِ النَّصارى بِيَعَها)[2]. وروى ابن أبي الدُّنيا بإسناده[3] عن إسماعيل بن مسلم ، عن الحسن رضي الله عنه قال : لما بنى رسول الله ﷺ مسجَده قال : (ابنوه عريشًا كعريش موسى عليه السلام). قيل للحسن : وما عريشُ موسى؟ قال : إذا رفع يَده بلغ العريش ، يعني : السقف[4].

الأصل الثالث : معرفة نبيكم عليه الصلاة والسلام .

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم . وهاشم من قريش ، وقريش من العرب ، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام . وله من العمر ثلاث وستون سنة ، منها أربعون قبل النبوة ، وثلاث وعشرون نبيًّا رسولاً . نبئ بـ ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ وأرسل بـ ﴿ ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾ وبلده مكة ، بعثه الله بالنذارة عن الشرك ، ويدعو إلى التوحيد .

والدليل قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾ (المدثر: ١-٧)

---

(١) سنن ابن ماجه (٦٠٤) قال الألباني : صحيح .

(٢) المصدر السابق (٤٧٤) قال الألباني : ضعيف .

(٣) قال الالباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦١٦): مرسل .

(٤) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ٩٧/٣-١٤٦ .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ** ﴾ أي : المتدثر ، أُدغمت التاء في الدال ، أي : المتلفّف في ثيابه ، من الدِّثار ، وهو كلُّ ما كان من الثياب فوق الشعار ، والشعار : الثوب الذي يلي الجسد . قيل : هي أول سورة نزلت[1] ، والصحيح :أن أول ما نزل : ﴿ **ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ** ﴾ إلى قوله ﴿ **عَلَّمَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ** ﴾ (العلق:٥)[2] ثم فتر الوحي نحو سنتين ، فحزن رسولُ الله ﷺ ، حتى جعل يأتي شواهق الجبال ، فيريد أن يتردّى منها ، فأتاه جبريلُ عليه السلام ، وقال : إنك نبي الله ، فرجع إلى خديجة ، فقال : دثِّروني وصُبوا عليّ ماءً بارداً ، فنزل : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ** ﴾ ، وقيل : سمع من قريش ما كرهه ، فاغتم ، فتغطّى بثوبه متفكرًا ، كما يفعل المغتم ، فأمر ألاّ يدع إنذارهم وإن آذوه ، فقال : ﴿ **قُمۡ** ﴾ أي : من مضجعك ، أو قيام عزم وتصميم ، ﴿ **فَأَنذِرۡ** ﴾ أي : فَحذِّر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا ، أو فافعل الإنذار من غير تخصيص ، كما يُنبئ عنه قوله تعالى : ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ﴾ (سبأ:٢٨) . ﴿ **وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ** ﴾ أي : خُص ربك بالتكبير ، وهو التعظيم قولاً واعتقادًا ، فلا يَكْبُرُ في عينك إلاّ الله ، وقل عندما يعروك من غيره : الله أكبر . رُوي أنه لمّا نزل ، قال رسولُ الله ﷺ : (الله أكبر) فكبّرت خديجة وفرحت ، وأيقنت أنه الوحي . وقد يُحمل على تكبير الصلاة ، والفاء بمعنى الشرط ، كأنه قيل : أيّ شيء حدث فلا تدع تكبيره . ﴿ **وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ** ﴾ مما ليس بطاهر ، فإنه واجب في الصلاة ، فلا تصح إلاّ بها ، ووَصْفُ كمال في غيرها ، وذلك بصيانتها عن النجاسات ، وغسلها بعد إصابتها ، أو قَصِّرْهاً مخالفةً للعرب في تطويلهم الثياب ، وجرهم الذيول كِبرًا ، فإنّ طولها يؤدي إلى جرها على

---

(١) صحيح البخاري (٤) (٤٦٣٨) (٤٦٧١) ، صحيح مسلم (١٦١) .

(٢) صحيح البخاري (٣) (٤٦٧٠) ، صحيح مسلم (١٦٠) .

القاذورات ، وهو أول ما أُمر به ﷺ من ترك العادات المذمومة ، وقيل : المراد تطهير النفس مما يُستقبح من الأفعال ، ويُستهجن من الأحوال ، يُقال : فلان طاهر الذيل والرداء ، إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ومدانس الأخلاق ، ولأنّ مَن طهر باطنه يطهر ظاهره غالبًا . قال ابن العربي في أحكامه : والذي يقول : إنها الثياب المَجازية أكثر . اهـ . ومَن قال : إنها الحسية استدل بها على وجوب غسل النجاسة للصلاة ، وبه قال الشافعي ، ومالك ، في إحـدى الروايات عنه . ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ أي : دم على هجرانها ، قاله الزهري وغيره . وقال ابن عباس : أي : اترك المآثم التي توجب الرجز ، وهو العذاب ، وفيه لغتان : كسر الراء ، وضمها ، وقُرئ بهما معًا . قال الكسائي : الرُّجز ـ بالضم : الوثن ، وبالكسر : العذاب . ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ أي : ولا تعطِ مُتكثّرًا ، أي : رائيًا لما تعطيه كثيرًا ، أو طالبًا للكثير على ما أعطيت ، فإنك مأمور بأجلّ الأخلاق ، وأشرف الآداب ، وهو من المنّ بمعنى الإنعام ، يُقال : مَنّ عليه إذا أعطاه وأنعم عليه ، و ﴿ تَسْتَكْثِرُ ﴾ : حال ، أي : لا تُعطِ حال كونك تُعد ما أعطيت كثيرًا ، أو طالبًا أكثر مما أعطى . وقرأ الحسن بالجزم جواب النهي . ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ أي : لوجه الله استعمل الصبر على أوامره ونواهيه ، وعلى تحمُّل مشاق أعباء التبليغ وأذى المشركين .

الإشارة : يا أيها المتدثر بالعلوم والأسرار والمعارف ؛ قُم فأنذر الناسَ ، والخطاب للداعي الأكبر ﷺ ، ويتوجه لخليفته في كل زمان ، وهو مَن وجّهه الله لتذكير العباد ليحيي به الدين في أول كل عصر ، كما في الأثر(١) . قال الورتجبي : يا أيها المدثر ، أي : يا أيها الغريق في قَلزوم القِدم ، قُم لدعوى

---

(١) سنن أبي داود (٤٢٩١) وفيه : حدثنا سليمان بن داود المهري أخبرنا ابن وهب أخبرني سعيد بن أبي أيوب عن شراحيل بن يزيد المعافري عن أبي علقمة عن أبي هريرة فيما أعلم عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » قال أبو داود : رواه عبد الرحمن بن شريح الإسكندراني لم يجز به شراحيل . قال الشيخ الألباني : صحيح .

محبتي ، وأنذر أحبائي عن الاشتغال بغيري ، وأَظْهِر جواهر حقائب بحر غيبي للمقبلين إلينا . ثم قال على قوله : ﴿ **وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ** ﴾ ، عن الحُسيْن : عَظِّم قدره عن احتياجه إليك في الدعوة إليه ، فإنّ إجابة دعوتك ممن سبقت له الهداية مني . اهـ . قال القشيري : كبِّر ربك عن احتياجه إلى تكبير أحد ، فإنّ كبرياءه ذاتيٌّ له ، قائم بنفسه ، لا بغيره من المكبِّرين . اهـ . والمتبادر أنه أمْرَ الداعي بتعظيم الله وإجلاله دون غيره من سائر المنذرين ، فلا تمنعه جلالة أحد من العظماء والمتكبرين عن التصدِّي لإنذاره وتذكيره . وقوله تعالى : ﴿ **وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ** ﴾ أي : نَزّه ثياب إيمانك وعرفانك عن لوث الطمع في الخلق ، وخصوصًا عند الدعوة ، فلا تسأل عليه أجرًا ، ولا تؤمّل في جانبه عوضًا ، فتُحرم بركة إنذارك ، ويقلّ الانتفاع به . وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : رأيت النبيّ ﷺ في المنام ، فقال : يا علي ، طَهِّر ثيابك من الدنس ، تَحْظَ بمدد الله في كل نَفَس ، فقلتُ : وما ثيابي يا رسول الله ؟ فقال : إنّ الله كساك حُلة المعرفة ، ثم حُلة المحبة ، ثم حُلة التوحيد ، ثم حُلة الإيمان ، ثم حُلة الإسلام ، فمَن عرف الله صَغُر لديه كل شيء ، ومَن أحبّ الله هان عليه كل شيء ، ومَن وحّد الله لم يشرك به شيئًا ، ومَن آمن بالله أَمِن من كل شيء ، ومَن أسلم لله قلّما يعصيه ، وإن عصاه اعتذر إليه ، وإذا اعتذر إليه قَبِل عُذره . قال : ففهمتُ حينئذ قوله تعالى : ﴿ **وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ** ﴾ . اهـ . والرُّجز : كلُّ ما يشغل عن الله ، فيُهجر اشتغالاً بالله ، ولا تمنن ببذل مُهجتك على ربك ، مستكثرًا لذلك ، فإنّ قيمة وجودك لا تُساوي عُشر العشر من عظمة وجوده ، الذي يمنحك بدلاً من وجودك الذي أعطيته ، أو : ولا تمنن عليه بوجودك تطلب وجوده ، فإنّ وجوده إنما يُنال بكرمه ، لا بشيء من العلل ، ولربك فاصبر ، أي : ولأجل الوصول إلى ربك فاصبر على مشاق السير ، أو : ولربك فاصبر على إذاية الخلق في حال الدعوة . قال الورتجبي : ولربك فاصبر في بذل وجودك في جريان تقديره ، أو مع ربك ، وفي ربك ، حين انكشف لك

أنوار أسراره ، وخاصيتُكَ في النظر إلى جلاله وجماله ، ولا تنزعج ، فتسقط عن درجة التمكين . وقال القاسم : ولربك فاصبر تحت القضاء والقدر . اهـ [1].

ومعنى ﴿ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾ ينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴾ عظمه بالتوحيد ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴾ أي طهر أعمالك[2] من الشرك ﴿ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴾ الرجز : الأصنام ، وهجرها تركها والبراءة منها وأهلها ، أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد ، وبعد العشر عرج به إلى السماء ، وفرضت عليه الصلوات الخمس ، وصلى في مكة ثلاث سنين ، وبعدها أمر بالهجرة إلى المدينة .

والهجرة : الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام والهجرة فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام ، وهي باقية إلى أن تقوم الساعة : والدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴾ (النساء:٩٧-٩٩)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ** ﴾ تتوفاهم ﴿ **ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ** ﴾ أي : ملك الموت وأعوانه ، يعنى : تقبضُ أرواحهم ، ﴿ **ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ** ﴾ بترك الهجرة ومرافقة الكفرة ، ﴿ **قَالُواْ** ﴾ أي : الملائكة في توبيخهم : ﴿ **فِيمَ كُنتُمۡ** ﴾ أي : في

---

(١) تفسير البحر المديد ٨/١٧٢-١٧٤ .

(٢) تفسير إشاري .

أي شيء كنتم من أمر دينكم : أعلى الشك أو اليقين؟ أو : في أي بلد كنتم : فى دار الكفر أو الإسلام؟ ﴿ **قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ** ﴾ فعجزنا عن الهجرة وإظهار الدين خوفًا من المشركين ، ﴿ **قَالُوٓاْ** ﴾ أي : الملائكة تكذيبًا لهم وتبكيتًا : ﴿ **أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا** ﴾ إلى قطر آخر ، كما فعل المهاجرين إلى الحبشة والمدينة ، لكن حبستكم أموالكم ، وعزّت عليكم أنفسكم ، ﴿ **فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ** ﴾ لتركهم الهجرة الواجبة في ذلك الوقت ، ومساعدتهم الكفار على غزو المسلمين ، ﴿ **وَسَآءَتْ مَصِيرًا** ﴾ أي : قبحت مصيراً جهنم التي يصيرون إليها . نزلت في ناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يُهاجروا ، فخرجوا يوم بدر مع المشركين فرأوا قلةَ المسلمين ، فقالوا : غرّ هؤلاء دينهم ، فقتلوا ، فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم ، كما يأتي ، فلا تجوز الإقامة تحت حكم الكفر مع الاستطاعة ، بل تجب الهجرة ، ولا عذر في المقام ، وإن منعه مانعٌ فلا يكون راضيًا بحاله مطمئن النفس بذلك ، وإلا عمّه البلاء ، كما وقع لأهل الأندلس ، حتى صار أولادهم كفارًا والعياذ بالله ، وكذلك لا تجوز الإقامة في موضع تغلبُ فيه المعاصي وترك الدين . قال البيضاوي : في الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن فيه الرجل من إقامة دينه ، وعن النبي ﷺ : (من فرّ بدينه من أرضٍ ، ولو كان شبرًا من الأرض ، استوجب الجنة ، وكان رفيقَ إبراهيم ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام)[1] . قلت : ويدخل فيه ـ على طريق الخصوص ـ من فرّ من موضع تكثر فيه الشهوات والعوائد ، أو تكثر فيه العلائق والشواغل ، إلى موضع يقلّ فيه ذلك ، طلبًا لصفاء قلبه ومعرفة ربه ، بل هو أولى ، ويكون رفيقا لهما في حضرة القدس عند مليك مقتدر . والله تعالى أعلم . ثم استثنى من تَحقّق

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف : أخرجه الثعلبي في تفسير العنكبوت من رواية عباد بن منصور الناجي عن الحسن مرسلاً .

إسلامُه وحبسه العذر ، فقال : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ أي : المماليك والصبيان ، وفيه إشعار بأنهم على صدد وجوب الهجرة ، فإنهم إذا بلغوا وقدروا على الهجرة ، فلا محيص عنها ، وأن قومهم يجب أن يهاجروا بهم متى أمكنت الهجرة . قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : كنت أنا وأبي وأمي ممن استثنى الله بهذه الآية . ثم وصفهم بقوله : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ﴾ أي : قوة على ما يتوقف عليه السفر ، من ركوب أو غيره ، ﴿ وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ أي : لا يعرفون طريقًا ، ولا يجدون دليلاً ، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ وعبّر بحرف الرجاء إيذانًا بأنّ ترك الهجرة أمرٌ خطير ، حتى إن المضطر من حقه أن لا يأمن ، ويترصد الفرصة ، ويُعلّق بها قلبه ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ فيعفو ويغفر لمن غلبه العذر . وبالله التوفيق .

الإشارة : كل من لم يتغلغل في علم الباطن ، مات ظالمًا لنفسه ، أي : باخسًا لها لما فوّتها من لذيذ الشهود ، ومعرفة الملك المعبود ، ولا يخلو باطنه من الإصرار على أمراض القلوب ، التي هي من أكبر الذنوب ، فإذا توفته الملائكة على هذه الحالة ، قالت له : فيم كنتَ حتّى لم تهاجر إلى من يُطهرك من العيوب ، ويوصلك إلى حضرة علام الغيوب ؟ فيقول : كنت من المستضعفين في علم اليقين ، ولم أقدر على صحبة أهل عين اليقين وحق اليقين حبسني عنهم حُبّ الأوطان ، ومرافقة النساء والولدان . فيقال له : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجر فيها إلى من يخلصك من الحجاب ، وينفي عنك الشك والارتياب ؟ فلا جرم أن مأواه سجن الأكوان ، وحرمان الشهود والعيان ، إلا من أقر بوجود ضعفه ، واضطر إلى مولاه في تخليصه من نفسه ، فعسى ربه أن يعطف عليه ، فيوصله إلى عارف من أوليائه ، حتى يلتحق بأحبابه وأصفيائه . وما ذلك على الله بعزيز[1] .

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/٨٩ ، ٩٠ .

وقوله تعالى ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[1]
(العنكبوت:٥٦)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ ﴾ ، فإذا لم يتيسر لكم إقامةُ دينكُم في بلد ، فاخرجوا منها إلى أرض يتهيأ لكم فيها استقامة دينكم ، والبقاع تتفاوت فى ذلك تفاوتا كبيرًا ، والناس مختلفون ، فأهل الشرائع يطلبون البقاع التي يتيسر لهم فيها استقامة ظواهرهم ، كالمدن والقرى الكبار ، التي يكثر فيها العلم وأهله . وأهل الحقائق من الصوفية يطلبون البقاع التي تسلم فيها قلوبهم من العلائق والشواغل ، أينما وجدوها عمروها ، إن تهيأ لهم الاجتماع على ربهم . وعن سهل رضي اللّه عنه : إذا ظهرت المعاصي والبدع في أرض ، فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين . وعن رسول اللّه ﷺ : (من فرّ بدينه من أرض ، إلى أرض ، وإن كان شبرًا ، استوجب الجنة ، وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام)[2]. ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ أي : فخصوني بالعبادة . وإياى : مفعول لمحذوف ، ومفعول (اعبدوني) : الياء المحذوفة ، أي : فاعبدوا إياي ، فاعبدوني . والفاء : جواب الشرط ، محذوف ، إذ المعنى : إن أرضى واسعة ، فإن لم تخلصوا العبادة لي في أرضٍ ، فاخلصوا لي في غيرها . ثم شجّع المهاجرين بقوله : ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ﴾ ، أي : واجدة مرارته وكربه لأنها إذا تيقنت بالموت سهل عليها مفارقة وطنها . ﴿ ثُمَّ

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (العنكبوت:٥٦-٥٩) .

(٢) سبق تخريجه صـ ١٩٢ .

﴿ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ بالموت ، فتجازون على ما أسلفتم . ومن عَلم أن هذا عاقبته ينبغي أن يجتهد في الاستعداد له ، فإن لم يتهيأ في أرض فليهاجر منها . **﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم ﴾** لننزلنهم **﴿ مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفًا ﴾** عالية ، وقرأ حمزة والكسائي : لنثوينهم لنقيمنهم ، من الثّوى ، وهو الإقامة ، وثوى : غير متعد ، فإذا تعدى بزيادة الهمزة ، لم يجاوز مفعولاً واحدًا . والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف : إما إجراؤه مجرى (لننزلنهم) ، أو : بحذف الجار ، وإيصال الفعل ، أو : شبه الظرف المؤقت ، بالمبهم ، أي : لنقيمنهم في غرف **﴿ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾** أجرهم هذا . وهم **﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾** على مفارقة الأوطان وأذى المشركين ، وعلى المحن والمصائب ، ومشاق الطاعات ، وترك المحرمات ، **﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾** ، أي : لم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على اللّه ، فكفاهم شأنهم . وباللّه التوفيق .

الإشارة : كل من لم يَتأتّ له جمعُ قلبهِ في بلده فليهاجر منها إلى غيره ، وليسمع قول سيده : **﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ ﴾** ، فإن شق عليه مفارقة الأوطان ، فليذكر مفارقته للدنيا فى أقرب زمان . وكان الصدّيق رضي اللّه عنه لمّا هاجر إلى المدينة ، وأصابته الحمى ، يتسلى بذكر الموت ، ويُنشد :

كُلّ امرئٍ مصبّحٌ في أهلهِ ... والموتُ أدنى من شِراك نعلهِ .

وقد أكثر الناس في الوعظ بالموت وهجومه ، نظمًا ونثرًا ، فمن ذلك قول الشاعر :

الموتُ كأسٌ ، وكلّ الناسِ شاربُه ... والقبرُ بابٌ ، وكلّ الناس داخلهُ .

وقال آخر :

اعلم بأنّ سِهام الموتِ قاطعةٌ ... بكلّ مُدّرع فيها ومُتّرسِ .

ركوبُك النعشَ يُنسيكَ الركوبُ إلى ما كنتَ تَركبُ من نَعلٍ ومن فَرسٍ .

تَرجو النّجاةَ ، ولم تَسلُك طريقَتَها إنّ السّفينةَ لا تَجرى على يابسٍ .

إلى غير ذلك مما يطول[1] .

قال البغوي رحمه الله : سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين في مكة لم يهاجروا ، ناداهم الله باسم الإيمان .

والدليل على الهجرة من السنة قوله ﷺ : «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[2] .

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري[3] :

(لاتَنقطع) بالتأنيث ويذكر (الهجرةُ) أي : من المعصيةِ إلى التوبةِ ، (حتى تنقطعَ التوبةُ) أي : صحتُها بأن يُغرغر صاحبها . قال ابن الملك : أراد بالهجرة هنا الانتقال من الكفر إلى الإيمان ، ومن دار الشركِ إلى دار الإسلام ، ومن المعصية إلى التوبة ، قلت : الأخير تعميمٌ يشمل الكل . وقال الطيبي : لم يُرد الهجرةَ من مكة إلى المدينة لأنها انقطعت ، ولا الهجرة من الذنوب كما ورد :

---

(١) تفسير البحر المديد ٣٢٢/٥ ، ٣٢٣ .

(٢) سنن أبي داوود (٢٤٧٩) قال الألباني : صحيح .

(٣) هو علي بن (سلطان) محمد ، نور الدين الملا الهروي القاري (١٠١٤ - ٠٠٠هـ ٠٠٠ - ١٦٠٦ م) : فقيه حنفي ، من صدور العلم في عصره . ولد في هراة وسكن مكة وتوفي بها . قيل : كان يكتب في كل عام مصحفًا وعليه طرر من القراآت والتفسير فيبعيه فيكفيه قوته من العام إلى العام . وصنف كتبا كثيرة ، منها (تفسير القرآن) ، و(شرح مشكاة المصابيح) و(شرح الشفاء) و (شرح الحصن الحصين) في الحديث ، و(شرح الشمائل) و (تعليق على بعض آداب المريدين ، لعبد القاهر السهروردي) و(منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر) ، و(الزبدة في شرح البردة)، و(تذكرة الموضوعات) . انظر : خير الدين الزركلي «الأعلام» (١٢/٥) .

(المُهاجر من هَجر الذنوبَ والخطايا) [1] لأنها نفس التوبة . قلت : لا مانِع من ذلك لأن مآل الكمال لا تَنقطع التوبة حتى تَطلع الشمس ، ثم قال : بلِ الهجرةُ من مكان لا يتمكن فيه من الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ وإقامَة حُدودِ الله ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً ﴾ (النساء:٩٧) ، فيه أن كونه في ذلك المكان مع كون خُروجه عنه من الإمكان معصية خاصة ، والحمل على العُموم أولى مع أن قوله لا يلائم الغاية لقوله : (حتى تنقطع التوبة) والاستشهادُ بالآية غير صحيح لأنه نَزل في الهجرة من مكة إلى المدينة . قال ابن حجر : أي لم يَنقَطع وجوبها حتى يَنقطع قبولها (ولا تنقطع التوبةُ) أي صحتها أو قبولها (حتى تطلعَ الشمسُ من مَغربها) [2] .

فلما استقر بالمدينة ، أمر ببقية شرائع الإسلام ، مثل الزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد ، والأذان ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وغير ذلك من شرائع الإسلام ، أخذ على هذا عشر سنين ، وبعدها توفي ، صلوات الله وسلامه عليه ، ودينه باقٍ ، وهذا دينه لا خير إلا دل الأمة عليه ، ولا شر إلا حذرها منه ، والخير الذي دلها عليه : التوحيد ، وجميع ما يحبه الله ويرضاه . والشر الذي حذر منه : الشرك وجميع ما يكره الله ويأباه ، بعثه الله إلى الناس كافة ، وافترض الله طاعته على جميع الثقلين : الجن والإنس . والدليل قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف:١٥٨) [3]

---

(١) سنن ابن ماجه (٣٩٢٤) قال الألباني : صحيح .

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٢٥٣/٥ ، ٢٥٤ .

(٣) تمام الآية : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف:١٥٨) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ الأحمر والأسود ، والعرب والعجم ، والإنس والجن ، خص بهذه الدعوة العامة ، وإنما بعثت الرُسل إلى قومها خاصة ، فادع الناس أيها الرسول إلى اللّه تعالى ، ﴿ **ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ يتَصرف فيهما كيفما شاء ، ﴿ **لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ** ﴾ لأن من ملك العالم كان هو الإله لا غير ، ﴿ **يُحْىِۦ وَيُمِيتُ** ﴾ لعموم قدرته ونفوذ أمره ، ﴿ **فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ** ﴾ أي : ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل قبله من كُتبه ووحيه ، وإنما عدل عن التُكلم إلى الغيبة ، أي : لم يقل : فآمنوا بالله وآمنوا لإجراء هذه الصفات عليه ، الداعية إلى الإيمان به واتباعه ، ولذلك قال : ﴿ **وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ إلى طريق الحق والرشد ، جعل رجاء الاهتداء آثر الأمرين تنبيهًا على أن من صدّقه ، ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو يعد فى خطط الضلالة . قاله البيضاوي .

الإشارة : لا غنى للمُريد عن متابعة الرسول ﷺ ، ولو بلغَ ما بلغ ، لقوله تعالى : ﴿ **وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ ، وغاية الاهتداء غير متناهية ، لأن أدبَ العُبودية مقرونٌ مع عظمةِ الربوبية ، فكما أن الترقي في مشاهدة الربوبية لا نهاية له ، كذلك أدب العبودية لا نهاية له ، ولا تُعرف كيفية الأدب إلا بواسطة تعليمه عليه الصلاة والسلام ، فواسطة النبي ﷺ لا تفارق العبد ، ولو عرف ما عرف ، وبلغ ما بلغ . واللّه تعالى أعلم[1] .

وأكمل الله به الدين .

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/٤٠٥ .

والدليل قول تعالى : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ (المائدة:٣)[١].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ ﴾ أي : ما ماتت حَتف أنفها بلا ذكاة ، ﴿ وَٱلدَّمُ ﴾ المسفوح ، أي : المهروق ، وكانت الجاهلية يصبّونه في الأمعاء ، ويشوونها ، ورُخصَ في الباقي في العروق بعد التذكية ، ﴿ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ ﴾ ، وكذا شحمه وسائر أجزائه المتصلة ، بخلاف الشعر المجزو ، ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ أي : رفع الصوت عليه عند ذبحه بغير اللّه ، كقولهم : باسم اللات والعزى ، وكذا ما تُرِكَ عليه اسم اللّه عَمدًا ، عند مالك ﴿ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ ﴾ بحبلٍ وشبهه حتى ماتت ، ﴿ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ ﴾ أي : المضروبة بعصًا أو بحجرٍ أو شبهه ، من : وقذته وقذًا : ضربته ، ﴿ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ ﴾ أي : الساقطة من جبلٍ أو في بئرٍ وشبهه فماتت ، ﴿ وَٱلنَّطِيحَةُ ﴾ التي نطحتها أخرى فماتت ، فإن لم تمت فإن كان في العصران الأعلى فكذلك ، لا في الأسفل أو الكرش . ﴿ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ﴾ أي : أكل بعضه وأنفذ مقتله ، والسبع : كل حيوان مفترسٍ كالذئب والأسد والنمر والثعلب والنّمس والعُقاب والنّسر ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ ﴾ أي : إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة من ذلك . قاله البيضاوي .

وقال ابن جُزَيّ : قيل : إنه استثناء منقطع ، وذلك إذا أُريد بالمنخنقة وأخواتها : ما مات من ذلك بالخنق وما بعده ، أي : حُرمَت عليكم هذه الأشياء ، لكن

(١) قال الله عزوجل : ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (المائدة:٣).

ما ذَكيتم من غيرها فهو حلال ، وهذا ضعيف ، وقيل : إنه استثناء متصل ، وذلك إن أُريد بالمنخنقة وأخواتها ما أصابته تلك الأسباب وأدركت حياته . والمعنى : إلا ما أدركتم حياته من هذه الأشياء ، فهو حلال ، واختلف أهل هذا القول هل يُشتَرَط أن يكون لم تنفذ مقاتله ، أم لا ؟ فالأئمة كلهم على عدم الاشتراط إلا مالكًا ـ رحمه اللّه ـ ، وأما مَن لم تُشرِف على الموت من هذه الأسباب ، فذكاتها جائزة باتفاق . اهـ . ﴿ وَ ﴾ حُرِمَ عليكم أيضًا : ﴿ **مَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ** ﴾ ، وهى أحجار كانت منصوبة حول البيت ، يذبحون عليها ويعدّون ذلك قُربَة ، وليست بالأصنام لأن الأصنام مُصَوّرة ، والنصُب غير مصورة ، وقيل : (على) بمعنى اللام ، أي : وما ذبح للنصُب ، والمراد : كل ما ذبح لغير اللّه . أدرج فيه بعض العلماء ما ذبح على القبائل في العويط والمشهور أكله . ﴿ **وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَـٰمِ** ﴾ أي : تطلبوا ما قسم لكم في الأزل من المقادير بالأزلام ، جمع زلم ـ بضم الزاى وفتحها ـ وهي الأقداح على قدر السهام ، وكانت في الجاهلية ثلاثة ، قد كُتب على أحدها : افعل ، وعلى الآخر : لا تفعل ، وعلى الثالث : مهمل ، فإذا أراد الإنسان أن يعمل أمرًا جعلها في خريطة ، وأدخل يده وأخرج أحدها ، فإن خرج له الذي فيه «افعل» فعل ما أراد ، وإن خرج الذي فيه «لا تفعل» ، تركه . وإن خرج المهمل أعاد الضرب ، ويقاس عليه كل ما يدخل في علم الغيب ، كالقريعة والحظ والنصبة والكهانة ، وشبهها . ﴿ **ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ** ﴾ ، الإشارة إلى المحرمات المذكورة ، أو إلى الاستقسام بالأزلام ، وإنما كان فسقًا لأنه دخول في علم الغيب الذي انفرد اللّه به ، وفيه تجسس على سر الملك ، وهو حرام ، ولا يعارض ما ثبت جوازه من القرعة ، في أمور مخصوصة كتمييز الأنصبة في القسمة ، (وقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقترع بين نسائه) [1] ، وغير ذلك مما تفيد تطييب القلوب ، دون الاطلاع على علم الغيوب . واللّه تعالى أعلم .

---

(١) صحيح البخاري (٤٩١٣) ، صحيح مسلم (٢٤٤٥) .

الإشارة : حُرمت عليكم يا معشر المُريدين طلب الحُظوظ والشهوات ، وما تموت به قلوبكم من الانهماك في الغَفلات ، وتناول ما أعطِيكم لغير وجه اللّه ، وقبضتموه من غير يد اللّه ، بأن نظرتم حين قبضه إلى الواسطة ، وغفلتم عن المعطي حقيقة ، فمقتضى شريعة الخواص : إخراجه عن الملك ، وحرمان النفسِ من الانتفاعِ به ، كما وقع لبعضِ الأولياء ، ولا تتناولوا من الطعام إلا ما ذكيتموه بأن شهدتم فيه المنعم دون الوقوف مع النعمة ، ونزلتم إليه بالإذن ، دون قصد الشهوة والمُتعة ، وهذا يحتاج إلى تيقظٍ كبير ومراقبةٍ قوية . واللّه يتجاوز عن أمثالنا بحلمه وكرمه . آمين . ولمّا حرّم اللّه تعالى هذه الأشياء حصل للمشركين الإياس من موافقة المسلمين لهم في دينهم ، فلذلك ذكره الحق تعالى بإثر تحريمها ، فقال : ﴿ **ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا** ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **ٱلۡيَوۡمَ** ﴾ الذي أنتم فيه ، وهو يوم الجمعة ، ويوم عرفة في حجة الوداع ، ﴿ **يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ** ﴾ أن يُبطلوه ، أو يَظهروا عليه بحصول المباينة لهم في أمورهم كلها ، ولظهور الإسلام فيه وكثرة المسلمين ، قيل : إنه وقف معه ﷺ في هذه الحجة : مائة ألف وأربعة عشر ألفًا ، ويُحتمل أن يريد باليوم الزمان الحاضر ، وما يتصل به من الأزمنة الآتية ، ﴿ **فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ** ﴾ أن يَظهروا عليكم ، ﴿ **وَٱخۡشَوۡنِ** ﴾ وحدي فأمرهم بيدي . ﴿ **ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ** ﴾ بالنصر والإظهار على الأديانِ كلها ، أو بالتنصيص على قواعد العقائد ، والتوقيف على أحوال الشرائع وقوانين الاجتهاد ، ﴿ **وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي** ﴾ بالهداية والتوفيق ، أو بإكمال الدين ، وبالفتح والتمكين ، بهدم منار الكفر ، ومحو علل الملحدين ، ﴿ **وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا** ﴾ أي : اخترته لكم من بين الأديان ، الذي لا نرتضى غيره ولا نقبل سواه .

الإشارة : إذا حصل المُريد على أسرار التوحيد ، وخاض بِحار التفريد ، وذاق حلاوة أسرار المعاني ، وغاب عن شهود حس الأواني ، وحصل له الرسوخُ والتمكين في ذلك ، أيِسَ منه الشيطان وسائر القواطع ، فلا يخشى أحدًا إلا اللّه ، ولا يركن إلى شيء سواه ، وأمِنَ من الرجوع في الغالب ، إلا لأمر غالب ، ﴿ **وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ** ﴾ (يوسف:٢١) . ولذلك قال بعضهم : (واللّه ما رجع من رجع إلا من الطريق ، وأما من وصل فلا يرجع) . والوصول هو التمكين فيما ذكرنا ، فإذا حصل على كمال المعرفة ، ووقف على عرفة المعارف ، فقد كمل دينه واستقام أمره ، وظهرت أنواره ، وتحققت أسراره ، وما بقي إلا الترقي في الأسرار أبدًا سرمدًا ، والسير في المقامات كسير الشمس في المنازل ، ينتقل فيها من مقام إلى مقام ، بحسب ما يبرز من عنصر القدرة ، فتارة يبرز معه ما يوجب الخوف ، وتارة ما يوجب الرجاء ، وتارة ما يوجب الرضا والتسليم ، وتارة ما يوجب التوكل ، وهكذا يتلون مع كل مقام ويقوم بحقه ، ولا يقف مع مقام ولا مع حال ، لأنه خليفة اللّه في أرضه ، وقد قال تعالى : ﴿ **كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ** ﴾ (الرحمن:٢٩) ، هذا هو التلوين بعد التمكين . واللّه تعالى أعلم .

ثم استثنى من تلك المحرمات حالة المضطر ، فقال : ﴿ **فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ** ﴾ قال البيضاوي : هو متصل بذكر المحرمات ، وما بينهما اعتراض مما يوجب التجنب عنها ، وهو أن تناولها فسوق ، وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضي . اهـ .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **فَمَنِ ٱضۡطُرَّ** ﴾ إلى تناول شيء من هذه المحرمات ﴿ **فِي مَخۡمَصَةٍ** ﴾ أي : مجاعة ، حال كونه ﴿ **غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ** ﴾ أي : مائل للإثم وقاصد له ، بأن يَأكُلها تلذذًا أو متجاوزًا حد الرخصة ، قيل : هو

سد الرمق ، وقال ابن أبي زيد : يأكل منها ويتزود ، فإن استغنى عنها طرحها . اهـ . فإن تناولها للضرورة ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ به حيث أباحها له في تلك الحالة .

الإشارة : قال بعض الحكماء : الدنيا كلها كالميتة ، لا يحل منها للذاكر إلا قدر الضرورة أكلاً وشربًا ، وملبسًا ومركبًا ، حتى يتحقق له الوصول ، فما بقي لأحد حينئذ ما يقول ، وعلامة الوصول : هو الاكتفاء بالله دون الاحتياج لشيء سواه ، إن افتقر اغتنى في فقره ، وإن ذل عز في ذله ، وإن فقد وجد في فقده ، وهكذا في تقلبات الأحوال لا يتضعضع ولا يتزلزل ، ولو سقطت السماء على الأرض . والله تعالى أعلم[1] .

والدليل على موته ﷺ قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ (الزمر: ٣٠-٣١)[2]

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً ﴾ للمشرك والموحِد ، ﴿ رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ﴾ : مختلفون متخاصمون عسيرون ، وهو المشرك ، ﴿ وَرَجُلاً سَلَمًا ﴾ أي : خالصًا ﴿ لِّرَجُلٍ ﴾ فرد ، ليس لغيره عليه سبيل . والمعنى : جعل الله مثلاً للمشرك حسبما يقوده إليه مذهبه ، من ادعاء كل من معبوديه عبوديتَه ، عبدًا يتشارك فيه جماعة ، يتجاذبونَه في مهماته المتباينة في تحيُّره وتعبه ، ومثلا آخر للموحّد ، وهو عبدٌ خالصٌ لرجلٍ واحدٍ فإنه يكون عند سيده أحظى ، وبه أرفق . ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ : إنكار واستبعاد

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/١٤٢-١٤٥ .

(٢) قال الله عزوجل : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ (الزمر: ٢٩-٣١) .

لاستوائهما ، وإيذان بأن ذلك من الجلاء والظهور ، بحيث لا يقدر أحد أن يتفوّه باستوائهما ضرورة أن أحدهما في أعلى عليين ، والآخر في أسفل سافلين . وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون ﴿ سَلَمًا ﴾ بفتحتين ، وهو مصدر ، من : سلم له كذا : إذا خلُص ، نُعت به للمبالغة ، فالقراءتان متفقتان معنى . والمراد من المثَل : تصوير استراحة الموحد وانجماعِه على معبوده ، وتعب المشرك وتشتيت باله ، وخصوصًا مع فرض التعاكس من الشركاء ، فيصير مُتحيرًا ، وفي عنت كبير من الجمع بين أغراضهم ، بل ربما يتعذر ذلك ويستحيل للتضاد في الأغراض والتناقض ، مع فرض التخالف والتنازع بينهم ، واعتبر ذلك بحال الوالدين ، إذا اختلفا على الولد ، فإنه يعسر إرضاؤهُما إلا بمشقة واحتيال ، وكذلك عابد الأوثان فإنه معذَّب الفكر بها ، وبحراسة حاله منها ، ومتى توهم أنه أرضى واحدًا في زعمه تفكر فيما يصنع مع الآخر ، فهو أبدًا في تعب وضلال ، وكذلك هو المصانع للناس ، الممتحن بخدمة الملوك . قاله ابن عطية .

والحاصل : أن إرضاء الواحد أسهل وأيسر من إرضاء الجماعة . ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على عدم استوائهما . قال الطيبي : ثم إذا لزمتهم الحجة قل : الحمد للّه ، شكرًا على ما أولاك من النصرة ، وقهر الأعداء بالحجج الساطعة . وفيه تنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية ، وعلو الرتبة ، بتوفيق اللّه تعالى ، وأنه مِنَّة جليلة ، موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته ، أو : حيث ضرب لهم المثل الأعلى ، وللمشركين المثال السوء ، فهذا صنع جميل ، ولُطف تام ، مستوجب لحمده وشكره ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي : المشركون ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ، مع كمال ظهوره ، فيقعون في ورطة الشرك والضلال ، وهو انتقال من بيان الاستواء على الوجه المذكور ، إلى بيان عدم علمهم ذلك ، مع غاية ظهوره . ثم ذكر المحل الذي يظهر فيه عدم استوائهما عيانًا ، وهو ما بعد الموت ، فقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ ، فتجتمعون عندنا ، فنحكم بينكم . وقيل : كانوا يتربّصون برسول الله ﷺ موته ، أي : إنكم جميعًا بصدد الموت ، ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾ ، فتحتج عليهم بأنك بلّغت الرسالة ، واجتهدت في الدعوة ، فتلزمهم الحجة لأنهم قد لجُّوا في العناد ، فإذا اعتذروا بتقليد آبائهم لم يقبل عذرهم . وقيل : المراد : الاختصام فيما دار بينهم في الدنيا ، والأول أنسب .

الإشارة : لا يستوي القلب المشترك مع القلب المفرد الخالص للّه ، القلب المشترك تفرّقت همومه ، وتشتتت أنواره ، بتشتيت شواغِله وعلائقه ، وتفرّقت محبته ، بتفرُّق أهوائه وحظوظه ، والقلب المفرد اجتمعت محبته ، وتوفرت أنواره وأسراره بقدر تفرُّغه من شواغله وعلائقه . وفي الحِكَم : « كما لا يحب العمل المشترك ، لا يحب القلب المشترك ، العمل المشترك لا يقبله ، والقلب المشرك لا يُقبل عليه » . وقال أيضا : « فرّغ قلبك من الأغيار تملؤه بالمعارف والأسرار » . وقيل للجنيد : كيف السبيل إلى الوصول ؟ فقال : بتوبة تزيل الإصرار ، وخوفٍ يقطع التّسويف ، ورجاءٍ يبعث على مسالك العمل ، وبإهانة النّفس ، بقُربها من الأجل ، وبُعدها من الأمل . قيل له : وبم يتوصل إلى هذا؟ فقال : بقلبٍ مفرد ، فيه توحيد مجرد . اهـ . وفي الحديث عن رسول الله ﷺ (مَن جعل الهموم هَمًّا واحدًا ـ أي : وهو الله ـ كفاه اللهُ همَّ دنياه ، ومَن تشعبت به الهمومُ لم يُبال اللهُ به في أيِّ أوديةِ الدنيا هَلَكَ) [1] وقال ﷺ : (مَن كانت الدنيا همّه فرّق اللّه عليه أمره ، وجعل فقرَه بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُسم له ، ومَن كانت الآخرة نيته ، جمع الله عليه أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي صاغرة) [2] . ومن كان الله همُّه بفنائه فيه جمع اللّه عليه سره ، وأغناه به عما سواه ، وخدمه الوجود بأسره ، « أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شَهِدت المكون كانت الأكوانُ معك » . واللّه تعالى أعلم[3] .

---

(١) سنن ابن ماجه (٢٥٣) قال الألباني : حسن .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٩٤٩) (٩٥٠) .

(٣) تفسير البحر المديد ٢٥٩/٦ ، ٢٦٠ .

والناس إذا ماتوا يبعثون ، والدليل قوله تعالى : ﴿ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾ (طه:٥٥) [١]

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **قَالَ** ﴾ فرعونُ في جواب موسى ، لما أتاه مع أخيه وبلغا الرسالة ، وقالا له ما أمرهما به ربهما ، وإنما حذفه للإيجاز ، وللإشعار بأنهما لما أُمرا بذلك سارعا إلى الامتثال من غير تلعثم ، أو بأن ذلك من الظهور بحيث لا حاجة إلى التصريح به ، فقال لهما فرعون : ﴿ **فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ** ﴾ ؟ لم يضف الرب إلى نفسه لغاية عتوه وطغيانه ، بل أضافه إليهما ، وفي الشعراء : ﴿ **وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ (الشعراء:٢٣) ، والجمع بينهما تَعدد الدعوة ، ففي كل مرة حكى لنا ما قال . وتخصيص النداء بموسى ، مع توجيه الخطاب إليهما لأنه الأصل في الرسالة ، وهارون وزيره . ﴿ **قَالَ** ﴾ موسى عليه السلام مجيبًا له : ﴿ **رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ** ﴾ أي : ربنا هو الذي أعطى كل شيء خلقه ، أي : مخلوقاته مما يحتاجون إليه ويرتفقون به في قوام أبدانهم ومعايشهم ، أو أعطى كل شيء خِلقته وصُورته التي يختص بها ، ولم يجعل خلق الإنسان في خلق البهائم ، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان ، ولكن خلق كل شيء فقدره تقديرًا ، أو أعطى كل شيء فعله وتصرفه ، فاليد للبطش ، والرجل للمشي ، واللسان للنطق ، والعين للنظر ، والأذن للسمع ، أو أعطى كل شيء شكله من جنسه ، للإنسان زوجةً ، وللبعير ناقةً ، وللفرس رَمكةً ،

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ** ﴾ (طه:٤٩-٥٥).

وللحمار أتانًا . ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ إلى طريق الانتفاع والارتقاء ، بما أعطاه وعرفه كيف يتوصل إلى بقائه وكماله ، فألهمه الرضاع والأكل والشرب والجماع ، وطلب الرعي وتوقى المهالك ، وكيف يأتي الذكرُ الأنثى ، ولمّا كان الخلق ـ الذي هو عبارة عن تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام ـ مقدمًا على الهداية ، التي هي عبارة عن إيداع القوى المحركة والمدركة في تلك الأجسام ، عطف بثم المفيدة للتراخي ، ولقد ساق عليه السّلام جوابه على نمط رائق ، وأسلوب لائق حيث بيَّن أنه تعالى عالم قادر بالذات ، خالق لجميع الكائنات ، منعم عليهم بجميع النعم السابغات ، هادٍ لهم إلى طرق المرتَفقات . ﴿ قَالَ ﴾ فرعون : ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أي : ما حالها بعد الموت ، وما فعل الله بها ؟ فقال له موسى : هذا غيب لا يعلمه إلا الله ، وهو معنى قوله : ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ ، أو ما حال القرون الماضية والأمم الخالية ، وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة ؟ فأجابه عليه السلام بأن العلم بأحوالهم مفصلةً مما لا ملامسة له بمنصب الرسالة ، وإنما علمها عند الله عزّ وجلّ . وكأنّ عدو الله ، لما خاف أن يُبهت ، ويُفتضح ، ويظهر للناس حجة موسى عليه السلام ، أراد أن يصرفه عليه السلام إلى مالا يعني ، من ذكر الحكايات التي لا مسيس لها بمنصب الرسالة فلذلك أعرض عنه ، و ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ ، وهذا أحسن من الأول لأنه لو كان سؤاله عن أحوالها بعد الموت لأمكن أن يقول له : من اتبع الهدى منهم فقد سلم وتنعم ، ومن تولى فقد عُذب وتألّم ، حسبما نطق به قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ . وقيل : فما بالها لم تبعث كما يزعم موسى ، أو : ما بالها لم تكن على دينك ، أو : ما بالها كذبت ولم يُصبها عذاب ، وكلها بعيدة . قلت : والذي يظهر أن الطاغية فَهِمَ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ أي : إلى الإيمان ، فاعترض بقوله : فما بال القرون الأولى لم تؤمن حتى هلكت؟ فأجابه موسى عليه السّلام بقوله : ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ ، فهو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى . وقوله : ﴿ فِي كِتَٰبٍ ﴾ أي : اللوح المحفوظ ، فقد أُثبِتت فيه بتفاصيلها ، ويجوز أن يكون ذلك عبارة عن تمكنه وتقريره في

علم الله ـ عزّ وجلّ ـ تمكن من استحفظ الشيء ، وقيده بالكتابة ، كما يلوح به قوله تعالى : ﴿ **لَّا يَضِلُّ رَبِّى** ﴾ أي : لا يخطئ ابتداء ، ﴿ **وَلَا يَنسَى** ﴾ فيتذكر . وفيه تنبيه على أن كتابته في اللوح المحفوظ ليس لحاجته إليه في العلم به ابتداء أو بقاءًا . وإظهار ﴿ **رَبِّى** ﴾ في موضع الإضمار ، للتلذذ بذكره ، وللإشعار بعلّية الحكم فإن الربوبية مما تقتضى عدم الضلال والنسيان . ولقد أجاب عليه السلام عن السؤال بجواب عبقري بديع ، حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها ، مع أنه لم يخرج عما كان بصدده من بيان شُؤونه تعالى ، ووصف الحق تعالى بأوصاف لا يمكن عدو الله أن يتصف بشيء منها ، لا حقيقةً ولا مجازًا ، ولو قال له : هو الخالق الرازق ، وشبه ذلك ، لأمكن أن يغالط ويدعي ذلك لنفسه ، ثم تخلص إليه حيث قال : بطريق الحكاية عن الله عزّ وجلّ ، أو من كلامه عليه السلام : ﴿ **ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا** ﴾ أي : كالمهد تتمهدونها بالسكن والقرار ، أي : جعل كل موضع منها مهدًا لكل واحد منكم . ﴿ **وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا** ﴾ أي : طُرقًا تتوصلون بها من قطر إلى قطر ، لتقضوا منها مآربكم ، وتنتفعوا بمرافقها ومنافعها ، ووسطها بين الجبال والأودية لتعرف أمارات سُبلها . ﴿ **وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً** ﴾ هو المطر ، ﴿ **فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ** ﴾ ، يحتمل أن يكون من كلام الله ، وما قبله من كلام موسى ، أو كله من كلام الله تعالى ، حكاه موسى عليه السلام ، وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة ، والإيذان بأنه لا يتأتى إلا من قادر مطاعٍ عظيم الشأن ، أي : فأخرجنا بذلك الماء ﴿ **أَزْوَٰجًا** ﴾ : أصنافًا ، سميت أزواجًا لازدواجها ، واقتران بعضها ببعض ، كائنة ﴿ **مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ** ﴾ : متفرقة ، جمع شتيت : أي : متفرق ، وهو في الأصل مصدر ، يستوي فيه الواحد والجمع ، يعنى : أنها مختلفة في الشكل واللون والطعم والرائحة والنفع ، وبعضها صالح للناس على اختلاف صلاحها لهم ، وبعضها للبهائم ، ومن تمام نعمته تعالى أن أرزاق عباده ، لمَّا كان تحصيلها بعمل الأنعام ، جعل عَلَفها مما يفضل عن حاجتهم ، ولا يليق بكونه طعامًا لهم ، وهو معنى قوله : ﴿ **كُلُوا**

﴿ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡ ﴾ ، والجملة : حالٌ ، على إرادة القول ، أي : أخرجنا منها أصناف النبات ، قائلين : كلوا وارعوا أنعامكم ، آذنين في ذلك لكم . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ، من شئونه تعالى ، وأفعاله وأنعامه ، ﴿ لَأٓيَٰتٖ ﴾ جليلة واضحة الدلالة على عظيم شأنه تعالى ، في ذاته وصفاته وأفعاله ، وعلى صحة نبوة موسى وهارون ـ عليهما السلام ، ﴿ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ أي : العقول الصافية ، جمع « نُهيَة »، سمى بها العقل ، لنهيه عن اتباع الباطل ، وارتكاب القبيح ، أي : لذوي العقول الناهية عن الأباطيل ، التي من جملتها ما يدعيه الطاغية وما يقبله منه الفئة الباغية . وتخصيص كونها آيات لهم ، مع أنها آية للعالمين لأنهم المنتفعون بها . ﴿ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ ﴾ أي : من الأرض الممهدة لكم ، خلقناكم بخلق أبيكم آدم عليه السلام ، وأنتم في ضمنه ، إذ لم تكن فطرته مقصورة على نفسه عليه السلام ، بل كانت أنموذجًا منطويًا على فطرة سائر أفراد الجنس ، انطواء إجماليًّا ، فكان خلقه عليه السلام منها خلقًا لكل منها ، وقيل : خلقت أبدانكم من النطفة المتولدة من الأغذية المتولدة من الأرض . وقال عطاء : إن المَلَك الموكل بالرحم ينطلق ، فيأخذ من تراب المكان الذي يُدفن فيه العبد ، فيذره على النطفة ، فتخلق من التراب ومن النطفة . اهـ . ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ ﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء ، والكلام على الأشباح دون الأرواح ، فإنها بعد السؤال ، تصعد إلى السماء ، كما يأتي عند قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ (الواقعة:٨٨) . ولم يقل : وإليها نُعيدكم إشارة إلى استقرار العبد فيها ، ﴿ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾ بتأليف أجزائكم المتفتتة ، المختلطة بالتراب ، على الهيئة السابقة ، ورد الأرواح إليها ، وكون هذا الإخراج تارة أخرى : باعتبار أن خلقهم من الأرض إخراج لهم منها ، وإن لم يكن على التارة الثانية ، والتارة في الأصل : اسم للتور ، وهو الجريان ، فالتارة واحدة منه ، ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتحدة ، كما مر في المرة . والله تعالى أعلم .

الإشارة : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ، مما سبق لهم في أزله ، ثم هدى إلى الأسباب الموصلة إليه ، فمنهم من كان حظه في الأزل قوت الأشباح ، هداه

إلى أسبابها ، وهم أهل مقام البعد ، ومنهم من كان حظه قوت القلوب ، فهداه إلى أسبابها من المجاهدة في الطاعات وأنواع القربات ، وهم أنواع : فمنهم من شغلهم بتدريس العلوم وتدقيق الفهوم ، وتحرير المسائل وتمهيد النوازل ، وهداهم إلى أسباب ذلك ، وهم حملة الشريعة ، إن صحت نيتهم وثبت إخلاصهم ، ومنهم من شغلهم بتوالي الطاعات وتعمير الأوقات ، وهداهم إلى أسبابها ، وقواهم على مشاقها ، وهم العباد والزهاد ، ومنهم من شغلهم بإطعام الطعام والرفق بالأنام ، وتعمير الزوايا وقبول الهدايا ، وهداهم إلى أسباب عمارتها والقيام بها ، وهم الصالحون ، ومنهم من كان حظه قوت الأرواح ، وهم المريدون السائرون ، أهل الرياضة والتصفية ، والتخلية والتحلية ، والتهذيب والتدريب ، وهداهم إلى أسبابها ، ووصلهم إلى شيخ كامل يُبينها ويسلّكها ، وهم في ذلك مقامات متفاوتة ، على حسب صدقهم وجدهم ، ومنهم من كان حظه قوت الأسرار ، وهم العارفون الكبار ، السابقون المقربون ، أهل الفناء والبقاء ، أهل الرسوخ والتمكين ، فهداهم إلى ما أمّلوا ، ووصلهم إلى ما طلبوا . نفعنا الله بهم ، وخرطنا في سلكهم . آمين . وقوله : ﴿ **فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ** ﴾ الآية ، فيه زجر للمريد عن الاشتغال بالحكايات الماضية ، لأن في ذلك شُغُلاً عن الله ، إلا ما كان فيه زيادة إلى الله ، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم . وقوله تعالى : ﴿ **ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا** ﴾ أي : جعل أرض النفوس مهاداً للقيام برسم العبودية ، وسلك فيها سبلاً توصل إلى مشاهدة الربوبية ، لمن سلكها بالرياضة والمجاهدة ، وأنزل من سماء الملكوت ماء الواردات الإلهية ، تحيا به الأرواح ، فتخرج أصنافًا من العلوم والحكم شتى ، كُلوا برعي القلوب في نِوار تجلياتها ، وارعوا لقوت أشباحكم من ثمار حسياتها ، إن في ذلك لآيات لأولى النُهى . ﴿ **مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ** ﴾ : من أرض نفوسكم أخرجناكم ، بشهود عظمة الربوبية ، وفيها نُعيدكم للقيام برسم العبودية ، ومنها نُخرجكم لتكونوا لله ، لا لشيء دونه ، أو منها خلقناكم ، أي : أخرجناكم من شهود ظلمتها إلى نور خالقها ، بالفناء

عنها ، وفيها نُعيدكم بالرجوع إلى الأثر في مقام البقاء ، ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ بعقد الحرية في مقام البقاء ، فتكونوا عبيدًا شُكّرًا . وبالله التوفيق[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ (نوح:١٧،١٨) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

﴿ **وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا** ﴾ أي : أنشأكم منها ، فاستعير الإنبات للإنشاء ؛ لكونه أدل على الحدوث والتكوُّن من الأرض . و ﴿ **نَبَاتًا** ﴾ إمّا مصدر مؤكد لأنبتكم ، بحذف الزوائد ، ويسمى اسم مصدر ، وحكمة إجراء اللفظ فيه على غير فعله : التنبيه على تحتُّم القدرة وسرعة نفوذ حكمها ، حتى كأنّ إنبات الله تعالى نفس النبات ، فقرَن أحدهما بالآخر ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ **أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ** ﴾ (الأعراف ١٦٠) أي : فضرب فانبجست ، فجعل الانبجاس مسببًا عن الإيحاء ، للدلالة على سرعة نفوذ حكم القدرة ، أو : لفعل مترتب عليه ، أي : أَنبتكم فنبتم نباتًا ، ﴿ **ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا** ﴾ بعد الموت ﴿ **وَيُخْرِجُكُمْ** ﴾ يوم القيامة بالبعث والحشر ﴿ **إِخْرَاجًا** ﴾ محققًا لا ريب فيه ، ولذا أكّده بالمصدر[2] .

وبعد البعث محاسبون ومجزيون بأعمالهم ، والدليل قول تعالى ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾(النجم: ٣١)[3] .

---

(١) تفسير البحر المديد ٤/٢٨٠-٢٨٣ .

(٢) تفسير البحر المديد ٨/١٤٧ .

(٣) قال الله عزوجل : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ (النجم: ٣١،٣٢)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ** ﴾ خلقًا وملكًا ، لا لغيره ، لا استقلالاً ولا اشتراكًا ، ﴿ **لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ** ﴾ بعقاب ما عملوا من السوء ، أو : بسبب ما عملوا ، ﴿ **وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى** ﴾ بالمثوبة الحسنى ، وهي الجنة ، والمعنى : أن الله تعالى إنما خلق هذا العالم العلوي والسفلي ، وتصرّف فيه بقدرته بين جلاله وجماله ، ليجزى المحسن من المكلّفين ، والمسيئ منهم إذ من شأن الملك أن ينصر أولياءه ويُكرمهم ، ويقهر أعداءه ويُهينهم . وقال الطيبي : «ليجزى» راجع لقوله : ﴿ **هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ** ﴾ الآية ، والمعنى : إنّ ربك هو أعلم بمَن ضلّ وبمَن اهتدى ليجزى كل واحدٍ بما يستحقه ، يعنى : أنه عالم ، كامل العلم ، قادر ، تام القدرة ، يعلم أحوال المُكلّفين فيُجازيهم ، لا يمنعه أحدٌ مما يريده لأنَّ كل شيء من السموات والأرض ملكه ، وتحت قهره وسلطانه ، فقوله : ﴿ **وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ** ﴾:جملة معترضة،توكيد للاقتدار وعدم المعارض.اهـ.

﴿ **ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ** ﴾ : بدل من الموصول الثاني ، أو : رفع على المدح ، أي : هم الذين يجتنبون . والتعبير بالمضارع للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره . وكبائر الإثم : ما يكبر عقابه من الذنوب ، وهو ما رتّب عليه الوعيد بخصوصه . قال ابن عطية : وتحرير القول في الكبائر : أنها كل معصيةٍ يُوجد فيها حَد في الدنيا ، أو توعّد عليها بنارٍ في الآخرة ، أو بلَعنةٍ ونحوها . وقرأ الأخوان : ﴿ **كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ** ﴾ على إرادة الجنس ، أو الشرك ، ﴿ **وَ** ﴾ يجتنبون ﴿ **ٱلْفَوَٰحِشَ** ﴾ وهو ما فَحُشَ من الكبائر ، كأنه قيل : يجتنبون الكبائر وما فحش منها خصوصًا ، فيحتمل أن يريد بالكبائر : ما فيه حق الله وحده ، والفواحش منها : ما فيه حق الله وحق عباده ، ﴿ **إِلَّا ٱللَّمَمَ** ﴾ أي : إلا ما قَلَّ وصَغُرَ ، فإنه مغفور لمن يجتنب الكبائر ، وقيل : هي النظرة والغمزة

والقُبلة ، وقيل : الخطرة من الذنب ، وقيل : كل ذنب لم يجعل الله فيه حَدًّا ولا عذابًا ، والاستثناء منقطع لأنه ليس من الكبائر ولا من الفواحش . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر ، أو : حيث يغفر ما يشاء من الذنوب من غير توبة ، وهذا أحسن ، ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم ﴾ في ضمن إنشاء أبيكم آدم عليه السلام ﴿ مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ إنشاءً إجماليًّا ، حسبما مرّ تحقيقه مرارًا ، ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ أي : يعلم وقت كونكم أجنة ﴿ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ على أطوار مختلفة ، لا يخفى عليه حالٌ من أحوالكم ، ولا عمل من أعمالكم . ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ فلا تنسبوها إلى زكاء الأعمال ، وزيادة الخير والطاعات ، أو : إلى الزكاة قبل أن يُخرجكم من صُلب آدم ، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم . وقيل : كان ناس يعملون أعمالاً حسنة ، ثم يقولون : صلاتنا وصيامنا وحجّنا ، فنزلت . وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرّياء ، لا على سبيل الاعتراف بالنعمة ، والتحدث بها ، فإنه جائز لأن المسرة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكرها ، والأحسن في إيراد الاعتراف والشكر أن يُقدم ذكر نقصه ، فيقول مثلاً : كنا جهالاً فعلَّمنا الله ، وكنا ضُلالاً فهدانا الله ، وكنا غافلين فأيقظنا الله ، وهكذا فنحن اليوم كذا وكذا . قال ابن عطية : ويُحتمل أن يكون نهيًا عن أن يُزكِّي بعضُ النّاس بعضًا ، وإذا كان هذا ، فإنما ينهى عن تزكية السَّمع ، أو القطع بالتزكية ، ومن ذلك الحديث في « عثمان بن مظعون » عند موته ، وأما تزكية القدوة أو الإمام ، أو أحدًا ، ليؤتم به أو لِيَتَهَمّمَ الناس بالخير ، فجائز ، وقد زكَّى رسولُ الله ﷺ أبا بكر وغيره ، وكذلك تزكية الشهود في الحقوق جائزة للضرورة إليها ، وأصل التزكية : التقوى ، واللّه تعالى أعلم بتقوى النّاس منكم . اهـ . وقال في القوت : هذه الذنوب تدخل على النّفوس من معاني صفاتها ، وغرائز جبلاتها ، وأول إنشائها من نبات الأرض ، وتركيب الأطوار في الأرحام ، خَلق من بعد خلق ، ومن اختلاط الأمشاج بعضها مع بعض ، ولذلك عقبه بقوله : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ

﴿**أَنشَأَكُم**﴾ الآية . اهـ . ثم قال تعالى : ﴿ **هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ** ﴾ ، فاكتفوا بعلمه عن علم الناس ، وبجزائه عن ثناء الناس . وبالله التوفيق .

الإشارة : ولله ما في سموات الأرواح من أنوار الشهود ، وما في أرض النفوس من آداب العبودية ، رتَّب ذلك ليجزى الذين أساؤوا بوقوفهم مع أرض النّفوس في العالم المحسوس ، ويجزى الذين آمنوا بترقيهم إلى مقام الإحسان ، بالحسنى ، وهي المعرفة ، حيث ترقّوا من أرض الأشباح إلى عالم سماء الأرواح ، وهم الذين يجتنبون كبائر الإثم ، وهو شهود وجودهم مع وجود الحق محبوبهم ، ووقوفهم مع عالم الحس ، والفواحش ، وهو اعتراضهم على الله فيما يبرز من عُنصر قدرته ، وتصغيرهم شيئًا مما عظَّم اللّه ، إلا اللمم خواطر تخطر ولا تثبت . قال القشيري : كبائر الإثم ثلاث : محبة النّفس الأمّارة ، ومحبة الهوى النّافخ في نيران النفس ، ومحبة الدنيا ، التي هي رأس كل خطيئة ، ولكل واحدةٍ من هذه الثلاث فاحشة لازمة لها ، أما فاحشة محبة النفس : فموافقة الطبيعة ومخالفة الشريعة ، وأما فاحشة محبة الهوى : فحُب الدنيا وشهواتها ، وأما فاحشة محبة الدنيا فالإعراض عن الله ، والإقبال على ما سواه . وقوله ﴿ **إِلَّا ٱللَّمَمَ** ﴾ أي : الميل اليسير إلى الهوى والنّفس والدنيا ، بحسب ضرورته البشرية مِن استراحة البدن ، ونيل قليل من حظوظ الدنيا ، بحسب الحقوق ، لا بحسب الحظوظ ، فإنَّ مباشر الحقوق مغفور ، ومباشر الحظوظ مغرور . اهـ . ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ** ﴾ يستر العيوب ، ويوصل إلى حضرة الغيوب ، هو أعلم بكم إذ أنشأكم من أرض البشرية ، ورقّاكم إلى عالم الرّوحانية ، وإذ أنتم أجنة في أول بدايتكم في بطون أمهاتكم ، في بطون الهوى والغفلة ، ودائرة الكون ، فأخرجكم منها بمحض فضله ، فلا تُزكُّوا أنفسكم ، فتنظروا إليها بعين الرضا ، أو تنسبوا إليها شيئًا من الكمالات قبل صفائها . قال القشيري : تزكية المرء نفسه علامة كونه محجوبًا لأنّ المجذوب عن بقائه ، المستغرق في شهود ربِّه ، لا يُزكِّي نفسه . اهـ . قلت : هذا مادام في السير ،

وأما إن حصل له الوصول فلا نفس له ، وإنما يُزكِّي ربه إذا زكّاها ، هو أعلم بمَن اتقى ما سواه[1] .

ومن كذب بالبعث كفر ، والدليل قوله تعالى : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ (التغابن:٧) [2] .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جلّ جلاله : لكفار مكة **﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ ﴾**؟ كقوم نوح ، ومَن بعدهم من الأمم المُصرّة على الكفر ، **﴿ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ ﴾** أي : شؤم كفرهم في الدنيا من الهلاك والاستئصال . والوبالُ : الثقل والشدة ، وأمرهم : كفرهم ، عبّر عنه بالأمر إيذانًا بأنه أمر هائلٌ ، وجناية عظيمة ، و (ذاقوا) عطف على (كفروا) أي : ألم يأتكم خبر الذين كفروا فذاقوا من غير مهلة ما يسْتتبعهُ كفرهم في الدنيا ؟ (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) لا يُقادَر قدره . **﴿ ذَٰلِكَ ﴾** أي : ما ذكر من العذاب الذي ذاقوه في الدنيا ، وما سيذوقونه في الآخرة **﴿ بِأَنَّهُۥ ﴾** ؛ بسبب أن الشأن **﴿ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾** ؛ بالمعجزات الظاهرة ، **﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا ﴾** أي : قال كلُّ قوم من المذكورين في حق رسولهم الذي أتاهم بالمعجزات منكرين كون الرسول من البشر ، متعجبين من ذلك **﴿ أَبَشَرٞ﴾** مِن جنس البشر **﴿ يَهۡدُونَنَا ﴾** ، أنكروا رسالة البشر ، ولم ينكروا عبادةَ الحجر ، **﴿ فَكَفَرُواْ ﴾** بالرسل **﴿ وَتَوَلَّواْ ﴾** عن التدبُّر فيما أتوا

---

(١) تفسير البحر المديد ٢٤٢/٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ .

(٢) قال الله عزوجل : **﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ۝٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾** (التغابن:٥-٧) .

به من البينات ، أو : عن الإيمان بهم ، ﴿ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ﴾ أي : أظهر استغناءه عن إيمانهم وطاعتهم ، حيث أهلكهم وقطع دابرهم ، ولولا استغناؤه تعالى عنها ما فعل ذلك ، ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ عن العالمين ، فضلاً عن إيمانهم وطاعتهم ، ﴿ حَمِيدٌ ﴾ يحمده كلُّ مخلوقٍ بلسان الحال والمقال ، أو : مستحق للحمد بذاته ، وإن لم يحمده حامد ، ثم ذكر كفرهم بالبعث ، فقال : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ﴾ ، الزعم : ادّعاء العلم ، فيتعدّى إلى مفعولين ، سدّ مسدهما ﴿ أَن ﴾ المخففة ، أي : أدّعى أهل مكة أنّ الشأن لن يُبعثوا بعد موتهم ، ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ ، ردًّا لزعمهم وإبطالاً لِما نفوه مؤكَّدًا بالقسم ، فإن قلْتَ : ما معنى اليمين على شيء أنكروه ؟ قلتُ : هو جائز ؛ لأنّ التهديد به أعظم موقعًا في القلب ، فكأنه قيل : ما تنكرونه والله إنه لواقع لا محالة ، ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أي : لتُحاسبن وتُجزون بأعمالكم ، ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ أي : ما ذكر من البعث والحساب ﴿ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ هيّن ، لتحقق القدرة التامة ، وقبول المادة للإعادة .

الإشارة : ألم يأتكم يا معشر المنكِرين على أولياء زمانكم ، خبر مَن أنكر قبلكم ، ذاقوا وبالَ أمرهم حيث ماتوا محجوبين عن شهوده ، مطرودين عن ساحة قربه ، ذاقوا وبال أمرهم في الدنيا ؛ الجزع والهلع وتسليط الخواطر والشكوك ، ولهم في الآخرة عذاب البُعد والحِجاب ، وسبب ذلك : إنكار الخصوصية عند بشر مثلهم ، فكفروا به ، وتولّوا عنه ، والله غني عنهم ، وعن توجههم ، وعن جميع الخلق ، زعم الذين كفروا ؛ ستروا الحق بالخلق ، أي : احتجبوا بالخلق عن شهود الحق ، أن لن يُبعثوا على معتقدهم ، قل : بلى وربي لتُبعثن ، كما عشتم محجوبين عن رؤية الحق إلاّ نادرًا ؛ لأنّ العبد يموت على ما عاش ، ويُبعث على ما مات ، من معرفةٍ أو نكران ، ثم لتُحاسبن على أعمالكم ، لا يغادَر منها صغيرة ولا كبيرة ، بخلاف العارفين ، لا يُرفع لهم ميزان ، ولا يتوجه لهم حساب ، حيث فَنوا عن أنفسهم ، وبقوا بالله ، وهم من السبعين ألفًا . وبالله التوفيق[1] .

---

(١) تفسير البحر المديد ٨/٥٨ .

وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين ، والدليل قوله تعالى : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (النساء:١٦٥)[1]

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ** ﴾ يا محمد ﴿ **كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ** ﴾ ولم يكن ينزل عليهم الكتاب جملةً واحدةً ، كما سألك أهل الكتاب تعنيتًا ، بل كان ينزل عليهم الوحي شيئًا فشيئًا ، فأمرك كأمرهم ، وقدّم نوحًا عليه السلام لأنه أبو البشر بعد آدم ، وأول نبي من أنبياء الشريعة ، وأول نذيرٍ على الشرك ، وأول رسولٍ عذبت أمته بدعوته ، وأطول الأنبياء عمرًا ، وجُعلت معجزته في نفسه ، فإنه عمَّر ألف سنةٍ ، ولم تنقص له سنٌّ ، ولم تنقص له قوةٌ ، ولم تشب له شعرة ، ولم يبالغ أحد في تأخير الدعوة ما بالغ هو عليه السلام ، ولم يصبر أحدٌ على أذى قومه ما صبر هو ، كان يُشتم ويُضرب حتى يغمى عليه . ثم قال تعالى : ﴿ **وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ** ﴾ أي : الأحفاد ، وهم أنبياء بني إسرائيل ، ﴿ **وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ** ﴾ ، وإنما خصهم بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تعظيمًا لهم ، فإن إبراهيم أولُ أولى العزم منهم ، وآخرهم عيسى عليه السّلام ، والباقون أشراف الأنبياء ومشاهيرهم ، ﴿ **وَءَاتَيْنَا**

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ (النساء:١٦٣-١٦٥).

﴿ دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ أي: كتاب الزبور، أو زُبوراً أي: صحفًا متعددة، وأرسلنا ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ أي: من قبل هذه السورة، أو قبل هذا اليوم، ﴿ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾، وفي الحديث[1] :(عددهم ثلاثمائة وأربعة عشر)، ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ حَقيقيًّا، خُصَّ به من بين الأنبياء، وزاد نبينا محمد ﷺ بالرؤية مع الكلام. قال الورتجبي: بادر موسى عليه السلام من بين الأنبياء لسؤال الرؤية، فأوقفه الحق في مقام سماع كلامه، ومنعه من مشاهدة رؤيته صرفًا، وتحمل نبينا محمد ﷺ أثقال السر بمطايا أسراره، ولم يسأل مشاهدة الحق جهرًا بالانبساط، فأوصله الله إلى مقام مشاهدته ورؤيته بالظاهر والباطن بعين الرأس وبعين القلب، ثم أسمعه كلامه بلا واسطة ولا حجاب. قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ (النجم:١٠،١١). اهـ. وقال ابن عطية: كلامه تعالى لموسى دون تكييف ولا تحديد، وكما أن الله تعالى موجود لا كالموجودات معلوم لا كالمعلومات، فكذلك كلامه لا كالكلام. اهـ. ثم ذكر حكمة إرسال الرسل فقال: أرسلنا ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ﴾ بعث ﴿ ٱلرُّسُلِ ﴾ فيقولون: لولا أرسلت إلينا رسولاً ينبهنا ويعلمنا ما جهلنا من أمر توحيدك والقيام بعبوديتك، فقطع عذر العباد ببعث الرسل، وقامت الحجة عليهم، وفي الحديث عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (ما أحدٌ أغيرَ من الله، ولذلك حرَّم الفواحِشَ ما ظَهر منها وما بطن، وما أحدٌ أحبَّ إليهِ المدحُ من الله، ولذلك مَدَح نفسه، وما أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من الله تعالى، ولذلك أرسلَ الرُّسلَ وأنزَل الكُتب)[2]. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ لا يغلب، فلا يجب عليه شيء، ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما دبر من النبوة، وخص كل نبي بنوع من الوحي والإعجاز على ما يليق به في زمانه. والله تعالى أعلم.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٢٦٦٨).

(٢) صحيح البخاري (٦٨٤٦) (٧٤١٦)، صحيح مسلم (١٤٩٩).

الإشارة : علماءُ هذه الأمة كأنبياء بني إسرائيل ، العارفون منهم كالرسل منهم ، قال ابن الفارض رضي الله عنه :

فعالِمُنا منهم نبي ، ومن دَعَا إلى الحقِّ منّا قام بالرسُلِيّة .

وعارِفنا في وقتِنا الأحمَديُّ من أولى العزمِ منهم آخذٌ بالعَزيمة .

فإنهم يشاركونهم في وحي الإلهام ، ويحصل لهم المكالمة مع المشاهدة ، فيسمعون من الحق كما ينطقون به . كما قال الششتري :

أنا بالله أنطقُ ومن الله أسمَع .

فتارة يسمعون كلامه بالوسائط ، وتارة من غير الوسائط ، يعرف هذا أهل الفن من أهل الذوق ، وشأن من لم يَبلُغ مقامهم : التسليم .

إن لم تَر الهلال فسَلِّم لأُناسٍ رأوه بالأبصارِ .

وفي الورتجبي : وإن الله تعالى إذا أراد أن يُسمع كلامه أحدًا من الأنبياء والأولياء يعطيه سمعًا من أسماعه ، فيسمع به كلامه ، كما حكى ـ عليه الصلاة والسلام ـ عنه ـ تعالى ـ ، قال : (فإذا أحببته كنت سمعه . .) [1] ، الحديث . أسمعه كلامه ، وليس هناك الحروف والأصوات ، بل أسمعه بحرف القدرة وصوت الأزلية ، الذي هو منزه عن همهمة الأنفاس وخطرات الوسواس ، وليس

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٠٢) وفيه : حدثني محمد بن عثمان بن كرامة : حدثنا خالد ابن مخلد : حدثنا سليمان بن بلال : حدثني شريك بن عبد الله بن أبي نمر ، عن عطاء ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله قال : من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته : كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينَّه ، ولئن استعاذني لأعيذنَّه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته».

في ولاية الأزل من رسوم أهل الآجال شيء ، حتى هناك السامع والمسمع واحد من حيث المحبة ، لا من حيث الجمع والتفرقة . انتهى كلامه . واعلم أن أهل الجمع لا يشهدون إلا متكلمًا واحدًا ، قد انتفى من نظرهم التعدد والاثنينية ، غير أنهم يفرقون بين كلام القدرة وكلام الحكمة ، كلام القدرة يبرز من غير اختيار ، بل يكون المتكلم به مأخوذًا عنه ، غائبًا عن اختياره ، وكلام الحكمة معه ضرب من الاختيار ، وقد يسمعون كلام القدرة من الهواتف الغيبية ، ومن الجمادات على وجه الكرامة ، وكله بحرفٍ وصوتٍ ، نعم ما يقع من الهواتف القلبية والتجليات الباطنية ، قد يكون بلا حرفٍ ولا صوتٍ ، وقد تحصل لهم المكالمة بالإشارة بلا صوتٍ ولا حرفٍ ، فقوله : (بل أسمعه بحرف القدرة وصوت الأزلية . . .) إلخ . إن أراد به التجليات الباطنية فمسلَّم ، لكن ظاهره أن كلام الحق الذي يُسمعه لأنبيائه وأوليائه محصور في ذلك ، وأنه لا يكون إلا بلا حرف ولا صوت ، وليس كذلك . وقوله : (و ليس في ولاية الأزل من رسوم أهل الآجال شيء) إلخ ، معناه : لم يبق في ولاية أهل مشاهدة الأزل من رسوم الحوادث شيء ، بل اتحد عندهم السامع والمسمع . قلت : لكنهم يثبتونها حكمةً ، ويمحونها قدرةً ومشاهدة ، ولا يلزم من محوها عدم صدور الكلام منها بالحرف والصوت فإن البشرية لا تطيق سماع كلام الحق بلا واسطة الحكمة ، كما هو معلوم . والله تعالى أعلم(1) .

وأولهم نوح عليه السلام ، وآخرهم محمد ﷺ وهو خاتم النبيين ، والدليل على أن أولهم نوح عليه السلام قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ﴾ (النساء:١٦٣).

تقدم تفسير الآية الكريمة .

---

(١) تفسير البحر المديد ١٢٩/٢-١٣١ .

وكل أمة بعث الله إليها رسولاً من نوح إلى محمد يأمرهم بعبادة الله وحده ، وينهاهم عن عبادة الطاغوت ، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل:٣٦)[١] .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **هَلۡ يَنظُرُونَ** ﴾ أي : ما ينظر هؤلاء الكفرة ، الذين قالوا فيما أنزل الله من الوحي : هو أساطير الأولين ، ﴿ **إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ** ﴾ لقبض أرواحهم ، ﴿ **أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ** ﴾ : قيام الساعة ، أو العذاب المستأصِل لهم في الدنيا ، ﴿ **كَذَٰلِكَ** ﴾ أي : مثل ذلك التكذيب والشرك ، ﴿ **فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ** ﴾ ، فأصابهم ما أصابهم ، ﴿ **وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ** ﴾ بإهلاكهم ، ﴿ **وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ** ﴾ لكفرهم ومعاصيهم ، المؤدية إلى عذابهم . ﴿ **فَأَصَابَهُمۡ** ﴾ جزاء ﴿ **سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ** ﴾ من الكفر والمعاصي ، وهو العذاب ، ﴿ **وَحَاقَ** ﴾ أي : وأحاط ﴿ **بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ** ﴾ أي : نزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزءون به ، والحيق لا يكون إلا في الشر . ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ** ﴾ كالبحائر والسوائب والحوامي ، قالوا ذلك على وجه المجادلة والمخاصمة ، والاحتجاج على صحة فعلهم ، أي : إن

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ** ﴾ (النحل:٣٣-٣٧) .

فِعلَنا هو بمشيئة الله ، فهو صواب ، ولو شاء الله ألا نفعله ما فعلناه . والجواب : أن الاحتجاج بالقدر لا يصح فى دار التكليف ، وقد بعث الله الرسل بالنهي عن الشرك ، وتحريم ما أحل الله ، ونحن مكلفون باتباع الشريعة ، لا بالنظر إلى فعل الحقيقة من غير شريعة ، فإنه زندقة ، فالشريعة رداء الحقيقة ، فمن خرق رداء الشريعة ، وتمسك بالحقيقة وحدها ، فقد استحق العقاب ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ** ﴾ فأشركوا بالله ، وحرموا ما أحل الله ، وردوا رسله . ﴿ **فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ** ﴾ أي : الإبلاغ الموضح للحق ، فمن تمسك بما جاءوا به فهو على صواب ، ومن أعرض عنه فهو على ضلال ، ولا ينفعه تمسكه بالحقيقة من غير اتباع الشريعة ، والحقيقة هي أنه لا يقع فى ملكه إلا ما يريد ، طاعة كان أو معصية ، كفرًا أو إيمانًا ، لكن الأمر غير تابع للإرادة ، ونحن مكلفون باتباع الأمر فقط ، ثم بين أن البعثة أمر جرت به السنة الإلهية فى الأمم الماضية ، جعلها سببًا لهدى من أراد اهتداءه ، وزيادة الضلال لمن أراد إضلاله ، كالغذاء الصالح ، فإنه ينفع المزاج السوي ـ أي : المعتدل ـ ويقويه ، ويضر المزاج المنحرف ويعييه ، فقال : ﴿ **وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولاً** ﴾ قائلا : ﴿ **أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ** ﴾ أي : يأمر بعبادة الله وحده واجتناب ما سواه ، ﴿ **فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ** ﴾ وفقهم للإيمان وأرشدهم إليه ، ﴿ **وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ** ﴾ فلم يوفقهم ، ولم يُرد إرشادهم ، فليس كل من تمسك بشيء وأمهل فيه يدل أنه على صواب ، كما ظن المشركون ، بل النظر إلى ما جاءت به الرسل من الشرائع ، وكلها متفقة على وجوب التوحيد وإبطال الشرك . ثم أمرهم بالنظر والاعتبار بحال من أشرك وكذب الرسل ، فقال : ﴿ **فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ** ﴾ يا معشر قريش ، ﴿ **فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ** ﴾ ؛ كعادٍ وثمودٍ وغيرهم ، لعلكم تعتبرون . ثم نهى نبيه عن الحرص عليهم فقال : ﴿ **إِن تَحۡرِصۡ** ﴾ يا محمد ﴿ **عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ** ﴾ أي : من يريد إضلاله وقضى بشقائه ، وهو الذي حقت عليه الضلالة ، وقرأ غير الكوفيين بالبناء

للمفعول ، وهو أبلغ ، أي : فإن الله لا يهدى من يضله ، أي : لا يهدى غير الله من يريد الله إضلاله . ﴿ **وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ** ﴾ ليس لهم من ينصرهم يدفع العذاب عنهم .

الإشارة : هل ينظر من عكف على دنياه ، وأكب على متابعة حظوظه وهواه ، إلا أن تنزل الملائكة لقبض روحه ، فيندم حيث لا ينفع الندم ، وقد زلت به القدم ، فيتمنى ساعةً تزاد في عمره فلا يجدها ، أو يأتي أمر ربك أمر يحول بينه وبين العمل الصالح كمرض مزمن ، أو فتنةٍ مضلة . كذلك فعل من قبله ، اغتر بدنياه حتى اختطف لأخراه ، وما ظلمهم اللّه ، بل بعث الرسل وأخلفهم بأهل الوعظ والتذكير ، فحادوا عنهم ، فأصابهم جزاء سيئات ما عملوا من الغفلة والبطالة ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ، من وبال التقصير ، وفوات مقام أهل الجد والتشمير ، وقال الذين أشركوا في محبة الله سواه ، من الحظوظ وزهرة الدنيا : لو شاء الله ما فعلنا ذلك ، محتجينَ بالقدر ، مع الإقامة على البطالة والخذلان ، كذلك فعل مَن قَبلهُم من أهل الغفلة ، فهل على الرسل وخلفائهم إلا البلاغ المبين؟ فقد حذّروا من متابعة الدنيا ، وبلّغوا أن الله غيور لا يُحب من أشرك معه غيره في محبته ، فقد بعث في كل أمة وعصر نذيرًا ، يأمر بعبادة الله وحده ، واجتناب كل ما سواه ، فمنهم من هداه الله ، فاختاره لحضرته ، فلم يُحب سواه ، ومنهم من حقت عليه الضلالة عن مقام الخصوص ، فبقي في مقام البعد مُكَذّبًا بطريق الخصوص ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، كان عاقبتهم الحرمان ولزوم الخذلان ، ويقال للعارف المذكّر لمثل هؤلاء : ﴿ **إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ** ﴾.. الآية . وبالله التوفيق[1] .

قال ابن القيم رحمه الله : معنى الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود ، أو متبوع ، أو مطاع . والطواغيت كثيرون ، رؤوسهم خمسة :

---

(١) تفسير البحر المديد ٤/٢١-٢٣ .

إبليس لعنه الله ، ومن عبد وهو راض ، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه ، ومن ادعى شيئًا من علم الغيب ، ومن حكم بغير ما أنزل الله . والدليل قوله تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ (البقرة:٢٥٦) [١] .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

قلت : (الرشد) : مصدر رَشُد ، بالكسر والضم ، رشدًا ورشادًا ، و﴿ ٱلْغَيِّ ﴾ : مصدر غَوَى ، إذا ضلَّ في مُعتقَدِه ، و﴿ بِٱلطَّٰغُوتِ ﴾ : فعلوت من الطغيان ، وأصله : طغيوت ، فقلبت لام الكلمة لعينها فصار طيغوت ، ثم قلبت الياء ألفا . وهو كل ما عُبد من دون الله راضيًا بذلك ، و(العروة) : ما تستمسك به اليد عند خوف الزلل كالحبل ونحوه ، ووثوقها : متانتها ، وانفصامها أن تنفك عن موضعها ، وأصل الفصم في اللغة : أن ينفك الخلخال ونحوه ولا يَبِين ، فإذا بان فهو القَصم ـ بالقاف ـ وهو هنا استعارة للدّين الصحيح .

يقول الحق جل جلاله : في شأن رجلٍ من الأنصار ، تَنَصَّر ولدَاه قبل البَعثَة فلما جاء الإسلامُ قَدِما إلى المدينة فدعاهما أبوهما إلى الإسلام فامتنعا ، فَلزمَهُما أبوهُما وقال: والله لا أدَعكما حتى تُسلما ،فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ ، فهو خبر بمعنى النهي ، أي : لا تُكرهوا أحدًا على الدخول في الدين ، وهو خاص بأهل الكتاب . قال البيضاوي : إذ الإكراه في الحقيقة هو : إلزام الغير فعلاً لا يرى فيه خيرًا ، ولكن ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ أي تميّز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة ، ودلت الدلائل على أن الإيمان رشد يوصل إلى السعادة الأبدية ، والكفر غيّ يوصل إلى الشقاوة السرمدية . والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسُه إلى الإيمان طلبًا

---

(١) تمام الآية : ﴿ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٥٦) .

للفوز بالسعادة والنجاة ، ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء . اهـ . ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ ﴾ أي : يبعد عنها ويجحد ربوبيتها ﴿ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ أي : يصدق بوحدانيته ، ويقر برسله ، ﴿ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ أي : فقد تمسك بالدين المتين ، لا انقطاع له أبدًا ، ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ بالأقوال ، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالنيات ، فإنَّ الدين مشتمل على قول باللسان وعقد بالجَنان ، فحسن التعبير بصفة السمع والعلم . والله تعالى أعلم .

الإشارة : قال في الحكم : « لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك ، إنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك » . وقال أحمد بن حضرويه : الطريق واضح ، والحق لائح ، والداعي قد أَسمَع ، ما التحير بعد هذا إلا من العمَى . اهـ . فطريق السير واضحة لمن سبقت له العناية ، باقية إلى يوم القيامة ، وكل ما سوى الله طاغوت ، فمن أعرض عن السَّوَى ، وعلق قلبه بمحبة المولى ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، التي لا انفصام لها على طول المدى . وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق[١] .

وهذا هو معنى (لا إله إلا الله). وفي الحديث : (رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله)[٢] .

الشرح :

قال الملا علي القاري :

(رأس الأمر) أي أمر الدين (الإسلام) يعني الشَهادتين ، وهو من باب التَشبيه المقلوب إذ المقصود تشبيه الإِسلام برأسِ الأَمر ليشعر بأنه من سائر الأعَمال بمنزِلة الرأس من الجَسد في احتياجه إليه وعدم بقائه دونه (وعموده الصلاة) يعني الإِسلام هو أصلُ الدين إلا أنه ليس له قوّة وكمال كالبيتِ الذي ليس له

(١) تفسير البحر المديد ١/٢٥٥ ، ٢٥٦ .
(٢) سنن الترمذي (٢٦١٦) وقال حديث حسن صحيح . قال الألباني : صحيح .

عمود ، فإذا صلى وداوم قوي دينه ولم يكن له رِفعة ، فإذا جاهد حَصَل لدينه رِفعة ، وهو معنى قوله (وذروة سنامه الجِهاد) وفيه إشعار إلى صعوبة الجهاد وعلو أمره وتفوقه على سائر الأعمال ، والجهاد من الجهد بالفتح وهو المشقة ، أو بالضم وهو الطاقة لأنه يبذل الطاقة في قتال العدوّ عند فعل العدوّ مثل ذلك ، أو بِضم جُهده إلى جُهد أخيه في نُصرة دين الله كالمساعدة ، وهي ضم ساعده إلى ساعد أخيه لتحصيل القوّة ، وله أنواع من جهاد الأعداء ليكونَ الدين كله لله ، وجهاد النفس بحملها على اتباع الأحكام وترك الحظوظ وتكليف الخصلة المذمومة المفرطة خلاف مقتضاها والعمل بنقيضِ موجبها حتى اعتدلت وتناسقت قوّة العلم والغضَب والشَّهوة والعدل ، وهو أشد من الأول ولذا ورد : (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الأكبر) (١) لأن النفس كالملك في داخل الإنسان وعسكره الروح الحيوانية والطبيعية والهوى والشهوة ، وهي في نفسها عمياء لا تُبصر المهالك ، ولا تميز الخير من الشر إلى أن ينوّر الله بلطيف حكمته بصيرتها فتبصر الأعداء والمعارف وتجد البنيان الإنساني مملوءًا من خنازير الحرص وتكالب الكلب ونمر الغضب والشهوة الحمارية وحية الشيطان ، فكنستها من الرذائل وزينتها بالفضائل ، وأما جهاد القلب فتصفيته وقطع تعلقه عن الأغيار ، وجهاد الروح بإفناء الوجود في وجود الواحد القهار (٢) .

والله أعلم . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢٤٦٠) : منكر .

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١/١٨٣ .

المصادر والمراجع

١- الأعلام . خير الدين بن محمود بن محمد الزّركلي . دار العلم للملايين ـ بيروت لبنان الطبعة الخامسة ٢٠٠٢ م . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية .http ://www .almeshkat .net

٢- الأحاديث المختارة . تأليف :الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد ابن أحمد الحنبلي المقدسي المشهور بالضياء المقدسي . تحقيق: عبد الملك ابن عبد الله بن دهيش . مكتبة النهضة الحديثة . مكة المكرمة . الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية
http ://www .almeshkat .net.

٣- الأربعين على مذهب المتحققين من الصوفية لأبي نعيم .موقع إسلام ويب .
http ://library .islamweb .net

٤- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد . تأليف : أحمد بن محمد ابن المهدي بن عجيبة الحسني . تحقيق : عمر أحمد الراوي . دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان .الطبعة الثالثة ٢٠١٠م .

٥- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة . الحافظ ابن حجر العسقلاني . تحقيق : محمد عبد المعيد ضان . مجلس دائرة المعارف العثمانية صيدر أباد ـ الهند ١٣٩٨هـ - ١٩٧٢م . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية
http ://www .almeshkat .net .

٦- الدر المنثور في التفسير بالمأثور . الحافظ جلال الدين السيوطي . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية . http ://www .almeshkat .net

٧- السنن الأربعة . تحقيق محمد ناصر الدين الألباني . نسخة من موقع الشيخ الألباني http ://www .alalbany .net

٨- المعجم الصغير للطبراني . أبو القاسم الطبراني . تحقيق : محمد شكور محمود الحاج أمرير . المكتب الإسلامي ، دار عمار – بيروت ، عمان الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية . http ://www .almeshkat .net

٩- المعجم الكبير للطبراني . أبو القاسم الطبراني .تحقيق : حمدي ابن عبد المجيد السلفي مكتبة العلوم والحكم . الموصل ـ العراق الطبعة الثانية ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية http ://www .almeshkat .net .

١٠- المستدرك على الصحيحين . تأليف الحاكم الإمام أبي عبد الله محمد ابن عبد الله بن حمدويه الحافظ . نسخة من موقع صيد الفوائد http ://www saaid .net .

١١- الموطأ . للإمام مالك بن أنس . اعتنى به : حسان عبد المنان ـ بيت الأفكار الدولية ٢٠٠٤م .

١٢- جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي . تحقيق : الدكتور محمد الأحمدي أبوالنور . دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة . القاهرة ـ مصر الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

١٣- حقائق عن التصوف . تأليف : عبد القادر عيسى . دار العرفان . حلب ـ دمشق الطبعة الثالثة عشرة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .

١٤- حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية . http ://www .almeshkat .net

١٥ - سلسلة الأحاديث الصحيحة . محمد ناصر الدين الألباني . نسخة من موقع الشيخ الألباني . http ://www .alalbany .net

١٦- سلسلة الأحاديث الضعيفة . محمد ناصر الدين الألباني . نسخة من موقع الشيخ الألباني . http ://www .alalbany .net

١٧- سنن الإمام النسائي(الكبرى) . أحمد بن شعيب النسائي . دار الكتب العلمية ـ بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١م . تحقيق : دكتور عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية . http ://www .almeshkat .net

١٨- صحيح الإمام البخاري . محمد بن إسماعيل البخاري . اعتنى به : حسان عبد المنان ـ بيت الأفكار الدولية ٢٠١٢ م .

١٩- صحيح الإمام مسلم . مسلم بن الحجاج النيسابوري . اعتنى به : حسان عبد المنان ـ بيت الأفكار الدولية ٢٠١٢م .

٢٠- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان . محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي . تحقيق : شعيب الأرناؤوط مؤسسة الرسالة ـ بيروت لبنان الطبعة الثانية ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية . http ://www .almeshkat .net

٢١- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين . تأليف : محمد بن علان الصديقي الشافعي الأشعري المكي . المتوفى سنة ١٠٥٧هـ . تحقيق : عصام الدين الصبابطي . دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع . القاهرة ـ جمهورية مصر العربية . الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

٢٢- فيض القدير شرح الجامع الصغير . محمد عبدالرؤوف المناوي . تحقيق : أحمد عبد السلام . دار الكتب العلمية . بيروت ـ لبنان . الطبعة الثالثة ٢٠٠٦م

٢٣- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح . الملا علي القاري . تحقيق الشيخ : جمال العيتاني دار الكتب العلمية بيروت لبنان ـ الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م .

٢٤- مسند الإمام أحمد . مؤسسة قرطبة ـ القاهرة الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرناؤوط عليها . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية .
http ://www .almeshkat .net

٢٥- مسند البزار . أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار المتوفى : ٢٩٢ هـ .المحقق : محفوظ الرحمن زين الله ، وعادل بن سعد ، وصبري عبد الخالق الشافعي ، مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة الطبعة : الأولى (بدأت ١٩٨٨م ، وانتهت ٢٠٠٩م) . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية . http ://www .almeshkat .net

٢٦- مسند الشاميين للطبراني . سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني . تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م . http ://www .almeshkat .net

٢٧- موسوعة الحافظ ابن حجر العسقلاني الحديثية . تأليف : وليد الزبيري ـ إياد القيسي ـ بشير القيسي ـ عماد البغدادي . سلسلة إصدارات الحكمة ـ لندن . الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م .

فهرس